



سلطنة عمان

جامعة نزوى

كلية العلوم والآداب

قسم اللغة العربية وأدابها

الكتاب في سورة يوسف د راسة د لالية

رسالة تقدم بها الطالب

سعيد بن خميس بن سالم الهاشمي

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وأدابها

تخصص : الدراسات اللغوية العربية

إشراف

أ.د. أحمد هاشم السامرائي

ربيع الآخر 1438هـ / يناير 2016 م

المحتويات

الصفحة	الموضوع
أ	ملخص الرسالة باللغة العربية
ج	ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية
١	المقدمة
٥	الفصل الأول : تناسب النص
٦	المبحث الأول : المناسبات في سورة يونس
٦	القسم الأول : المناسبات الخارجية : وتمثل ب :
٦	١. تناسب الترتيب المصحفي للسور الثلاث (التوبية يونس هود)
١٨	٢. التناسب بين فواتح السور الثلاث (التوبية يونس هود)
٣٦	٣. التناسب بين موضوعات سور (التوبية، يونس، وهود) وقصصها
٤٥	٤. التناسب بين فاتحة يونس وخاتمة التوبية
٤٨	٥. التناسب بين خاتمة يونس وفاتحة هود
٥١	القسم الثاني : المناسبات الداخلية، وتمثل ب :
٥١	تناسب اسم السورة مع مقصودها
٥٩	التناسب بين فاتحة السورة وخاتمتها
٦٤	التناسب بين الآيات، ويشمل :
٦٥	١. التناسب بين مقاطع الآيات
٨١	٢. تناسب الآية مع ما قبلها
٨٧	٣. تناسب الآية الواحدة من حيث : تناسب صدر الآية مع خاتمتها
٩٤	المبحث الثاني : تناسب القصصي
٩٤	أهمية القصص القرآني
٩٧	طرائق عرضه
١٠٥	تناسب التسلسل القصصي

الموضوع	
١١٣	تناسب القصة مع مقصود السورة
١٢٨	الفصل الثاني : تناسب الأسلوب والمتشابه اللفظي
١٢٩	المبحث الأول : تناسب الأسلوب وفيه :
١٢٩	تعريف الأسلوب
١٣٢	الأسلوب القرآني
١٣٣	تناسب التوكيد
١٥١	تناسب الإجمال والتفصيل
١٥٣	تناسب الاستئناف
١٦٠	المبحث الثاني : تناسب المتتشابه اللفظي
١٦٠	تعريفه المتتشابه اللفظي
١٦١	أهمية المتتشابه اللفظي
١٦٣	المتشابه في التركيب
١٧٠	المتشابه في إبدال الكلمة
١٨٤	المتشابه في أحوال الاسم
١٨٦	المتشابه في أحوال الفعل
١٨٨	المتشابه في الذكر والحذف
١٩٣	الفصل الثالث : تناسب النظم
١٩٧	المبحث الأول : تناسب التركيب والمفردة اللغوية
١٩٧	تناسب التركيب وفيه :
١٩٧	تناسب التقديم والتأخير
٢٠٥	تناسب الحذف
٢١٢	تناسب المفردة اللغوية
٢١٣	القسط
٢١٦	الكيرباء

الصفحة	الموضوع
٢١٨	فتر
٢٢٠	ببدنك
٢٢٣	المبحث الثاني : تناسب التشكيل الصوتي والبنية الصرفية
٢٢٣	تناسب التشكيل الصوتي، وفيه :
٢٢٥	أولاً: الفاصلة وأنواعها :
٢٢٦	١. التمكين
٢٢٧	٢. التصدير
٢٢٨	٣. التوشيح
٢٢٩	٤. الإيغال
٢٣٠	ثانياً : الدلالة الصوتية
٢٣٠	الأول : دلالة الصوت المفرد
٢٣٦	الثاني : دلالة تركيب الأصوات
٢٣٩	تناسب البنية الصرفية
٢٤٠	بنية التضعيف، ومنه
٢٤٠	فعّل
٢٤٣	تفعّل
٢٤٨	بنية المشتقات، ومنها :
٢٤٨	١. اسم الفاعل
٢٥١	٢. الصفة المشبهة
٢٥٤	٣. صيغة المبالغة
٢٥٨	الخاتمة
٢٦٦	قائمة المصادر والمراجع
٢١٨	فتر

A

ملخص الرسالة

إن القرآن الكريم بناء فنيٌّ فريد، لا يعلو عليه أيُّ بيان، ولا يسمو عليه أيُّ تعبير، فكل لفظة فيه عاشقة مكانتها، لما يتميز به من نظمٍ أعجز الألباب، وتناسب عجيبٍ حيرَ الأذهان، كيف لا، وهو كلام الملك الديّان.

والذي ينعم النظر ويدقق البصر في سور القرآن الكريم يجد أنها تشكل لحمة موضوعية واحدة، متناولة مقاصد معينة، وأهدافاً سامية، ومرامي سامقة، أراد الله أن يبلورها في آيٍ كتابه، ويؤكدَها في صفحات قرآنه الذي أنزله على قلب نبيه المصطفى ﷺ.

ولا يقف التنااسب في السور القرآنية عند حدٍ التنااسب الموضوعي، بل يتعداه إلى التنااسب في التركيب الذي يدلُّ على الدقة في اختيار المفردة القرآنية، وانسجامها داخل التركيب، وروعة انتقاء بنيتها الصرفية، وأصواتها اللغوية، إلى جانب الوقوف على أوجه الإحكام في ترتيب آيات السورة القرآنية داخلياً، ويظهر ذلك في تنااسب فاتحتها بخاتمتها، وتناسق مقاطع آياتها مع بعضها، وترتبط فاصلة كل آية بصدرها، مما يجعل السورة نصاً متماساً الأجزاء، لتترابط مرة أخرى مع السورة التي قبلها، والسورة التي بعدها، ومن ثمَّ كان القرآن الكريم كُله كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض، بل هو كالآلية الواحدة كما يقول الفخر الرازي، ناهيك عن تنااسب القصص داخل كل سورة بما يتوافق مع مقاصد تلك السورة.

ويأتي علم المناسبة ليُفتح للدارسين والباحثين عن هذا التلام الموضوعي والترابط في التركيب والترتيب في السور القرآنية، ولهذا قررت الكتابة في هذا العلم، بعد أن أوضح لي الأستاذ الدكتور أحمد هاشم السامرائي بعضًا من جوانب هذا العلم، وخَيَّرَني بين سورتي يونس والقصص لكونهما لم تُدرسَا بعد في ضوء علم المناسبة، فاختارت سورة يونس، فكان عنوان رسالتي : (سورة يونس . دراسة لغوية في ضوء علم المناسبة).

❖ أسباب اختيار الموضوع :

١. أهمية علم المناسبة في خدمة كتاب الله الذي لا تتقضي عجائبه .
٢. الرغبة في دراسة علم المناسبة في سورة يونس ؛ لكونها لم تُدرس بعد .
٣. الوقوف على أسرار المناسبة بين آيات السورة ومقاطعها وقصصها وأساليبها.

٤. التَّدْرُبُ عَلَى تَحْلِيلِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي ضَوْءِ عِلْمِ الْمَنَاسِبَةِ .

❖ أهمية الموضوع :

تتمثل أهمية الموضوع في أنه يخدم كتاب الله في تجليته روائع النظم فيه، وإظهار صورة من صور الإعجاز القرآني، فضلاً عن كونه يفتح آفاقاً تفسيرية رحبة للمتدبرين في آياته .

❖ خطة الرسالة :

اقتضت طبيعة البحث أن تقسم الرسالة إلى تمهيد وثلاثة فصول، مذيلة بخاتمة قائمة المصادر والمراجع، على وفق المنهجية الآتية :

١. التمهيد : وخصّصته لـ (علم المناسبة) ، فتناولت فيه : (تعريف علم المناسبة ، وبيان أهميته ، ومكانته في التراث) .

٢. الفصل الأول : عنوانه : (تناسُبُ النَّصِّ) ، فتناولت فيه نصّ سورة يونس على مبحثين : (المناسبات في سورة يونس)، و(تناسُبُ القصص) .

٣. الفصل الثاني : عنوانه : (تناسُبُ الأسلوبِ والمتشابهُ اللفظي) ، فجاء على مبحثين : (تناسُبُ الأسلوب)، و(تناسُبُ المتتشابهُ اللفظي) .

٤. الفصل الثالث : (تناسُبُ النظم) ، فجاء مقسماً على مبحثين : (تناسُبُ التركيب النحوي والمفردة اللغوية)، و(تناسُبُ التشكيل الصوتي و البنية الصرفية) .

٥. الخاتمة : اشتملت على أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الرسالة في فصولها المختلفة.

Abstract

The Holy Quran is based on a unique structure where no eloquence would be better than, nor expression would reach its magnificence. Each utterance is put in well-chosen place as the Quran system continues to bewilder the brightest minds: it is the miraculous speech of the Almighty Allah indeed.

Closely examining the Holy Quran Surahs (Chapters), a person would find out that they form a one unit theme; examining certain objectives and realizing majestic intentions. The Almighty Allah wants to manifest these in the verses of the Holy book that being revealed to the blessed heart of Prophet Mohammad.

However, the relevance of the Surahs is not only dependent on the thematic appropriateness, but it goes further to the structural one as it demonstrates accuracy of the Quran lexical choice, its consistence within structure as well as the impressive selection of its morphology and phonetics, and the perfect internal order of the verses in each Surah. This would be clearly shown on the suitability of the introduction and conclusion, arrangement of the verses' syllabus, linkage of each verse's interval with its introduction; thus, maintaining the Surah cohesion and its association with the precedent and subsequent ones. Taking these into consideration, the Holy Quran is taken as a one Surah because of its interconnection, and rather Al-Fakhr Al-Razi described it as one Surah, and the narratives are consistent with their purposes indeed.

‘Relevance Science’ provides researchers with exposure to the thematic blend, association in structure and order of Surah. Thus, I consider to write on this field, after this topic being deliberated with Dr. Hashim Al-Samurai, who advised me to select whether Surah of ‘Yunus’ or ‘Al-Qasas’ as they have not been studied yet in terms of ‘Relevance Science’.

Reasons for topic selection:

The researcher opts for Surah ‘Yunus; due to its external appropriateness with both ‘Tauba’ and ‘Hud’ Surahs, besides its internal appropriateness in terms of verses and syllabus. There are also a number of narratives connected in certain objectives, and bearing in mind that this Surah has not examined yet, despite the fact of its richness for study and application.

Significance of the study:

The importance of this research is derived from the fact that it is dedicated for the sake of serving the Holy Quran in the manifestation of its magnificent systems and revelation of some of its miracles. It would also entail scholars to diverse interpretations of the Quran verses.

Methodology:

1. Chapter one is titled ‘Relevance of Text’ and it reviews the text in ‘Yunus’ in two sections: (occasions in Yunus) and (suitability of narratives).
2. Chapter two divides the topic ‘Relevance of Pattern and Lexical Similarity’ into two sections: (Relevance of Pattern) and (Relevance of Lexical Similarity).

3. Chapter three examines ‘Relevance of Systems’ in two sections: (Relevance of Grammar Structure and Terminology) and (Relevance of Phonetics and Morphology).
4. The conclusion highlights the research findings in different chapters.

It is note-worthy that, researcher favored not to write an introduction about Relevance Science; given the prior extensive research on this field .

الله
مَلِكُ
الْعَالَمَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل كتابه متناسب الأجزاء، مُحْكَم البناء، والصلة والسلام على الحبيب محمد خير أئبأه الأصفياء، وعلى من سار على نهجه من عباد الله الأوفياء، أمّا

بعد :

فإن القرآن الكريم بناء فنيٌ فريد، لا يعلو عليه أي بيان، ولا يسمو عليه أي تعبير، وكل لفظة فيه عاشقة مكانها، لما يتميز به من نظمٍ أعجز الألباب، وتناسب عجيب حير الأذهان، كيف لا، وهو كلام الملك الدين.

إن من ينعم النظر ويدق البصر في سور القرآن الكريم يجد أنها تشكل لحمة موضوعية واحدة، متناولة مقاصد معينة، وأهدافاً سامية، ومرامي سامية، أراد الله تعالى أن يبلورها في آيٍ كتابه، ويؤكدَها في صفحات قرآنه الذي أنزله على قلب نبيه المصطفى ﷺ.

ولا يقف التنااسب في السور القرآنية عند حد التنااسب الموضوعي، بل يتعداه إلى التنااسب في التركيب الذي يدل على الدقة في اختيار المفردة القرآنية، وانسجامها داخل التركيب، وروعه انتقاء بنيتها الصرفية، وأصواتها اللغوية، إلى جانب الوقوف على أوجه الإحكام في ترتيب آيات السورة القرآنية داخلياً، ويظهر ذلك في تنااسب فاتحتها بخاتمتها، وتناسق مقاطع آياتها مع بعضها، وترتبط فاصلة كل آية بصدرها، مما يجعل السورة نصاً متماساً الأجزاء، لترتبط مرة أخرى مع السورة التي قبلها، والسورة التي بعدها، ومن ثم كان القرآن الكريم كله كأنه سورة واحدة ؛ لاتصال بعضه ببعض، بل هو كأنه آية واحدة كما يقول الفخر الرازي، ناهيك عن تنااسب القصص داخل كل سورة بما يتوافق مع مقاصد تلك السورة.

❖ أسباب اختيار الموضوع أجملها في الآتي :

١. أهمية علم المناسبة في خدمة كتاب الله الذي لا تتقاضي عجائبها .
٢. الرغبة في دراسة علم المناسبة في سورة يونس ؛ لكونها لم تدرس بعد .
٣. الوقف على أسرار المناسبة بين آيات السورة ومقاطعها وقصصها وأساليبها.
٤. التدرب على تحليل النصوص القرآنية في ضوء علم المناسبة .

❖ الدراسات السابقة :

لم أجد حسب المعلومات المتوفرة لدى مَنْ دراسات في علم المناسبة في سورة معينة إلا دراسة واحدة ، وهي رسالة ماجستير للباحث هشام ستار مهدي السامرائي ، بعنوان (سورة النمل ، دراسة لغوية في ضوء علم المناسبة) ، فأفادت منها ، إلى جانب اعتمادي على الكتب الأخرى التي عنيت بجانب النظر في التعبير القرآني ؛ كتاب (التعبير القرآني) للأستاذ الدكتور فاضل السامرائي ، وكتاب (التعبير القرآني والدلالة النفسية) للدكتور عبدالله محمد الجيوسي ، وغيرها من الكتب .

❖ خطة الرسالة :

اقتضت طبيعة البحث أن تقسم الرسالة إلى تمهيد وثلاثة فصول، مذيلة بخاتمة وقائمة المصادر والمراجع، على وفق المنهجية الآتية :

١. التمهيد : وخصّصته لـ (علم المناسبة) ، فتناولت فيه : (تعريف علم المناسبة ، وبيان أهميته ، ومكانته في التراث) .
٢. الفصل الأول : عنوانه : (تناسب النَّصِّ)، فتناولت فيه نصّ سورة يونس على مبحثين : (المناسبات في سورة يونس)، و (تناسب القصص) .
٣. الفصل الثاني : عنوانه : (تناسب الأسلوب والتشابه اللفظي)، فجاء على مبحثين : (تناسب الأسلوب)، و (تناسب المشابه اللفظي) .
٤. الفصل الثالث : (تناسب النظم)، فجاء مقسماً على مبحثين : (تناسب التشكيل الصوتي و البنية الصرفية) و (تناسب التركيب النحوي والمفردة اللغوية) .
٥. الخاتمة : اشتغلت على أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الرسالة في فصولها المختلفة .
٦. المصادر والمراجع : فقد كانت متعددة ما بين الكتب، والرسائل العلمية والأطروحتات الجامعية، وعلى رأس هذه المصادر : تفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير مفاتيح الغيب للرازي، ونظم الدرر للبقاعي، والتحرير والتتوير لابن عاشور، والأساس في التفسير لسعيد حوى، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وكتب الدراسات القرآنية للأستاذ الدكتور فاضل السامرائي، ومقاييس اللغة لابن فارس .

ولا يفوتي هنا إلا أن أقدم بجزيل الشكر، وجميل الثناء، وعظيم الامتنان للأستاذ الدكتور (أحمد هاشم السامرائي) الذي تكرم علي بإشرافه على هذه الرسالة، وجاد بالكثير من وقته وجهده وعلمه؛ فأسدى إلي من توجيهاته القيمة، ونصائحه الجليلة بما ينھض بالرسالة على الوجه المطلوب رصانة علمية ومنهجية، وبما يقوّم اعوجاجها، فضلاً عن توفيره لي المصادر والمراجع ، كما أشكر لكل من مدّ لـي يد العون والمساعدة في إنجاز هذا العمل المتواضع .

وختاماً لهذا جهد مقلّ، فما كان فيه من صوابٍ فمن اللهٍ وحده، وإن كان به من خطأٍ فمن نفسي ومن الشيطان ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَارَةٌ بِالشَّوَّءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّهِ إِنَّ رَبَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].



تعريف علم المناسبة :

(المناسبة) في اللغة : مشتقةٌ من مادة (نَسَبَ) التي تدور حول معنى : اتصال شيء بشيء ، قال ابن فارس : ((النون والسين والباء كلمة واحدة ، قياسها اتصال شيء بشيء ، منه : (النَّسَبُ) ، سُمِّيَ لاتصاله ، وللاتصال به ، تقول : (نَسْبَتْ أَنْسَبُ ، وهو نَسْبُ فلان) ... ، و (النَّسِيبُ) : الطريق المستقيم ؛ لاتصال بعضه من بعض))^١.

ويقال : (((بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ مُنَاسَبَةٌ وَتَنَاسُبٌ) : أَيْ مُشَاكِلَةٌ وَتَشَاكِلٌ ، وَكَذَا قَوْلُهُمْ : (لَا نِسْبَةٌ بَيْنَهُمَا ، وَبَيْنَهُمَا نِسْبَةٌ قَرِيبَةٌ)))^٢.

من خلال هذا النظرة المعجمية يتبيّن لنا أنَّ مفردة (المناسبة) قائمة على (المشاكلة ، والمقاربة ، والاتصال) ، ومن جهة أخرى أن مصطلح (المناسبة) مصدر (ناسب) الذي يدلُّ على المفاعة والمشاركة ، وهذا يقتضي وجود أمر يربط بين شيئين أو يقارب بينهما.

(المناسبة) اصطلاحاً : يُعدُّ علم المناسبة من علوم القرآن الكريم ، وهو : ((علم ثُعُرْف منه عِلْلَ ترتيب أجزائه))^٣ ، ومرجعها في الآيات ونحوها ((إِلَى معنى ما رابط بينهما عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيالي ، وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني ، كالسبب والسبب والعلة والمعلول والنظيرين والضديين ونحوه))^٤.

وقد عَرَفَ الدكتور مصطفى مسلم علم المناسبة بقوله : ((هي الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه ، وفي كتاب الله تعالى ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها ، وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها))^٥ ، ولكن هذا التعريف لم يأتِ على كل الجوانب التي يهتم بها علم المناسبة من تناسب فاتحة السورة بخاتمتها ، وتناسب موضوعاتها وقصصها ، وللشيخ متّاعقطان تعريف جامع لجوانب اهتمامات علم المناسبة ، إذ يقول :

^١. مقاييس اللغة : ٥ / ٤٢٣ - ٤٢٤ (نسب).

^٢. تاج العروس : ٤ / ٢٦٥ (نسب).

^٣. نظم الدرر : ١ / ٦ .

^٤. البرهان في علوم القرآن : ١ / ٣٥ .

^٥. مباحث في التفسير الموضوعي : ٥٨ .

((وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة ، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة ، أو بين السورة والسورة))^١.

ويتبين من خلال ما سبق التوافق بين العرض اللغوي والاصطلاحي لتعريف علم المناسبة ، في أنه يعني ببيان أوجه التناسب والارتباط بين الآيات والسور كمثل ما بين المتناسبين من قرابة ، ولكن لا يعني ذلك أن تكون الآيتان أو الآيات متماثلة تمام التماثل فيما بينها ، فقد يوجد بينها تضاد أو تباعد في المعنى ، وهذا يدعونا بدوره إلى الاستمرار في المحاولة بحثاً عن الروابط بينها.

أهمية علم المناسبة

علم المناسبة علم مهم ، فهو يشحذ الفكر تدبراً في العلاقة الواشجة بين آيات القرآن الكريم ، ويعمق التفكير لدى القارئ في البحث عن أسرار التعبير القرآني في ترتيب سوره وأياته وتراكيبه وألفاظه ، فينتهي به الأمر إلى الإيقان بأنَّ القرآن معجز في نظمه وحدة نصه ، يقول الرازمي أثناء تفسيره لسورة البقرة : ((ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة ، وفي بدائع ترتيبها ، علم أنَّ القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك))^٢.

والتشَرُب بحكم الترتيب والوقوف على دقة النظم ، يورث في القلب يقيناً ، ويُمكّن في العقل إدراكاً بأنَّ القرآن كُلُّ لا يتجزأ ، لأنَّ هذا العلم يجعل ((أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، وبصير التأليف حاله حال البناء المحكم ، المتلازم الأجزاء))^٣ ، وبهذا يتحقق ارتباط السورة القرآنية بآياتها ، فيكون هذا العلم سبباً في فهم النَّصِّ القرآني ، ومساعداً على حلّ كثير من مشكل تفسير بعض الآيات ، يقول البقاعي : ((وبذلك يوقف على الحقّ من معاني آيات حار فيها المفسرون ، لتضييع هذا الباب من غير ارتياض ... ، منها قوله تعالى في سورة [النساء : ٩٥ - ٩٦] : ﴿فَضَلَّ اللَّهُ الْمُجْهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ﴾

^١. مباحث في علوم القرآن : ٩٦ .

^٢. مفاتيح الغيب : ٧ / ١٣٩ .

^٣. البرهان في علوم القرآن : ١ / ٣٦ .

وَأَقْسِيمُهُمْ عَلَى الْقَعِيدِينَ دَرَجَةً ﴿٤٥﴾ مع قوله عقبه : **﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجْهِدِينَ عَلَى الْقَعِيدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** دَرَجَتٌ ^١ .

فضلاً عن أهميته في إيضاح التاسب بين آيات التشريع ، وبيان مدى التلاؤم التام بين أحكام الشريعة ، فمثلاً في قوله ﷺ : **﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْشُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَنَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾** [النور: ٣٠] ، فالمناسبة بين الأمر بغض البصر والأمر بحفظ الفرج واضحة ومتنامية ؛ إذ حفظ الفرج لا يكون إلا بغض البصر ، بمعنى آخر أن غض البصر مقدم على حفظ الفرج ، وإلا لوقع الإنسان في الزلل ؛ لأن النظر سهم من سهام الشيطان ^٢ .

كما لعلم المناسبة فضل في رفد (التفسير الموضوعي) بوجوه المناسبات التي تعين على تحديد محور السورة وهدفها ، وتفتح آفاقاً واسعة للمفسر في دراسة قضية معينة في القرآن ، أو دراسة سور القرآنية دراسة تتناول موضوعاتها وأهدافها التي ترمي إليها ^٣ ، ومن ثم لا غرابة أن يقول الإمام فخر الدين الرازي : ((أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط)) ^٤ .

موقف العلماء من علم المناسبة

وعلى الرغم من هذه الأهمية التي يحظى بها علم المناسبة ، إلا أن هناك من العلماء من اتّخذ موقفاً معارضًا لهذا العلم ، وهناك من توسط بين رده وقوله ، وسأعرض ذلك الموقفين على النحو الآتي :

أولاً : موقف المعارضين :

على رأس هؤلاء المعارضين الشيخ محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ^٥ ، وأنقل هنا بعضًا مما قاله في إنكاره علم المناسبة : ((اعلم أن كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم مُتَكَلِّفٍ ،

^١. نظم الدرر : ١٣ / ١ .

^٢. ينظر : المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها ، دراسة تطبيقية : ٤ - ٥ .

^٣. ينظر : مباحث في التفسير الموضوعي : ٩١ ، وعلم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن وكشف إعجازه : ٤٢ .

^٤. مفاتيح الغيب : ١٤٥ / ١٠ .

^٥. فمن وافق الشوكاني في إنكاره علم المناسبة الشيخ محمد بن عبد الله الغزنوي (ت ١٢٩٦ هـ) ، ينظر : مباحث في التفسير الموضوعي : ٦٢ .

وخاصوا في بحر لم يُكْلِفُوا سباته ، واستغرقوا أوقاتهم في فنٌ لا يعود عليهم بفائدة ، بل أوقعوا أنفسهم في التكلُّم بممض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه ، وذلك أئمَّهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف ، فجاوزوا بتتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف ، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرَّبِّ سبحانه ، حتَّى أفردوا ذلك بالتصنيف ، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف ، كما فعله البقاعي في تفسيره ، ومن تقدمه حسبما ذكر في خطبه ، ... ، فأي معنى لطلب المناسب بين آيات نعلم قطعاً أنه قد تقدم في ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخراً، وتتأخر ما أنزله الله متقدماً ، فإنَّ هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن ، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة ، وما أقلَّ نفع مثل هذا وأنزَرَ ثمرته ، وأحرق فائدته ، بل هو عند من يفهم ما يقول وما يقال له من تضييع الأوقات ، وإنفاق الساعات في أمر لا يعود بنفع على فاعله ، ولا على من يقف عليه من الناس)^١. وإنني لأعجب من قول الشوكاني في ردِّه علم المناسبة بأنه علم مُتَكَلَّف ، إذ كيف يكون علماً مُتَكَلَّفاً ، وهو سبيل إلى بيان إعجاز القرآن الكريم في نظمه ، وطريق إلى كشف أسراره البينانية في ألفاظه وتراسيمه ، بل يجعل النَّصَّ القرآني لحمةً واحدةً متماسكةً ، والمتبوع للنقد في العصر الجاهلي يلحظ كيف كانوا ينقدون بعضهم بعضاً عندما يحيدون عن وحدة النص ، كما يقول أحدهم : أنت تقول الشعر وابن عمك ، وأنا أقول الشعر وأخاه ، فكيف لا يكون هذا التناسب في أعلى مقامات الكلام ببلغةً ، وأرفع مرافق النظم فصاحةً ، وهو كلام الله العزيز الحكيم ، ثمَّ إنْ كان مِنْ تَكْلِيفٍ جَرَثْ به بعض الألسن أو خَطَّه بعض الأقلام ، فليس هذا سبباً في ردِّ هذا العلم ، أو الطعن في فيه ، وإنما ترد هذه الأقوال المُتَكَلَّفةُ نفسُها^٢ ، وفي هذا يقول الأستاذ الدكتور نور الدين عتر : ((ونجيب عن هذا بأن هذا حيف على المفسرين واضح ، فما أكثر المناسبات الذكية الصحيحة التي يقبلها العقل ، ويطرب لها الذوق في كتبهم ، وإذا كنَّا نرفض أي علم لأنخطاء وقعت في بعض أمور اجتهاد أفراد من أهلِه ، فأخطأوْها في زعمنا لما بقي لنا علم))^٣.

^١. فتح القدير : ١ / ١٧١ - ١٧٣ .

^٢. ينظر : علم المناسبات في السور والآيات : ٣٤ ، ومباحث في التفسير الموضوعي : ٦٥ .

^٣. علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن وكشف إعجازه : ١٣ - ١٤ .

أما شبهة انعدام طلب المناسبة بين الآيات ، بحجّة أنّها نزلت متفرقةً على حسب الواقع على مدار نيف وعشرين سنةً ، فهي ليست بشبهة أصلًا ، فكما أنّ لنزلول الآيات لحكمةً ، وكذلك لترتيبها داخل المصحف حكمة في مراعاة تناسبها ، وإحکام تناسقها ، فقد نزلت الآيات بعلم الله ، ورثبَتْ بوحيه^١ ، والقول بعدم المناسبة بين الآيات ، فيه ما فيه من المجازفة ؛ لأنّ فيه افتراضًا أن هناك تناقضًا بين نزول الآيات وترتيبها في المصحف ، والله تعالى يقول : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ أَخْلَاقًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ، بينما القول بالمناسبة فيه تزييه لكلام الله عن الفوضى والتناقض^٢ .

وأما قوله بأنّ المناسبة كلام (بمحضر الرأي المنهي عنه) ، فالأستاذ الدكتور نور الدين عتر ردّ جميلٌ في ذلك ، إذ يقول : ((إنَّ الادْعَاء بِأَنَّ فِي الْمَنْسَابَةِ كَلَامًا بِمَحْضِ الرَّأْيِ الْمَنْهَى عَنْهُ) ، لأنَّ الرَّأْيَ الْمَنْهَى عَنْهُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ هُوَ الرَّأْيُ النَّاسِيُّ عَنِ الْهُوَى أَوِ الْبَعِيدُ عَنِ الْإِسْتِدَالِ الْمَقْبُولِ ، وَمَا كَانَ مِنَ الْقَوْلِ فِي الْمَنْسَابَةِ هَذَا لَا تَخَالَفُ فِي مَنْعِهِ ، وَأَنَّ الْخَوْضَ فِيهِ غَيْرُ جَائِزٍ ، أَمَّا مَا كَانَ مُسْتَدَدًا إِلَى دَلَائِلِ مُعْتَبَرَةٍ فِي أَصْوَلِ دَرَاسَةِ النَّصِّ ، فَكَيْفَ يَكُونُ مَنْهَى عَنْهُ ، بَعْدَمَا تَبَيَّنَ مَشْرُوعِيَّةُ التَّفْسِيرِ بِالرَّأْيِ النَّاسِيِّ عَنِ الْبَحْثِ الصَّحِيحِ الْمُسْتَوْفِيِّ لِشَرْوُطِهِ الْمُعْتَبَرَةِ))^٣ .

ومما يثير العجب العجاب أن تجد الشوكاني نفسه يورد شيئاً من المناسبة في تفسيره ، فقد قال ، مثلاً ، في مناسبة قوله تعالى^٤ : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ إِذَا مَأْتُمُوا أَذْخُلُوا فِي الْسِّلْمِ كَافَةً وَلَا تَثْبِطُوا خُطُوطَكُمْ إِنَّهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨] مع الآيات التي قبلها : ((لما ذكر الله سبحانه أن الناس ينقسمون إلى ثلات طوائف: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين، أمرهم بعد ذلك بالكون على ملة واحدة))^٥ .

بل نجده يشي على البقاعي بسبب كتابه (نظم الدرر) ، فيقول : ((وَمَنْ أَمْعَنَ النَّظرَ فِي كِتَابِ الْمُتَرَجَّمِ لَهُ فِي التَّفْسِيرِ الَّذِي جَعَلَهُ فِي الْمَنْسَابَةِ بَيْنَ الْآيِّ وَالسُّورِ ، عَلِمَ أَنَّهُ مِنْ أَوْعِيَةِ الْعِلْمِ الْمُفْرِطِينَ فِي الذَّكَاءِ ، الْجَامِعِينَ بَيْنَ عَلْمِ الْمَعْقُولِ وَالْمَنْفُولِ ، وَكَثِيرًا مَا يُشْكِلُ عَلَى

^١. ينظر : المصدر نفسه : ١٦ .

^٢. ينظر : مباحث في التفسير الموضوعي : ٦٦ .

^٣. علم المناسبات وأهميتها في تفسير القرآن وكشف إعجازه : ١٣ .

^٤. فتح القدير : ١ / ٣٧٣ .

شيء في الكتاب العزيز ، فأرجع إلى مطولات التفاسير ومختصراتها ، فلَا أجد مَا يشفي وأرجع إلى هذا الكتاب فأجد مَا يُفيد في الغالب)^١ .

ثانيًا : موقف الوسطيين :

ومن هؤلاء سلطان العلماء الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) ، إذ كان موقفه وسطيًّا بين قبول المناسبة وردّها ؛ فإن كانت المناسبة ظاهرة قبلها ، وإن كانت خفيةً ردّها ، وفي ذلك يقول : ((المناسبة علم حَسْنٌ ، ولكن يُشترط في حُسْن ارتباط الكلام أن يقع في أمر مُتَّحِدٍ مُرْتَبِطٍ أَوْلُه بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يُشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر ، ومن رَبَطَ ذلك ، فهو مُتَكَافِئٌ بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يُصان عنه حَسْنُ الحديث ، فضلاً عن أحسنـه ، فإن القرآن نزل في نِيَفٍ وعشرين سنةً في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتَّأْتَى رَبَطٌ بعضاً ببعض))^٢ .

وجهة نظره هذه قائمة على أن المناسبة لا بد لها من شرط لقبولها ، وهو أن تكون في أمر مُتَّحِدٍ يرتبط أَوْلُه بآخره ، وما عدا ذلك فالمناسبة غير مقبولة ، بحجة أن القرآن نزل منجماً على حسب الواقع والأحوال ، وهذا ما لا يمكن ربط بعضه ببعض ، فيتعذر طلب المناسبة منه ، إلا بالتكلف ، والتعسف في الربط بين الآيات ، وهو بهذا يشتراك مع الشوكاني في الحُجَّة ، ويختلف عنه بوسطيته.

وقد نقل الزركشي ردًّا أحد مشايخه المحققين عليه ، أنقله هنا بنصه وفصه لنفاسته ، إذ يقول : ((قد وَهُم مَنْ قَالَ : لَا يُطْلَب لِلَّাযِ الْكَرِيمَةِ مَنْسَبَةٌ ؛ لَأَنَّهَا عَلَى حَسْبِ الْوَقَائِعِ الْمُتَفَرِّقَةِ ، وَفَصْلُ الْخِطَابِ : أَنَّهَا عَلَى حَسْبِ الْوَقَائِعِ تَتَزَرِّيلًا ، وَعَلَى حَسْبِ الْحِكْمَةِ تَرْتِيبًا ، فَالْمُصْنَفُ كَالصُّحْفِ الْكَرِيمَةِ عَلَى وَفْقِ مَا فِي الْكِتَابِ الْمَكْتُونِ ، مُرَتَّبَةٌ سُورَةٌ كُلُّهَا وَآيَاتُهُ بِالْتَّوْقِيفِ ، وَحَافِظُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ لَوْ اسْتُقْتَيَ فِي أَحْكَامٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، أَوْ تَأَظَّرَ فِيهَا ، أَوْ أَمْلَاهَا لِذَكْرِ آيَةٍ كُلَّ حُكْمٍ عَلَى مَا سُئِلَ ، وَإِذَا رَجَعَ إِلَى التَّلَوَةِ لَمْ يَتَلَّ كَمَا أَفْتَى ، وَلَا كَمَا نَزَلَ مُفَرَّقاً بَلْ كَمَا أُنْزِلَ جُمْلَةً إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ ... ، قَالَ : وَالَّذِي يَنْبَغِي فِي كُلِّ آيَةٍ أَنْ يُبَحَّثَ أَوْلَ كُلِّ شَيْءٍ عَنْ كَوْنِهَا

^١. البدر الطالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السابع : ٢٠ / ١ .

^٢. البرهان في علوم القرآن : ٣٧ / ١ .

مُكَمِّلَةً لِمَا قَبْلَهَا ، أَوْ مُسْتَقِلَّةً ، ثُمَّ الْمُسْتَقِلَّةُ مَا وَجْهُ مُنَاسِبَتِهَا لِمَا قَبْلَهَا ؟ فَفِي ذَلِكَ عِلْمٌ جَمِّعٌ ،
وَهَكَذَا فِي السُّورِ يُطْلَبُ وَجْهُ اتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلَهَا وَمَا سِيقَتْ لَهُ))^١ .

ولعل الذي جعل هذين العالمين العز بن عبد السلام والشوكاني يقنان هذا الموقف من علم المناسبة ، هو الخوف من الوقوع في التكلف ، والتقول على الله بغير علم ، ولأجل النأي عن ذلك فقد وضع الدكتور محمد بازمول شروطاً لطلب المناسبات في القرآن الكريم ، وهي)) :

١. أن تكون المناسبة منسجمة مع السياق ، والسباق ، واللاحق .
٢. أن لا تكون المناسبة متعارضة مع الشرع .
٣. أن تكون متوافقة مع تفسير الآية ، غير مخالفة له مخالفة تضاد .
٤. أن لا تكون المناسبة متعارضة مع اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن العظيم .
٥. أن لا يجزم المفسر بأن هذه المناسبة هي مراد الله تعالى ، غاية الأمر أنَّ هذا ما أدى إليه اجتهاده ونظره وتدبره .
٦. أن يعلم أنَّ المناسبة موجودة ، ولا يلزم أن تكون ظاهرة في كلّ موضع لكل أحد))^٢ .

علم المناسبة في التراث النشأة والتأليف

لا يعلم على وجه الدقة نشأة علم المناسبة ؛ لأنَّه كان يرد على شكل شذرات ولطائف ، كأي علم من العلوم التي لم تنتظم في بدايتها في قواعد وأسس ، وأمَّا ما يُذكَر عند الباحثين من أنَّ واضع علم المناسبة هو أبو بكر النيسابوري (ت ٣٢٤ هـ) ، استناداً إلى ما قاله تلميذه أبو الحسن الشهرياني : ((أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ، ولم نكن سمعناه من غيره ، هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري ، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب ، وكان يقول على الكرسيِّ ، إذا قُرِئَ عليه الآية ، لِمَ جُعِلتْ هذه الآية إلى جنب هذه ؟ ، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ ، وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة))^٣ ، واستناداً إلى ما نقله السيوطي أنَّ أول من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو

^١. المصدر نفسه : ١ / ٣٧ .

^٢. علم المناسبات في السور والآيات : ٣٧ .

^٣. ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ٣٦ .

بكر النيسابوري^١ ، من غير أن ينسب هذا القول إلى قائله ، فقد أدى كلُّ هذا إلى القول بالأسقبية المطلقة إلى هذا العلم للنيسابوري^٢ . وقد تعقب الدكتور عبد الحكيم الأنبيس هذه النسبة ، مُبيِّناً عدم صحتها ، مستنداً في ذلك أنَّ النيسابوري الذي ينسب إليه هذا العلم ، قد ثُوُّفي سنة (٣٢٤ هـ) ، بينما النيسابوري الذي ذكره الشهراياني كان معاصرًا له ؛ لأنَّ الشهراياني من علماء القرن السابع الهجري^٣ ، وعليه فإن نشأة هذا العلم غير واضحة. وسأحاول أن أذكر تاريخ هذا العلم في النقاط الآتية :

١. وردت لمحات وإشارات على لسان السلف رضوان الله عليهم ، فقد كانوا يستأنسون بها في تفسير القرآن الكريم^٤ ، ومما يروى في ذلك عن ابن مسعود^٥ : (إذا سأل أحدكم صاحبه كيف يقرأ آيةً كذا وكذا ، فليسأله عما قبلها)^٦ .

٢. أول تفسير يرد فيه لطائف من المناسبات هو ((جامع البيان عن تأويل آي القرآن)) ، للإمام محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ) .

٣. تفسير ((الكاف)) للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، حظيت المناسبة بنصيب وافر ، إلا أنه ترك مواضع كثيرة لم يطرق بابها ببيان المناسبة فيها.

٤. تفسير ((مفاتيح الغيب)) للإمام فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦ هـ) ، وقد شهد له بأنه أكثر من المناسبات ، فقد كان كثيراً ما يورد أوجهًا من المناسبة بين السورة وما قبلها ، وبين الآية وما بعدها^٧ ، قال الغماري : ((والزمخشري والزمخشري يتعرض في تفسيره لبيان مناسبة الآي ، لكن الإمام الرازى أكثر تعُرضًا منه لبيان المناسبة))^٨ .

^١. ينظر : الإتقان في علوم القرآن : ٥ / ١٨٣٧ ، ومعترك القرآن في إعجاز القرآن : ١ / ٤٣ .

^٢. ينظر : أضواء على ظهور علم المناسبة القرآنية : ١٧ - ١٨ .

^٣. ينظر : المصدر نفسه : ٢٥ .

^٤. ينظر : علم المناسبات ، وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه : ٢٧ .

^٥. المعجم الكبير : ٩ / ١٤٠ (٨٦٩٣) .

^٦. ينظر : علم المناسبات ، وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه : ٢٨ .

^٧. ينظر : علم المناسبات ، وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه : ٢٨ .

^٨. جواهر البيان في تناسب سور القرآن : ١٥ - ١٦ .

٥. تفسير ((مفتاح الباب المقال على فهم القرآن المنزل)) لأبي الحسن علي بن أحمد الحرالي (ت ٦٣٧ هـ) ^١.

٦. تفسير كبير ((رأي الظمان في تفسير القرآن)) للإمام أبي عبدالله محمد بن عبدالله الأندلسي المرسي (٦٥٥ هـ) ، ويقع في عشرين مجلداً ، يهتم بارتباط الآيات بعضها بعض ، وبيان وجوهه ، إلى جانب تفسير وسط وصغير ^٢.

٧. تفسير ((التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير)) المعروف بـ ((تفسير ابن النقب)) لأبي عبدالله محمد بن سليمان المقدسي الحنفي المعروف بابن النقيب (ت ٦٩٨ هـ) ^٣ ، قال البقاعي في وصفه : ((ذُكر لي أن تفسير ابن النقيب الحنفي ، وهو في نحو ستين مجلداً ، يذكر فيه المناسبات ، وفي خزانة جامع الحاكم كثير منه ، فطلبت منه جزءاً ، فرأيت الأمر كذلك بالنسبة إلى الآيات لا جملها ، وإلى القصص لا جميع آياتها)) ^٤.

(مرحلة التصنيف)

• أمّا أول من أفرد هذا العلم بمؤلف مستقل ، فهو العالم الواحد الذي ذكره أبو بكر بن العربي بقوله : ((ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسبة المعاني منتظمة المبني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله - عز وجل - لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه)) ^٥ ، ثم أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣ هـ) الذي كتب ((ترتيب أي القرآن)) ^٦.

^١. ينظر : علم المناسبات في السور والآيات : ٢٤.

^٢. ينظر : أضواء على ظهور علم المناسبة القرآنية : ٤١.

^٣. ينظر : علم المناسبات في السور والآيات : ٢٥.

^٤. نظم الدرر : ١٠ / ١.

^٥. البرهان في علوم القرآن : ٣٦ / ١.

^٦. ينظر : أضواء على ظهور علم المناسبة القرآنية : ٥٧.

- كتاب ((البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن)) للعلامة الشيخ أبي جعفر بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨ هـ^١ ، قال عنه البقاعي : ((وهو لبيان مناسبة تعقّب السورة بالسورة فقط ، لا يتعرض فيه للآيات))^٢ .
 - كتاب ((نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)) لبرهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥ هـ) ، وهو تفسير للقرآن الكريم ، عنى كثيراً بأوجه المناسبة ، وقد أفاد البقاعي مما ذكره الحرالي من مناسبات في تفسيره ، وهو ما ذكره البقاعي نفسه : ((ثم بعد وصولي إلى سورة الأنفال ، ملكت جزءاً من ((تفسيره)) ، فيه من أوله إلى ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنِي عَادَمَ وَنُوحًا وَمَا لِابْرَاهِيمَ وَمَا لِعُمَرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^٣ في آل عمران ، فرأيته عديم النظير ، وقد ذُكرت فيه المناسبات ، وقد ذكرت ما أعجبني منها ، وعزوه إليه ، يَسِّرَ اللَّهُ الاطْلَاعَ عَلَى بَقِيَّتِهِ بِحُولِهِ وَقُوَّتِهِ))^٤ .
 - كتاب ((تناسق الدرر في تناسب السور)) لجلال الدين السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ) ، وله كتاب آخر هو ((مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع)) ، وهو يعني بتتناسب فواتح السور وخواتيمها بعضها مع بعض.
- وأما في العصر الحديث ، فقد ظهرت مؤلفات مستقلة بهذا العلم ، منها :
١. كتاب (جواهر البيان في تناسب سور القرآن) لعبد الله بن محمود الصديق الغماري.
 ٢. كتاب (التناسب البيني في القرآن - دراسة في النظم الصوتي والمعنوي) للدكتور أحمد أو زيد .
 ٣. كتاب (التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم) للأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي.
 ٤. كتاب (المناسبة في القرآن - دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين اللفظ والسياق اللغوي) للدكتور مصطفى شعبان المصري.

^١. ينظر : جواهر البيان في تناسب سور القرآن : ١٦ ، وعلم المناسبات ، وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه : ٢٨ .
^٢. نظم الدرر : ٦ / ١ .
^٣. المصدر نفسه : ١٠ / ١ .

إلى جانب الكثير من البحوث والرسائل الجامعية التي اعتبرت بهذا العلم ، وقد أفت منها بين ثنايا هذه الرسالة.

الفصل الأول

تناسب النص

وفيه ...

❖ المبحث الأول: المناسبات في سورة يونس

❖ المبحث الثاني: التناسب القصصي

المبحث الأول

المناسبات في سورة يونس

القسم الأول : المناسبات الخارجية :

تناسب سورة يونس مع ما قبلها (سورة التوبه) وما بعدها (سورة هود) :

❖ تتناسب سورة يونس داخل الترتيب المصحفى (التوبه، و يونس، و هود)
أنزل الله ﷺ القرآن الكريم على وفق منظومة متجانسة ومتعددة معنويًا وموضوعيًّا؛
فكل سورة لا تتبع عن أختها اللاحقة ولا عن أختها السابقة في الترتيب داخل المصحف، بل
تجدها تلتف وتمسك ما جاورها من سور لتجسد هذا الكتاب المتعالى على كل الكتب التي
أصابها التحرير والتبدل ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ أَخْيَلَفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] .

ويمكن إجمال تتناسب سورة يونس مع السورة التي قبلها (سورة التوبه)، والسورة التي
بعدها (سورة هود) ضمن الترتيب المصحفى في النقاط الآتية :

أ. ترتيب النزول :

ثمة تتناسب جزئيًّا بين سورة يونس وسورة هود في الترتيب المصحفى؛ فقد نزلت
قبل سورة هود، قال ابن عاشور : ((وهي السورة، يعني : سورة يونس، الحادية والخمسون
في ترتيب نزول السور . نزلت بعد سورةبني إسرائيل وقبل سورة هود))^(٢) ، وهذا الترتيب له
أثره في بيان الجو النصي لسورة يونس، كما سنعلم فيما في مبحث (التتناسب القصصي) .
ج. التفصيل والإجمال :

من وجوه التتناسب والترابط بين السور القرآنية التفصيل والإجمال، فنجد سورةً بحسب
الترتيب المصحفى محملة فتائي التي قبلها أو بعدها شارحةً لها ومبينةً، والعكس صحيح،
وهذا ما نلحظه في سورة يونس، إذ جاءت محملة من جهة، ومفصلة من جهة أخرى.

(١). قلت بالتناسب الجزئي على أساس أن سورة يونس نزلت بعد سورة الإسراء، وهذا خلاف الترتيب
المصحفى .

(٢). التحرير والتوير : ١١ / ٧٨ ، وينظر : تفسير الجلالين : ٢٠٨ .

ويمكن توضيح ما فصلته سورة يونس مع سورة هود أو أجملته في النقاط الآتية :

١. وردت قصة نوح عليه السلام في سورة يونس شارحة لتلك الإشارة الخاطفة في السورة التي قبلها، سورة التوبة، حين ذكرت نبأ نوح عليه السلام في سياق تعداد نبأ الأقوام السابقين ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ بَأْلَذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ ثُوجَ وَعَادٍ وَثَمُودٍ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفَكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبه: ٧٠] ، ولا غرو أن تستفتح القصة في يونس بـ ﴿ وَأَتَلَ عَلَيْهِمْ بَأْثُوجَ ﴾ [يونس: ٧١] ، بتكرار كلمة (نبأ) ، والتصدير بالواو التي كأنها معطوفة على آية التوبه^(١) في إشارة واضحة إلى ذلك التلاحم القصصي، والترابط الفني بين الإشارة الخاطفة في التوبه، وشرحها في يونس؛ فهناك ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ بَأْلَذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ ثُوجَ ﴾ [التوبه: ٧٠] ، وهنا ذكر النبأ ﴿ وَأَتَلَ عَلَيْهِمْ بَأْثُوجَ ﴾ [يونس: ٧١] .

وممّا يلحظ أن القصة في يونس قد وردت مجلمة في ثلاث آيات فقط؛ فلم تطرق إلى دعوة نوح قومه إلى عبادة الله، بل اكتفت بذكر رده على قومه، حينما رأهم مستقلين دعوته وشخصه بعد طول إنذار وتبيّغ، وفوق ذلك تحداهم أن يفعلوا به ما يشاؤون، متوكلاً على ربّه، دون أي ذكر للتفاصيل الأخرى^(٢).

قالَ اللَّهُ أَكْبَرُ : ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ بَأْ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنْ كَانَ كَبْرٌ عَلَيْكُمْ مَقَاءِي وَتَذَكِيرِي إِيمَانِي
اللَّهُ فَعَلَ أَلَّا تَوَكَّلْتُ فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشَرِكَةَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَّةً ثُمَّ أَفْضُوا إِلَيَّ وَلَا
تُنْظِرُونِ ﴾٧١ [يُونس: ٧١ - ٧٢] ، وَخَتَاماً ذَكَرَتِ الْآيَاتُ عَنْدَ قَوْمِهِ وَتَكْذِيبُهُمْ مَعَ بَيَانِ
الْمُسْلِمِينَ ﴾٧٢ [يُونس: ٧٢] مُصِيرِهِمْ وَهَلاْكِهِمْ، وَنِجَاهُ نُوحٍ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ^(٣) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ وَجَعَلْنَاهُمْ
خَلَتِيفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا إِيمَانِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنْقَبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾٧٣ [يُونس: ٧٣].

(١). الواو في الحقيقة ليست معطوفة، بل هي استئنافية، ينظر :الجدول في إعراب القرآن : ١١ / ١٦٦

(٢). ينظر : على طريق التفسير البياني : ٣ / ٨١ - ٨٢ .

(٣). ينظر : في ظلال القرآن : ١٨١٢ / ٣ .

بينما وردت القصة نفسها في سورة هود مفصلة^(١) في أربع وعشرين آية من الآية (٢٥) إلى الآية (٤٨)، وتضمنت التفاصيل الآتية :

- ابتدأ القصة بخطاب نوح عليه السلام قومه بأنه لهم نذير مبين، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده، من منطلق خوفه عليهم من أن يصيبهم عذاب أليم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾٢٥﴾ أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَمِينِ ﴾٢٦﴾ [هود: ٢٥ - ٢٦].

- ثم بینت الآیات رد قومه عليه بكل صفاقة وصلاحه، وإثارة الشبهات حوله، وحول أتباعه، ودعوته ﴿فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُنَا بِأَدَى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نُظْهِكُمْ كَذِيلِنَّ ﴾٢٧﴾ [هود: ٢٧].

- يرد عليهم نوح عليه السلام بكل محبة وتودد، ومكرراً ﴿يَقُولُ﴾، مبتدئاً كلامه بأنه رسول من عند الله، وهو على بینة ساطعة من ربه بذلك، وآتاه رحمة النبوة والهدایة التي أرسل بها، وإن رفضوها وكرهوها، فلن يلزمهم إياها، وهو في كل ذلك لا يسألهم أجرًا مقابل دعوته، ثم بین لهم أنه لا يستطيع طرد أتباعه^(٢) ﴿قَالَ يَقُولُ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بِيَنَتِي مِنْ رَبِّي وَإِنَّنِي رَجَمَهُ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتُ عَيْنَكُمْ كُمُوكُهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴾٢٨﴾ وَيَقُولُ لَا أَسْتَأْكِمْ عَلَيْهِ مَا لَيْلَانِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ إِمَانُوا إِنَّهُمْ مُلْقُو أَرْبَابِهِمْ وَلَا كُنْتَ أَرْكَنْتَ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴾٢٩﴾ وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُ فِي مِنْ أَنَّ اللَّهَ إِنْ طَرَّبَهُمْ فَلَا لَنَدَكَرُونَ ﴾٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عَنِي خَرَابِ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزَدَّرِي أَعْيُنْكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمْ يَنْظُمْ الظَّالِمِينَ ﴾٣١﴾ [هود: ٣١ - ٣١].

- ثم شعوا أمام ردوه عليه السلام بفشلهم عن مقارعته بالحجج، فأرادوا طي النقاش والجدال باستفزازه وتعجيزه بأن ينزل عليهم العذاب الذي توعدهم به^(٣) ﴿فَالْأُولَاؤ يَنْتَهُونَ قَدْ

(١). روح المعاني ١١ / ٢٠٢، وينظر : في ظلال القرآن ٤ / ١٨٧٠ .

(٢). ينظر : القصص القرآني ، عرض وقائع وتحليل أحداث : ١ / ١٧٣ .

(٣). التحرير والتنوير : ١٢ / ٦٠ .

جَذَلْتَنَا فَأَكَتَرَ حِدَالَةً فَأَلْنَا بِمَا تَعْذُنَا إِنْ كُثِنَ مِنَ الصَّدِيقِينَ ﴿٣٢﴾ [هود: ٣٢] ، فرد عليهم بأن ذلك المطلب مرجعه إلى الله الذي لا يعجزه شيء، وأن نصحه لن يفعهم شيئاً ما داموا مصرين على قناعاتهم الموروثة ﴿٣٣﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْنِيْكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِنَ ﴿٣٤﴾ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِيَ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ [هود: ٣٥] - [٣٤].

■ وهنا يعلن نوح عليه السلام أنَّ الأمر قد انتهى، وفترة الإنذار قد انقضت، فائزًا من آمن وأطاع، وخاسراً من كفر وعائد ^(١) ﴿٣٦﴾ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحَ أَنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ أَمَنَ فَلَا يَتَسِّعُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ [هود: ٣٦].

■ ثم ينتقل السياق إلى الحديث عن أمر الله نوحًا بصنع السفينة، وما تبع ذلك من استهزاء قومه وسخريتهم منه، فرد عليهم بأن عذاب الله سيحل عليهم ^(٢) وَأَصْنَعَ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيَنَا وَلَا تُخْبِطْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرِبُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكُلُّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخِرُوا مِنَّا فَإِنَّا سَخِرُونَا مِنْكُمْ كَمَا سَخِرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْقَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْنِيْهِ عَذَابٌ يُغَزِّيْهِ وَيَحْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ [هود: ٣٧ - ٣٩].

■ ثم يفصل السياق في حادثة فوران التنور والطوفان، وحملة السفينة من البشر المؤمنين وغير البشر، وكذلك تطرق الآيات إلى الحوار الذي دار بين نوح عليه السلام وابنه الكافر الذي أبى الركوب في السفينة، مستعصمًا بالجبل أمام تلك المياه المتلاطمـة ^(٣) حَتَّى إِذَا جَاءَهُ أَمْرُنَا وَفَارَ الْتَّنُورُ قُلْنَا أَخْمَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ أَثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقُولُ وَمَنْ مَاءَنَ وَمَا مَاءَنَ مَعَهُ، إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا إِسْمِ اللَّهِ بَحْرِنَاهَا وَمَرْسَنَاهَا إِنَّ رَبِّنِي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجَ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحُ أَبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْتَئِنُ أَرْكَبَ مَعَنَّا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكُفَّارِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَئَاوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ

(١). ينظر : القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث : ١ / ١٨٥ .

فَكَانَ مِنَ الْمُغَرَّقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقَيْلَ يَأْتِرُضُ أَبْلِي مَاءَ لَكَ وَنَسْمَاءَ أَقْبِي وَغِيشَ الْمَاءُ وَفُضَيَ الْأَمْرُ وَأَسْوَتَ عَلَى الْجُودِي ﴿٤٤﴾ وَقَيْلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾ [هود: ٤٠ - ٤٤].

▪ ثم ينتقل بنا السياق إلى ما بعد زوال الطوفان، واستواء السفينة على جبل الجودي، وفي هذه اللحظات شاهد نوح غرق ابنه أمام عينيه، فتحركت فيه الشفاعة عاطفة الأبوة تجاه ابنه، فيأتيه الرد من المولى تعالى أن القرابة الحقيقية هي قرابة الإيمان والعقيدة لا قرابة الدم^(١) : ﴿٤٦﴾ وَنَادَى نُوحُ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ يَنْثُوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ عَيْرَ صَلِحٌ فَلَا تَسْتَعْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَنِّهِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْتَكِنَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِّرِينَ ﴿٤٨﴾ [هود: ٤٧ - ٤٨].

▪ ثم يكون ختام القصة بمشهد النجاة والبشرى له وللمؤمنين معه، والوعيد والتهديد للمتكبين الصراط المستقيم^(٢) : ﴿٤٩﴾ قَيْلَ يَنْثُوُحُ أَقْبِطُ إِسَانِي مَنَا وَبَرَكَتِ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّي مَمَّنْ مَعَكَ وَأُمِّمَ سَمْتَعْهُمْ ثُمَّ يَمْسِهُمْ مَنَا عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٤٩﴾ [هود: ٤٩].

٢. لكننا نجد في المقابل أن سورة يونس فصلات قصة موسى عليه السلام أجمل تفصيل في آية من الآية (٧٥) إلى الآية (٩٣)، وجاء هذا التفصيل على النحو الآتي :

▪ تفصيل عرض موسى عليه السلام وأخيه هارون الآيات^(٣) على فرعون ولملئه الذين كذبوا واستكروا رافضين الحق من عند الله، وفوق ذلك وصفوه بأنه سحر مبين، مع بيان تعليل تكذيبهم له ﴿٥٠﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَزَرُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِائِيْهِ، يَأْيَنَا فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا شُجَّرِيْنَ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسْحَرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٢﴾ قَالَ مُوسَى أَنْقُلُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٧٩، وينظر : القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث : . ١ / ٢٠٤.

(٢). ينظر : المصدر نفسه : ١٨٨٠ / ٤.

(٣). جرى التفصيل عن هذه الآيات في سورة الأعراف في قوله ﴿١٣٣﴾ : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْطَّوْفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْأَقْمَلَ وَالضَّفَاعَ وَالدَّمَاءَ إِيْنِي مُفَصَّلَتِي فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا شُجَّرِيْنَ [الأعراف: ١٣٣].

جَاءَكُمْ أَسْخَرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧﴾ قَالُوا أَجْعَنَنَا لِتَقْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ أَبَاهَنَا وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِفْرَيْهُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَعْنُ لَكُمَا مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ [يونس: ٧٥ - ٧٨].

- ثم يتحدث السياق في إيجاز سريع عن مشهد المباراة، مبينا انتصار الحق على الباطل الفرعوني ﴿٩﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَشْتُوْنِ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلَيْهِ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ السَّاحِرُهُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُورُونَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ أَسْحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٢﴾ وَبِحَقِّ اللَّهِ الْحَقَّ بِكَلْمَنِتِهِ وَلَوْكَرِهِ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٣﴾ [يونس: ٧٩ - ٨٢].

▪ ونتيجة للإرهاب الفرعوني الذي ازداد بعد المباراة، لم يؤمن من بنى إسرائيل إلا الشباب الذين رجحوا الإيمان على المخاوف، ولتشجيع إيمانهم يردد السياق على ذلك توجيهات موسى عليه السلام، مع التوجيهات الربانية استعداداً للخروج من مصر في الوقت المناسب^(١) ﴿١٤﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى حَوْفِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلِإِنْهُمْ أَنْ يَقْنِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا لَمَّا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لِمَنِ الْمُسَرِّفِينَ ﴿١٥﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقُولُ إِنْ كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُشْلِمِينَ ﴿١٦﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّلَمِيْنَ ﴿١٧﴾ وَبَعْنَابِرَمَتَكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَفِرِيْنَ ﴿١٨﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ مُوسَى وَلَيْخِيْهِ أَنَّ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بِيُونَاتٍ وَاجْعَلُوهُمْ بِيُونَاتِكُمْ قِتَلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِيْهِ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿١٩﴾ [يونس: ٨٣ - ٨٧].

▪ ثم يفصل السياق دعاء موسى ربه بأن يهلك فرعون وملأه بسبب استغلالهم الزينة والأموال في الإضلal عن الطريق القويم، فيعدهم باستجابة الدعاء، طالباً منها الاستقامة على هداه ﴿٢٠﴾ وَقَالَكَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِيَّةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضْلِلُوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدِّدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢١﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دُعَوَتُكُمَا فَأَسْتَقِيمَا وَلَا تَنْتَعَانَ سَبِيلَ الَّذِيْنَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ [يونس: ٨٨ - ٨٩].

▪ ثم يختتم سياق القصة بغرق فرعون المتغطرس، وهنا تفرد سورة يونس بذكر تفاصيل مشهد الغرق ﴿٢٣﴾ وَجَزَوْنَا إِبْرِيْهِ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرْقُ قَالَ أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِيْ أَمَنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسَلِّمِيْنَ ﴿٢٤﴾ إِلَئِنَّ وَقَدْ

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٦ .

عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦١﴾ فَالْيَوْمَ نُنْهِيْكَ بِذَنْكَ لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ أَيْةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنِ اِيمَانِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٦٢﴾ [يونس: ٩٠ - ٩٢].

▪ ثم ينتهي السياق حال بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون ﴿٦٣﴾ وَلَقَدْ بَوَأْنَا بَقِيَ إِسْرَائِيلَ مُبَوِّا صَدِيقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الظَّبَابَتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعَالَمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بِنَهْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٦٤﴾ [يونس: ٩٣].

بينما نجد أن القصة نفسها وردت في سورة هود موجزة تمام الإيجاز في (٤) آيات، على النحو الآتي :

▪ تطرق السياق إلى رسالة موسى إلى فرعون ومائه، مؤيداً بالأيات والسلطان المبين، ولكن القوم تتکبوا الصراط المستقيم، وزاغوا عن المنهج القويم، متبعين أمر فرعون الضال على أمر الله المبين ﴿٦٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِعَيْنَتِنَا وَسُلْطَنِنَا مُبِينٍ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَهُ فَأَبْعَدُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٦٧﴾ [هود: ٩٦ - ٩٧].

▪ ثم تعرض السياق لذكر عاقبتهما نتيجة اتباعهم أمر فرعون في الدنيا بأن يكون قائدهم في الآخرة إلى جهنم، متبعين باللعنة في الدنيا والآخرة^(١) ﴿٦٨﴾ يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ الْتَّارُّ وَبَيْسَ أَلْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٦٩﴾ وَأَتَيْمُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةٍ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ أَرِقْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٧٠﴾ [هود: ٩٨ - ٩٩].

وهنا نلاحظ أن سورة هود انفردت بذكر عاقبة فرعون في الآخرة، عن سورة يونس التي ذكرت عاقبة فرعون في الدنيا غرقاً في البحر^(٢)، ومن ثم كانت سورة هود متممة لبقية الأحداث بإيجاز شديد .

٣. أشارت سورة التوبه في الآية (٧٠) إلى ذكر أسماء الأقوام السابقين لموسى العلية السلام، وهم : نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات (مدائن قوم لوط)^(٣)،

(١). ينظر : روح المعاني : ١٢ / ١٣٤ .

(٢). ينظر : على طريق التفسير البياني : ٣ / ٣٠٧ .

(٣). ينظر : الكشاف : ٣ / ٦٦ .

ولم تذكر قصصهم لا مجملة ولا مفصلة، قال ﷺ : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ بَأْلَذِيْنَ كَمِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ
نُوحٌ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْنَفَكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيْنَاتِ فَمَا
كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبه: ٧٠] ، بينما نجد سورة
يونس أشارت في الآية (٧٤) إلى هذه الأقوام التي كانت بعد نوح^(١) إشارة خاطفة
ومجملة تماماً دون ذكر أسماء هذه الأقوام، وإلى من تنسب، فلم تذكر قصصهم أبداً، قال
ﷺ : ﴿ ثُمَّ بَعَثَنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَيْكُمْ فَجَاءُوكُمْ بِهِمْ بِالْبَيْنَاتِ فَمَا كَانُوا
لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلٍ لَكُمْ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٧٤] ، ثم تأتي سورة هود لفصل قصص
هؤلاء الأقوام مرتبة^(٢) كما ورد ذكرها في سورة التوبه، إلا قصة لوط^(٣) فقد جاءت في
سورة هود بعد قصة إبراهيم^(٤)، كما هو موضح في المخطط الآتي :

القصة	المجموع	موضعها بين الآيات
نوح ^(١)	٢٤ آية	من الآية (٢٥) إلى (٤٨)
عاد	١١ آية	من الآية (٥٠) إلى (٦٠)
ثمود	٨ آية	من الآية (٦١) إلى (٦٨)
إبراهيم ^(٣) مع الملائكة ^(٤)	٨ آية	من الآية (٦٩) إلى (٧٦)
لوط ^(٣)	٧ آية	من الآية (٧٧) إلى (٨٣)
مدین	١٢ آية	من الآية (٨٤) إلى (٩٥)

٤. ورد في سورة يونس ذكر قصة قوم يونس^(١) مجملة، وسميت بها السورة؛
(لأنها انفردت بذكر خصوصية لقوم يونس، أنهم آمنوا بعد أن توعدهم رسولهم بنزول
العذاب فغافلوا الله عنهم لـما آمنوا)^(٤)، وقد وردت في آية واحدة فقط، قال ﷺ : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ

(١). سبق أن قلنا : إن قصة نوح^(٢) وردت مجملة في سورة يونس .

(٢). الترتيب الوارد في سورة هود هو الترتيب التاريخي : ينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٧٠ .

(٣). لم تطرق سورة هود إلى ذكر قصة قوم إبراهيم، بل ذكرت الحوار الذي دار بين إبراهيم^(٣)
والملائكة، وتبشرهم إبراهيم وزوجه بإسحاق ويعقوب .

(٤). التحرير والتوير : ١١ / ٧٧ .

فَرَبِّيْهُ مَا مَنَّتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنَهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا مَأْمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَزِيرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْعَلَمُ إِلَى حِينِ ﴿٩٨﴾ [يونس: ٩٨] ، وفي المقابل لم يأت ذكر لهذه القصة في سورة التوبه وهود إجمالاً ولا تفصيلاً.

٥. جاء في سورة يونس تحدي العرب بالإتيان بسورة واحدة، قال ﷺ : ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَنَّهُ قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَادْعُوا مِنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ﴾ [يونس: ٣٨] ، بينما نجد التحدي في سورة هود بعشر سور مفتريات ، قال ﷺ : ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَنَّهُ قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ، مُفْتَرِيَّتِ وَادْعُوا مِنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ﴾ [هود: ١٣] ، وهذا يدل على أن التحدي كان في أوجهه ، فقد تحداهم أن يأتوا من عندهم بسورة من مثيلات أي سورة من سور القرآن الكريم، ثم وسع عليهم أن يأتوا بعشر سور مفتريات، وهنا يظهر ملمح التفصيل في آية هود عن آية يونس من خلال التوسيع في العدد (سورة واحدة مقابل عشر سور) والتوسيع في الصفة (مفتريات) ، في حين أن صفة المثلية مشتركة بين الآيتين، قال ابن عاشور ذاكرا قول المبرد : ((تحداهم أولاً بسورة ثم تحداهم هنا بعشر سور؛ لأنهم قد وسع عليهم هنا بالاكتفاء بسور مفتريات، فلما وسع عليهم في صفتها أكثر عليهم عددها، وما وقع من التحدي بسورة اعتبر فيه مماثلتها لسور القرآن في كمال المعاني، وليس بالقوى))^(١)

٦. ورد في سورة يونس قوله ﷺ : ﴿وَمَا كَانَ الْكَاسِ إِلَّا أُمَّةٌ وَجِدَةٌ فَأَخْتَكَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضَى بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩] ، ومدلول الآية أن الناس كانوا على دين واحد؛ إلا وهو الإسلام، ثم اختلفوا من بعد إلى فرق وشيعة، فأرسل الله الرسل ليريدوهم إلى جادة الصواب، ولو لا أمر الله وحكمته التي اقتضت تأخيرهم إلى يوم القيمة، لعجل لهم العذاب في الدنيا^(٢)، ونلحظ هنا أن مفردة ﴿كَلِمَة﴾ في الآية جاءت مجملةً، فتأتي آية سورة هود؛ لتزيل ذلك الإجمال، مفصلاً دلالتها في بيان وتناسب جميلين يشي بسر الترتيب المصحفى لل سورتين، يقول ﷺ : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً

(١). التحرير والتؤير : ١٢ / ٢٠ .

(٢). ينظر : صفوة التفاسير : ١ / ٥٧٧ .

وَحْدَةٌ وَلَا يَرَوْنَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٦﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلْمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٧﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩] ، أي : إن الكلمة هي : ﴿لِأَمْلَانَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ، قال ابن عاشور : ((أَصْرَحَ مِنْ ذَلِكَ فِي بِيَانِ مَعْنَى (الْكَلِمَةِ) قَوْلُهُ فِي سُورَةِ هُودٍ : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَوْنَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ﴿١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلْمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٩﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]))^(١)

٧. جاء في سورة هود الإنذار والتبيير مجملًا، دون توضيح لمن الإنذار والتبيير ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّمَا يَكُونُنَّهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢] ، على عكس سورة يومنس؛ فقد جاء فيها ذكر الإنذار والتبيير مفصلاً، فالإنذار للناس عموماً، بينما التبيير للمؤمنين خاصةً ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنَّا أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِيرِ الظَّالِمِينَ مَأْمُوناً أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّكَ هَذَا السَّحْرُ مُثِينٌ ﴿٦﴾ [يومنس: ٢] .

٨. مما ورد في سورة يومنس في بيان قدرة الله وعظيم خلقه، آية الشمس والقمر؛ لمعرفة عدد السنين والحساب في قوله ﷺ : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ أَسْيَنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِيقَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥] ، بينما ((تناولت سورة التوبه أشهر السنة الاثني عشر، التي هي أصل حساب السنين))^(٣)، يقول الله ﷺ : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشَّهْوَرِ عِنْدَ اللَّهِ أَثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ حُرُمَ ذَلِكَ الَّذِي أَقْيَمَ فَلَا تَنْظِلُمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَةً كَمَا يَقْتَلُونَكُمْ كَافَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣﴾ [التوبه: ٣٦] ، قال ابن كثير : ((يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَلَقَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ

(١). التحرير والتوير : ١٢٩ / ١١ .

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٦٠ .

(٣). أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبه : ٣٠ .

سُلْطَانِهِ أَنَّهُ جَعَلَ الشُّعَاعَ الصَّادِرَ عَنْ جُرمِ الشَّمْسِ ضِيَاءً وَجَعَلَ شَعَاعَ الْقَمَرِ نُورًا، ...
فِي الشَّمْسِ تُعْرَفُ الْأَيَّامُ وَبِسَيِّرِ الْقَمَرِ تُعْرَفُ الشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ)))^(١).

(١). تفسير القرآن العظيم : ٤ / ٢١٧ ، وينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٩٥ - ٩٦ .

❖ التناسب بين فواتح سور (التوبه ويونس وهود)

إنَّ النظر في تناسب فواتح السور لهو من الأهمية بمكان؛ إذ يبين مدى الترابط والتلامُح والانسجام في إيضاح مقاصد السور، والاتجاه الموضوعي الذي استفتحت به السور، واتفقت عليه.

• تناسب فاتحة سوريٰ التوبه ويونس :

١. ثمة تنااسب بين فاتحتي سورة يونس وسورة التوبه في أنَّ كليهما تحدث عن الكافرين والمرتدين؛ فالسياق في سورة التوبه حول المشركين والكافر بعد فتح مكة، مثل إنتهاء العهود التي كانت بين المسلمين المشركين إلى لحظة نزول هذه سورة التوبه **﴿بِرَاءَةً﴾** **﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [التوبه: ١]، وبيان المدة التي فيها يتمكن المشركون من تصفية أمرهم وعهودهم مع المسلمين، وهي أربعة أشهر **﴿فَسِيَّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾** [التوبه: ٢]، ومع هذه المفاسدة في التعامل مع المشركين في كل شيء، يشتددُ السياق مشدداً النكير عليهم، ومغلظاً الكلم معهم **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَنِّيْمُ عَمِّجِرِيَ اللَّهُ وَأَنَّ اللَّهَ هُنَّىِيْكِفِرِيْنَ﴾** [التوبه: ٢]، ثم يستمرُّ السياق في بيان الميقات الذي يعلن فيه البراءة، وهو يوم الحج الأكبر، حتى يعلم المشركون ذلك بكل وضوح **﴿وَأَذَنْتُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحِجَّةِ أَكَبَرَ أَنَّ اللَّهَ بَرِيَّهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾** [التوبه: ٣]، ثم يجمع السياق بين ترغيب المشركين في الهدایة وترهيبهم من الضلال في أسلوب جامع مانع **﴿فَإِنْ تُبْتَمِمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّنُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَنِّيْمُ عَمِّجِرِيَ اللَّهُ وَنَسِيَّرِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾** [التوبه: ٣]، ويعلن السياق عدم المداهنة مع المشركين بعد انقضاء الأشهر التي يحرم فيها القتال، إلا إن تابوا وأتوا بما يُحَصِّنُ دماءهم وأنفسهم من أحكام الإسلام كالصلوة والزكاة^(١) **﴿فَإِذَا أَنْسَلَنَّ**

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٥٨٦ - ١٦٠٢ .

الأشهر المحرم فاقتلونا المشركين حيث وجدهم وخذلهم وأخضروهم وأقعدوا لهم كل مرصدٍ فإن تابوا
وأقاموا الصلوة وآتوكما الرزوة فخلوا سبيلاً لهم إن الله عفورٌ رحيمٌ ﴿٥﴾ [التوبه: ٥].

وأمّا فاتحة سورة يونس فقد كان سياق الحديث فيها بذكر الكافرين أيضًا في ت المناسب واضح مع سورة التوبه؛ إذ أشار إلى استغراب الكافرين من الإيحاء إلى رجل منهم، مستعملاً أسلوب الاستفهام الاستكاري، بل تمادوا في إنكارهم واصفين الرسول الكريم ﷺ بأنه ساحر مبين^(١) ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنَّا وَجَيَّنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنَّا نَذِيرُ النَّاسَ وَبَشِّرُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا سَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢]، ثم يمضي السياق في بيان عاقبة الكافرين المبتعدين عن الحق الناصع ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ إِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

٢. مما يلحظ أيضًا في الت المناسب بين مفتتح السورتين، ذكر عذاب الذين كفروا، بالتركيب الوصفي [عذاب أليم]؛ ففي سورة التوبه ﴿وَبَشِّرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبه: ٣]، وأمّا في سورة يونس ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ إِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

٣. ومن جوانب الت المناسب بين فاتحتي سورة التوبه ويونس تلك المقابلة بين تبشير الله تعالى المشركين في أول سورة التوبه، وتبشير الله تعالى المؤمنين في أول سورة يونس^(٢)، فأولئك المشركون الذين إن تولوا عن التوبه بالشرك، فإنهم لن يعجزوا الله، وهذا يأتي الأمر إلى الرسول ﷺ بأن يبشر هؤلاء المشركين بالعذاب الأليم، في أسلوب تهجم^(٣) بأعلى درجات ونبرات التهديد والتشديد في مخاطبتهم، في سياق المفاسلة والبراءة المطلقة من المشركين ومن عهودهم ﴿وَإِذَا نَّذَرْتُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحِجَّةِ أَكَبَرُ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْشِّرُوهُمْ فَهُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تُؤْلِمُوهُمْ فَأَغْلَمُوهُمْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبه: ٣].

(١). ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٢٣ .

(٢). أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبه : ٢٩ .

(٣). ينظر : التحرير والتوير : ١١١ / ١٠ .

وبال مقابل وردت في أول سورة يومن البشارة للمؤمنين بالمنزلة الرفيعة الثابتة عند ربهم، في أسلوب يوحى بالطمأنينة والرحمة والرأفة؛ لأنهم أطاعوه عَجَلَ متبعين أوامرها، ومجتبين نواهيه التي نزل بها الوحي ^(١) ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنَّا وَجَيَّنَا إِلَيْنَا رَجُلٌ مِّنْهُمْ أَنَّا أَنذَرْنَا النَّاسَ وَبَشَّرَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَّمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يومن: ٢]، يقول البقاعي : ((خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات تصديقاً لدعواهم، بالبشارة بقبول حسناتهم وتکفير سيئاتهم والتجاوز عن هفواتهم وترفع درجاتهم، فمقتضى العدل في إثابة الطائع، وعتاب العاصي، والإذار : إعلام بما ينبغي أن يحذر منه ، والت بشير : التعريف بما فيه السرور))^(٢)، ومن جمال التناسب أن كلتا البشارتين جاءت في أسلوب أمر من الله إلى رسوله ﷺ .

٣. تناسب ختام الآيات القرآنية بين السورتين :

أ. ﴿وَإِنَّ أَحَدًا مِّنَ الْمُشْرِكِينَ أَسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَتَلَغَهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ٦﴾ [التوبة: ٦] : فقد ورد هذا التذليل في سياق بيان الجانب الإنساني في هذا الدين، الذي يحرص كل الحرص على هداية البشر، ولو طلب أحد من المشركين الجوار والأمان، فليجرب إلى طلبه، طمعاً في أن يسمع كلام الله، ويعرف هذا الدين من قرب، و يأتي هذا التوجيه الريانوي للرسول ﷺ وللامة من بعده استغلالاً لفرصة في هداية هؤلاء المشركين؛ لأنهم قوم لا يعلمون شيئاً عن عظمة هذا الدين؛ بسبب أنهم صمموا آذانهم، وتعاموا عن الحق، وغلقوا قلوبهم حتى لا يتسلل إليها شيء من معالم هذا الدين الحنيف.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنَاتِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفْصِلُ الْأَيْدِيَتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥﴾ [يومن: ٥] يأتي هذا التذليل في سورة يومن في تناسب بديع عجيب مكملاً لهذا المعنى الذي في آية التوبة، وموضحاً أن الذي يدرك قدرة الله في هذا الكون الفسيح الواسع المتراحمي الأطراف كخلق الشمس والقمر هو الذي يعلم ويعي، أما الذي لا يعلم فإنه سيفيق جاحداً منكراً آلاء الله، ومن ثم علينا أن نبذل قصارى جهدنا في انتهاز كل فرصة سانحة في هداية البشر حتى يكونوا من القوم الذين يعلمون.

(١). ينظر : روح المعاني : ١١ / ٦٢ .

(٢). نظم الدرر : ٩ / ٦٦ - ٦٧ .

ب. ﴿ إِنَّ فِي أَخْيَلِفَ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا حَلَّكَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾

[يونس: ٦] : يشي هذا التذليل في الآية بأن القوم الذين يتقوون الله هم من تعظم في نفسه قدرة الله، فيزداد إيماناً وتقوى، وخوفاً من أليم عقابه، ذلك لأن التقوى يجعل القلب ذا مناعة عن الوقوع في المحرمات، فمن كان كذلك فلا يظلم أحداً ولا يأتي شيئاً أبداً يغضب الله، بل تجده مسارعاً إلى طاعة الله في السراء والضراء، والمكره والمنشط، بمجرد أن يذكر بالله الذي يحب المتقين، وهذا ما نجده في ختام آية سورة التوبه التي جاءت في سياق من استثنائهم الله من المشركين الذين ((احتفظوا بعهدهم مع المسلمين ، ووفوا به على أتم وجه ، فلم يكيدوا المسلمين بكيد ، ولا ظاهروا عليهم عدواً سراً ، فهوؤلاء أمر المسلمين أن لا ينقضوا عهدهم إلى المدة التي عوهدوا عليها ، ومن هؤلاء : بنو ضمره ، وحيان منبني كنانة : هم بنو جذيمة ، وبنو الديل . ولا شك أنهم من دخلوا في عهد الحديبية))^(١)

إذن هؤلاء المشركون الذين تم استثناؤهم ، لم يمهلوا أربعة أشهر كحال بقية المشركين الناقضين العهد ، بل أمهلوا إلى المدة المتفق عليها في العهود بينهم وبين المسلمين ؛ وذلك تقديراً لهم لوفائهم في المحافظة على ما عاهدوا عليه المسلمين ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَنْهَا دُثُرُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفَضُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٢) [التوبه: ٤] ، ولتحت المسلمين على الوفاء بعهود هؤلاء المشركين ختم الله هذا التوجيه الرياني بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٣) إشارة إلى أن هذا التوجيه فيما يخص هؤلاء المشركين يعُد من التقوى؛ لأن بعض المسلمين قد لا يسارع إلى تنفيذ هذا الأمر بسبب حقده الدفين على المشركين ، ولكنه عندما يذكر بالتقوى ، وتشتتار نفسه بمعانيه تجده يسابق ويلتزم بالأمر الرياني ، ولا سيما أن هذا الختم جاء مؤكداً بـ (إن) حتى يتبع كل شاك وريب ، قال ابن عاشور : ((وجملة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٤) تذليل في معنى التعليل للأمر بإتمام العهد إلى الأجل بـ ذلك من التقوى ، أي : من امتثال الشرع الذي أمر الله به ، لأن الإخبار بمحبة الله المتقين عقب الأمر كنা�ية عن كون المأمور به من التقوى))^(٥).

(١). التحرير والتتوير : ١٠ / ١١٢ ، وينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٦٠٠ .

(٢). التحرير والتتوير : ١١٣ / ١٠ ، وينظر : تفسير البيضاوي : ٣ / ٧١ .

• تناسب فاتحة سوري يونس وهود :

١. ثمة تناصب بين سوري يونس وهود في الاستفناح، يقول الله عزّ وجلّ في سورة يونس: ﴿الرَّقْبَةُ أَيْنَتِ الْكِتَبُ الْكَرِيمُ﴾ [يونس: ١] ، وفي سورة هود: ﴿الرَّكْبَةُ أَخْكَمَتْ أَيْنَهُمْ فُصِّلَتْ مِنْ لَدْنِ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١] .

فالسورتان ابتدئتا بالأحرف المقطعة (الألف، واللام، والراء) في تشابهٍ تامٌ، وتناصب واضح، وهذه الأحرف لها دلالاتها الإعجازية البينية التي تناولها المفسرون والعلماء بالدرس وأشبعوها بحثاً.

وسُرُّ مجيء هذه الأحرف المقطعة هنا في مفتتح السورتين هو التبيه^(١) إلى أنَّ القرآن الكريم نظم من هذه الحروف، حروف لغة العرب التي ينظمون منها كلامهم وخطبهم وأشعارهم وحكمهم، ومن ثم يتحداهم الله بأن يأتوا إن استطاعوا بمثل هذا القرآن، ومما يؤكِّد على ذلك أن كلتا السورتين تضمنت بين دفتيرهما التحدي بالإتيان بمثل هذا القرآن، الأمر الذي يبيّن مدى التنااسب بين السورتين؛ ففي سورة يونس تحداهم المولى بأن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن، ردًا على قولهم : بأن هذا القرآن من افتراء الرسول ﷺ، قال ﷺ:

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْرَأَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنَّ نَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَنَقْصِيلَ الْكِتَبِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧ - ٣٨] ، وأمّا في سورة هود فالتحدي يبلغ أوجَهِه، مطالبًا المشككين بأن يأتوا بعشر سور مفتريات من مثل سور هذا القرآن، قال ﷺ : ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَتَرَاهُ قُلْ فَأَتُوا
يُعَشِّرُ سُورًا مُّفْتَرَاهُ مُفْتَرَيَتِي وَادْعُوا مِنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣] ، قال الفخر الرازي ذاكراً قول المبرد، وأنَّ جمِيعَ المحققين اختاروا هذا القول : ((إنَّ الله تعالى إنما ذكرها احتجاجاً على الكفار، وذلك أنَّ الرسول ﷺ لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو عشر سور، أو بسورة واحدة فعجزوا عنه أنزلت هذه الحروف تبيهًا على أنَّ القرآن ليس إلا

(١). ينظر : فواتح سور القرآن الكريم : ٣٦ - ٤٣ .

من هذه الحروف، وأنتم قادرون عليها، وعارفون بقوانين الفصاحة، فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من البشر)^(١).

٢. ومن جوانب التناسُب بين مفتتح هاتين السورتين هو ذكر ما يتعلّق بالقرآن الكريم بعد هذه الأحرف المقطعة، التي تأتي تتبّعها على القارئ والمستمع بأن هذا القرآن له مكانة صياغةً ونظمًا ومضمونًا، ويتجلى هذا التناسُب الرائع في أن آية يونس : ﴿الرَّقْلَكَمَائِثُ الْكَتَبِ الْحَكِيمِ ﴾ [يونس: ١]، وصفت الكتاب بصفة ﴿الْحَكِيمِ﴾ التي يُحتمل أن تكون ((بِمَعْنَى مُفْعِلٍ بِقَתْحِ الْعَيْنِ، أَيْ : مُحْكَمٌ، مِثْلُ عَتَدٍ، بِمَعْنَى مُعَدٌ))^(٢)، قال الفخر الرازي : ((وَالْإِحْكَامُ مَعْنَاهُ الْمَنْعُ مِنِ الْفَسَادِ، فَيَكُونُ الْمَرَادُ مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَمْحُو الْمَاءَ، وَلَا تَحْرُقُهُ النَّارُ، وَلَا تَغْيِيرُ الْدَّهُورَ، أَوْ الْمَرَادُ مِنْهُ بِرَاءَتُهُ عَنِ الْكَذْبِ وَالتَّاقْضِ))^(٣)، وهذا يعني أن هذه الآيات محكمة في صياغتها ونظمها، لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها ولو حاول المحاولون، وجدةً المجدون في أن يصوغوا مثلها، وهذا الإحْكَامُ نفْسُه ذُكرَتْهُ آية سورة هود ﴿الرَّكِبَتُ أَحْكَمَتْ إِبَانِتُهُمْ فَهُنَّ لَدُنَ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴾ [هود: ١].

ذلك لو نظرنا إلى دلالة ﴿الْحَكِيمِ﴾ في آية يونس من زاوية أخرى لتبيّن لنا تناسُبُ جديدٍ؛ فكلمة ﴿الْحَكِيمِ﴾ يُحتمل أن تكون بمعنى أن هذا الكتاب العزيز حكيم؛ فهو يضع كلَّ شيء في محله المناسب، قال ابن عاشور : ((وَالْحَكِيمُ : وَصْفٌ إِمَّا بِمَعْنَى ذِي الْحِكْمَةِ لِإِشْتِمَالِهِ عَلَى الْحِكْمَةِ وَالْحَقِّ وَالْحَقَائِقِ الْعَالِيَّةِ، إِذْ الْحِكْمَةُ هِيَ إِصَابَةُ الْحَقِّ بِالْقُولِ وَالْعَمَلِ فَوُصِّفَ بِوَصْفِ ذِي الْحِكْمَةِ مِنَ النَّاسِ عَلَى سَبِيلِ التَّوْسُعِ النَّاسِيِّ عَنِ الْبَلْيَغِ))^(٤).

وهذا يفهم منه أن ناظم هذا الكتاب هو الله الحكيم ﷺ، الذي أحكم آياتِ هذا الكتاب، فجاءت قوية البناء، دقيقة الدلالة، كل كلمة فيها وكل عبارة مقصودة، وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب، وكل إيماءة وكل إشارة ذات هدف معلوم، متتسقة لا اختلاف بينها ولا تضارب، ومنسقة ذات نظام واحد، ثم فصلات . فهي مقسمة وفق أغراضها، مبوبة وفق

(١). مفاتيح الغيب : ٢ / ٧ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ٨٢ .

(٣). مفاتيح الغيب : ١٧ / ٥ .

(٤). التحرير والتنوير : ١١ / ٨٢ .

م الموضوعات، وكل منها له حيز بمقدار ما يقتضيه)^(١)؛ أي : إن القرآن الكريم حكيمٌ أحکمَه حكيمٌ، وهو الأمر الذي أشارت إليه آية سورة هود ﴿الرَّبِّ يَعْلَمُ أَحْكَمَتْ مَا يَنْهَا مِمْ فَيَسَأَلُ مَنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١] ، قال الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي : ((تبدأ السورة التي قبلها أعني سورة يونس بقوله : ﴿الرَّبُّ لِكَ مَا يَنْهَا الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾ [يونس: ١] ، فقد وصفت الآية الكتاب بأنه ﴿الْحَكِيمُ﴾، وذكر في هذه السورة أي : سورة هود من أحکمه، فقال : إن آياته أحکمت ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١] ، فالذي أحکمها هو الحكيم)^(٢). إذن يتبيّن لنا مما سبق أن كلتا سورتين أشارت إلى أن القرآن الكريم مُحْكَمٌ في لفظه ومعناه، وهذا ما يؤيده السياق في كثير من آيات هاتين سورتين :

❖ آيات سورة يونس :

- ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ مَا يَأْتُنَا بَيْنَتِنِي قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرَ هَذَا أَوْ بِدِلْلَةٍ قُلْ مَا يَكُوْنُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَ مِنْ قِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى لِيَنْتَ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [١٥] ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوَّهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَذْرَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَيْسَتِ فِيْكُمْ عُمْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقُلُونَ﴾ [١٦] [يونس: ١٥ - ١٦].
- ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَقْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٣٧] ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَا قُلْ فَأَتُوا بِشُورَقَ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مِنْ أَسْتَطَعُتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٣٨] [يونس: ٣٧ - ٣٨].
- ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلَنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَئُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُمْتَنَينَ﴾ [٩٤] [يونس: ٩٤].

(١). في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٥١ ، و ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٢٢ .

(٢). على طريق التفسير البیانی : ٣ / ٤ .

❖ آيات سورة هود :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَنِهِ قُلْ فَأَتُوا بِعَشَرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتِ وَأَدْعُوا مِنْ أَسْتَطْعَمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۝ •

إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ ﴿١٣﴾ ۝ فَإِنَّ اللَّهَ يَسْتَجِيبُ أَكْلَمَ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمٍ اللَّهُ وَأَنَّ لَآءَ اللَّهِ إِلَّا هُوَ فَهَلْ

أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ۝ [هود: ١٣ - ١٤] .

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَنِي مِنْ رَبِّهِ وَيَتَلوُهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمامًا وَرَحْمَةً ۝ •

أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّاسُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُنْ فِي مُرَيَّقٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ

رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ۝ [هود: ١٧] .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَنِهِ قُلْ إِنْ أَفَرَنِهِمْ فَعَلَىٰ إِعْرَامِي وَأَنَا بِرِّيٰ مِمَّا يُشْرِمُونَ ﴿٢٥﴾ ۝ [هود:

٣٥] .

﴿ قِلْكَ مِنْ أَنْبَأَهُ الْغَيْبِ ثُوِّيْهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ

الْعِاقْبَةَ لِلْمُنْتَقِيْنَ ﴿٤٩﴾ ۝ [هود: ٤٩] .

٣. كذلك يتجلّى التّناسب في مفتاح السورتين في ذكر رسالَة الرسُول محمد ﷺ وبيان

مهمته من التّبليغ والإذار والتّبشير، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ في فاتحة سورة يومنس ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَّا أَنَّ

أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الظَّالِمِينَ مَا مَنَّا لَهُمْ قَدْمًا صَدِيقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ

هَذَا السَّحْرُ مِنْيَنْ ﴿١﴾ ۝ [يومنس: ٢] ، أمّا في فاتحة سورة هود يقول ﷺ : هُوَ الَّذِي لَا تَبْدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّمَا

لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِّيرٌ ﴿٢﴾ ۝ [هود: ٢] ، يقول محمد رشيد رضا : ((وهي، أي : سورة يومنس،

مُنَاسِبَةٌ لَهَا كُلُّ الْمُنَاسِبَةِ بِرَاءَةِ الْمَطْلُعِ فِي فَاتِحَتِهَا، وَالْمُقْطَعِ فِي خَاتِمَتِهَا، وَتَقْصِيلِ الدَّعْوَةِ

فِي أَنْشَائِهَا، فَقَدِ افْتَنَحَا بِذِكْرِ الْقُرْآنِ بَعْدَ الرِّ، وَمِنْهُمْ فِي هَذَا مَا بَعْدُهُمَا مِنَ السُّورِ الْأَرْبَعِ إِلَّا

الرَّعْدَ فَأَوْلَاهَا الْمَرُ، وَذِكْرُ رِسَالَةِ النَّبِيِّ الْمُبَلَّغِ لَهُ عَنِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَبَيَانُ وَظِيفَتِهِ فِيهَا، وَهُوَ

الْإِذَارُ وَالْتَّبَشِيرُ))^(١) ، وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً على أن كلتا السورتين توضح معالم الرسالة

المحمديّة التي تقوم على ركنيْن أساسين؛ هما إذار من أصرَّ على الشرك فعصى ربِّه وتمرد

على أوامره، وتّبشير من آمن بالله فأذعن له وأطاع، فـ ((قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّمَا لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ

(١). تفسير المنار : ١٢ / ٣ .

وَبَشِّيرٌ [هود: ٢] ، وَهُوَ تَبْلِيغٌ لِدِعْوَةِ الرَّسَالَةِ مُبِينٌ لِوظِيفَةِ الرَّسُولِ ، وَهِيَ إِنذَارٌ مِنْ أَصْرَارِ عَلَى شِرِّكِهِ وَمَا يَتَبَعُهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، وَتَبَشِّيرٌ مِنْ آمَنَ وَاتَّقَى بِالسَّعَادَةِ وَالثَّعِيمِ الْمُقِيمِ)١(.

وَمِنْ زَاوِيَةِ أُخْرَى يَبْدُو لَنَا التَّنَاسُبُ فِي ذِكْرِ الْإِنذَارِ وَالتَّبَشِيرِ فِي مَفْتُوحِ السُّورَتَيْنِ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي فَاتِحَةِ سُورَةِ يُونُسَ : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنَّا أَوْجَحَنَا إِلَى رَجْلٍ مِنْهُمْ أَنَّا نَذَرَنَا لِلنَّاسِ وَبَشِّيرُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَّمَ صِدْقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا سَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يُونُس: ٢] ، بَيْنَمَا فِي فَاتِحَةِ سُورَةِ هُودٍ يَقُولُ الْمَوْلَى جَلَّ شَاءَهُ : ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّمَا لَكُمْ مِنْهُ نِذِيرٌ وَبَشِّيرٌ﴾ [هود: ٢] .

وَتَتَمَثَّلُ رُوعَةُ التَّنَاسُبِ فِي أَنَّ فَاتِحَةَ سُورَةِ يُونُسَ جَاءَتْ مَوْضِحَةً وَشَارِحةً وَمُفَصِّلَةً مَا أَجْمَلَ وَأَبْهِمَ فِي فَاتِحَةِ سُورَةِ هُودٍ ، عَلَوْهُ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ الْمُتَتَّبِعَ لِآيَاتِ السُّورَتَيْنِ يُلْحَظُ أَنَّ كُلَّتَيْهِمَا تَحْمَلُ فِي طَيَّاتِهِمَا إِشَارَةً إِلَى الْإِنذَارِ وَالتَّبَشِيرِ .

فَمَثَلًا آيَاتُ الْإِنذَارِ فِي سُورَةِ يُونُسَ ، وَهِيَ عَلَى النِّحوِ الْآتِيِّ :

▪ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًا إِنَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يُونُس: ٤] .

▪ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأْنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اِيمَانِنَا غَفِلُونَ﴾ [يُونُس: ٧] .

▪ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ تَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يُونُس: ١٣] .

▪ ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ إِيمَانٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَأَنْتَظِرُوْا إِنْفِعَكُمْ مِنَ الْمُنَظَّرِينَ﴾ [يُونُس: ٢٠] .

(١) . تَفْسِيرُ الْمَنَارِ / ١٢ - ٦ .

- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْتِيفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
إِنَّا يَنْهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْقَةُ الْمُنْذَرِنَ ﴾ [يونس: ٧٣].
- ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [١٠١]
[يونس: ١٠١].

وأما آيات التبشير في السورة نفسها، فهي على النحو الآتي :

- ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَمْنَتُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيرٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٤].
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَمْنَوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهُمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَنِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْنِيمٍ
الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩].
- ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥].
- ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْمُحْسَنَاتِ وَزِيَادَةً لَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتْرٌ وَلَا ذَلَّةٌ أَوْتَيْكَ أَحَبَّتُ الْجَنَّةَ هُمْ
فِيهَا خَلِيلُونَ ﴾ [يونس: ٢٦].
- ﴿لَهُمُ الْشَّرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلٌ لِكَلْمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ
الْقَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٤].
- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ مُؤْتَمِنِينَ وَاجْعَلُوا مُؤْتَكُمْ قِصْلَةً
وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٧].
- ولو انتقلنا إلى سورة هود لنقف على آيات الإنذار فيها، فهي على النحو الآتي :
- ﴿وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبُّهُمْ لَا يُوبَا إِلَيْهِ يُمْنَعُكُمْ مَنَعًا حَسَنَا إِلَى أَجْلٍ مُسَمَّى وَيُؤْتَى كُلُّ ذِي فَضْلٍ
فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلُّوا فَإِنَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ كَبِيرٍ ﴾ [٣] هود: ٣.
- ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ
كُنْزٌ أَوْ جَاهَةً مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَافِلٌ ﴾ [١٦] هود: ١٦.

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَهَا مُوْقِفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُمْسِكُونَ ﴾ [١٥] .
 أُولَئِكَ الَّذِينَ لَنْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْنَّارُ وَحَرَجَتْ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَنَطَّلُ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴾ [١٦] [هود: ١٥ - ١٦].

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَتِهِ مِنْ رَّبِّهِ، وَتَتَوَهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ، كَنْتُ بُ مُوسَىٰ إِمَامًا
 وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ، مِنَ الْأَخْرَابِ فَالْأَخْرَابُ مَوْعِدُهُ، فَلَا تَكُنْ فِي
 مَرْبَطٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ وَلَنْكَنَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [١٧] [هود: ١٧].
 ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّشِيدٌ ﴾ [١٨] ﴿ أَنَّ لَا تَعْبُدُوْا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي
 أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَسِيرِ ﴾ [١٩] [هود: ٢٥ - ٢٦].

ثم نأتي على آيات التبشير في السورة عينها، وهي على النحو الآتي :

﴿ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُ رَبِّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُبَشِّرُكُمْ مَنْ تَعَمَّلَ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ أَجْلِ مُسَمٍّ وَيُنَقِّتُ كُلَّ ذِي فَضْلٍ
 فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلُّوْ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [٣] [هود: ٣].
 ﴿ وَلَئِنْ أَذْقَنَهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسْتَهْ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ
 إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [١٠]
 [هود: ١٠ - ١١].

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَّمُ فَمَا لِيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ
 حَنِيدِيْرٍ ﴾ [٦٩] [هود: ٦٩].

﴿ وَأَمْرَأَنَّهُ، قَائِمَةً فَصَاحَكَتْ فَبَشَّرَتْهَا بِإِسْحَاقَ وَمَنْ وَلَوْ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [٧١] [هود:
 ٧١].

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرَّقْعُ وَجَاءَهُ الْبُشْرَىٰ يُجَدِّلُنَا فِي قَوْمٍ لُوطٍ ﴾ [٧٤] [هود:
 ٧٤].

٤. ثمة تناسب في مفتاح السورتين، بين قوله ﷺ في فاتحة يونس : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَيَّةٍ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْمَرْشِ يَدِهِ الْأَمْرُ مَا مِنْ شَفِيعٍ لَا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ
 ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [٢] [يونس: ٣] ، قوله ﷺ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَتَةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُو كُمْ أَيْكُمْ أَخْسَنُ عَمَلاً
 وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْغُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لِيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾
[هود: ٧]

من مظاهر التاسب بين هاتين الآيتين، الاتفاق على ذكر خلق السموات والأرض في ستة أيام، في معرض استتهاض العقل الإنساني، وإيقاظ القلب البشري للتفكير والتأمل في قدرة الله عَزَّلَ الذي خلق السموات والأرض بإحكام منقطع النظير، حتى أنَّ الناظر لو كَدَ بصره في هذين الجرمين تدبراً، لآمن بالله رَبِّا حق الإيمان، ولسارع إلى الإمساك بمنهج الله مطیعاً مذعنًا^(١)، ومن ثَمَ يرتفع ذلك العجب من أنَّ الله أَنْزَلَ كتابه العزيز على بشر منهم، يقول الشوكاني : ((ثم إنَّ الله سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذي حصل للكفار من الإيحاء إلى رجال منهم، فقال : ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَتَةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: ٣] أي : من كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوّره، كيف يكون إرساله لرسول إلى الناس من جنسهم محلًّا للعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك، كيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول))^(٢) .

ولا تبعد آية هود عن السياق نفسه، سياق التفكير والتأمل في هذا الكون المترامي الأطراف، الواسع الأرجاء، الموصل إلى إدراك قدرة الله الذي يستحق أن تخضع له الجبار، وتسجد له الجبال، كيف لا، وهو الرزاق الذي يرزق كل دابة على وجه هذه البسيطة، بل يعلم شؤون حياتها المختلفة؛ كمكان استقرارها ومستودعها، كما أنه عَزَّلَ هو القادر الذي خلق السموات والأرض في مراحل وأطوار محبكة، تسير على وفق سنن أرادها عَزَّلَ وصولاً إلىبعث والنشر والحساب والعمل والجزاء^(٣) ، قال محمد رشيد رضا : ((وَبَيْنَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ هَاتِيْنِ الْآيَيْتَيْنِ مَا يُهُمُ النَّاسُ مِنْ آثَارِ قُدْرَتِهِ، وَمُتَعَلِّقَاتِ عِلْمِهِ، وَكِتَابَةِ مَقَادِيرِ خَلْقِهِ، وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِحَيَاتِهِمْ وَشُؤُونِهِمْ، وَفِي الْآيَةِ التِّي بَعْدَهَا خَلَقَهُ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ، وَمَكَانَ عَرْشِهِ قَبْلَ هَذَا

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٦٢ .

(٢). فتح القدير : ٢ / ٥٩٦ .

(٣). ينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٥٧ .

مِنْ مُلْكِهِ، وَبِلَاءَ الْبَشَرِ خَاصَّةً بِذَلِكَ كُلُّهُ ؛ لِيُنْظَرَ أَيْهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وَبَعْثَةٌ إِيَّاهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ
لِيَنَالُوا جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ، وَإِنْكَارٌ كُفَّارِهِمْ لِهَذَا) (١)

ويبدو لي من مجموع هاتين الآيتين أنهما يلمحان في تناسب رائع إلى أطوار حياة الإنسان، التي تبدأ بـ [مرحلة الخلق] التي تفهم من قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [يونس: ٣] ، وممّا لا شك فيه أن الله خلق السموات والأرض للإنسان (٢) ،
الذي استخلف في الأرض ليعمّر هذا الكون بما أوتي من قدرات وإمكانيات واستعدادات (٣) ،
ثم تأتي بعد ذلك [مرحلة العبادة] ، التي تبين الحكمة من الخلق، وهو عبادة الله مخلصاً
مطبيعاً في هذه الحياة، ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٣] ، ثم
تأتي [مرحلة الابلاء] ، فالإنسان منذ خلقه على هذه الأرض، وأنشاء عبادته، وحياته، يبتلى
بصنوف الابلاء ؛ ليميز المطيع من العاصي، وليرى مدى تمسك الإنسان بيديه
وطاعته في السراء والضراء، ﴿ لِيَتَبَلُّوكُمْ أَيْمَنُكُمْ أَخْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود: ٧] ، ثم [مرحلة
البعث والنشور والحساب والجزاء] ، التي يكون فيها عرض الأعمال والمحاسبة على كل
صغريرة وكبيرة، ومجازاة المؤمن، ومحاكمة الكافر، ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْغُوثُونَ مِنْ بَعْدِ
الْمَوْتِ ﴾ [هود: ٧] ، وهنا أقتبس من كلام سيد قطب ما يقارب الوجهة التي ربط بها بين
هاتين الآيتين ((كما جهز الخالق هذه الأرض وهذه السماوات بما يصلح لحياة هذا الجنس ،
جهز هذا الجنس كذلك باستعدادات وطاقات وبني فطرته على ذات القانون الذي يحكم الكون
وترك له جانباً اختيارياً في حياته ، يملك معه أن يتجه إلى الهدى فيعيشه الله عليه وبهديه ، أو
أن يتجه إلى الضلال فيمداد الله له فيه ، وترك الناس يعملون ، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً.
يبلوهم لا للعلم فهو يعلم . ولكن يبلوهم ليظهر المكون من أفعالهم ، فيتقاضوا جزاءهم عليها كما
اقتضت إرادة الله وعدله)) (٤) .

(١). تفسير المنار : ١٢ / ١٣ .

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٥٦ .

(٣). في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٥٨ .

٥. ومن مظاهر التناسب في المفتتح بين السورتين قول الكفار : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ

عَجَّا أَنَّا أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرَ النَّاسَ وَيَشَرِّدُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صَدِيقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ
الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا سُحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يوس: ٢] ، و﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي
سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَبْلُو كُمْ أَيُّكُمْ أَخْسَنُ عَمَالًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْغُوثُونَ
مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سُحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٧] ، في إشارة واضحة
إلى أن تهمة السحر موجهة إلى شخص رسول الله ﷺ أولاً، وإلى كتاب الله الذي هو الوحي
ثانياً، ظناً من الكفار أنهم باستهدافهم هذين الركنين الأصيلين من الدعوة بالائم وإثارة
الشبهات، يكونون قد نالوا من الدعوة، وأسقطوها من أساسها .

وبتبين ذلك جلياً من خلال الوقوف على سياق الآيتين، فآية يومن جاءت في سياق
تقرير وإثبات الوحي من الله إلى الرسول محمد ﷺ، وكيف قابل المشركون هذه القضية
بالعجب والاندهاش؛ إذ كيف يُوحى إلى بشر، مقللين من شأن هذا البشر؛ فهو لا يملك
القدرات التي تؤهله لتحمل تبعات الوحي والاتصال بالله ، ومما قالوه في ذلك : ((لما بعث
محمد : إن الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا، وقالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي
طالب))^(١) ، وفي المقابل لم يستطع هؤلاء الكفار أن يقارعوا الرسالة بالحجفة والبرهان
الساطع، بل اكتفوا باتهام الرسول الكريم بأنه صرف الناس عن الشرك ومعتقداته، وعن عبادة
الأوثان والأصنام، وأنه فرق بين المرء وزوجه، وبين الرجل وأخيه، والابن وأبيه، كل ذلك
تحت تأثير سحره الذي أثر في عقولهم وقلوبهم، حتى انصاعوا له وانقادوا.

وأما التهمة في آية سورة هود، فهي موجهة إلى القرآن الكريم، إثر قول الرسول ﷺ
للمرشكين بأن هنالك بعثاً ونشرواً ينتظركم بعد الموت، فاستعدوا وأعدوا له العدة، ولكن
المشركين المنكرين لقاء الله، ردوا عليه بأن هذا القرآن الذي جئتكم به، ما هو إلا سحر، تود
أن تؤثر به في عقولنا بأفكارك هذه، وفي قلوبنا، فتلين لمعتقداتك، وتسخرنا لطاعتكم، وتبعينا
عن متع الحياة الدنيا ومباهجها .

(١). تفسير القرطبي : ٤٤٨ / ١٠ .

والتهمة هنا سياسية على ما يبدو لي؛ لأن المشركين أرادوا أن يؤلبوا بقية العوام على الرسول ﷺ والقرآن الكريم، بمعنى أن الرسول يستعمل هذا القرآن لأغراض سياسية، مستفيداً من عنوña الفاظه، وجرس مبانيه التي تسحر كلَّ من أقبل عليه بقلبه وسمعه، بحسب زعمهم، لكي يخضع الناس إلى دينه، ويُسخرهم لصالحه، يقول الفخر الرازي نقاً عن القفال: ((معناه أن هذا القول خديعة منكم وضعتها لمنع الناس عن ذات الدنيا وإحراراً لهم إلى الانقياد لكم والدخول تحت طاعتك))^(١).

وحينما ننعم النظر في مجموع الآيتين مبدأً وختاماً، ولا سيما آية يونس، نلحظ تناقضهم باديًّا في أجلٍ صورة، فمرة يُظهرون عجفهم مِنْ أَنْ يُوحِي اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ، لا يملك القدرة والطاقة في تحمل تبعات الرسالة، ومرة يصفونه أنه ساحر؛ أي : لديه قدرات عجيبة وطاقات خارقة في التأثير في الآخرين .

٧. من عادة القرآن الكريم دائمًا أن يربط الإنسان بقضية المبدأ والمصير، قضية (الإيمان بالله واليوم الآخر)؛ لأنَّ الإنسان حينما يدرك إدراكاً تاماً أن هنالك يوماً سيقف فيه للحساب فإنه يحسن القول، ويتقن العمل بصنوف الطاعات، وعظيم القرارات التي يبيض بها وجهه، وتتقلَّ بها صحفة أعماله.

وربط الإيمان بالاليوم الآخر نصَّت عليه آية سورة يونس مع الآية التي قبلها في المفتتح ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَبَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَرَى كُلَّ كُوُنَّٰ﴾ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَيْعاً وَعَدَ اللَّهُ حَمَّاً إِنَّمَا يَبْدُؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَلِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيرٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٣ - ٤].

فقد جاء هذا الربط في سياق استحقاق الله العبادة؛ فالله هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام في أروع خلق، وأعظم تكوين، وأبدع صنع، وهو الذي يسيطر على هذا الكون الشاسع الأرجاء بأسره، ويدبر كلَّ جزئية فيه على وفق حكمته، وهو الذي لا ينذر الشفعاء عن أمره ومراده إلا من بعد إذنه، ثم على إثر تلك الاستحقاقات تختم الآية بالدعوة إلى عبادة الله تعالى حقَّ العبادة، ثم يكون بعد ذلك المرجع إليه تعالى الذي هو وعد ناجز لا

(١). مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٩٦ .

محالة؛ إذ لا مناص عنه أبداً، ولا مفرّ إلا إليه، ثم تبين الآية نفسها الحكمة من ذلك المرجع، وهو مجازة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومعاقبة الذين كفروا بالعذاب الأليم.

وحيثما نربط هذه القضية المهمة التي وردت في مفتاح سورة يونس بسيارات السورة نفسها نجد أن الله نهى على أولئك الذين لا يرجون لقاء الله؛ راضين بالحياة الدنيا بدلاً من الحياة الآخرة، ساكنة نفوسهم إليها، مرتاحه قلوبهم إلى هذه الفانية، أدى ذلك إلى غفلتهم عن آياته، فكانت عاقبتهم النار نتيجةً حتميةً، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأْنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ إِيمَانِنَا عَنِفُلُونَ﴾ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ إِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ [يونس: ٧ - ٨].

بل إنَّ السياق القرآني يشدد التَّكير، ويغلوظ التعبير في نعت هؤلاء حين يصفهم بالعمَّ والحياء والتخييب في طغيانهم ومعاصيهم وكفرهم وظلمهم، لا يلدون على شيء ولا يهتدون، حتى يأتيهم الأجل المحتموم؛ نتيجة عدم رجائهم لقاء الله، جاء ذلك في معرض استعجال المشركين الشر وال العذاب قبل أوانه^(١)، ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ أَسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضَى إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَدَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١١﴾ [يونس: ١١]، يقول أبو زهرة : ((وعبر سبانه بالموصل : ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾)) [يونس: ١١] للإشارة إلى أن السبب في استمرار طغيانهم وتجاوزهم أنهم لا يتوقعون لقاء الله تعالى وتلقى الجزاء فيخافون، أو تلقي الثواب فلا يطعون))^(٢)

ثم ينقلنا السياق إلى بيان موقف المتجاسرين على كتاب الله، الطالبين من الرسول ﷺ الإتيان بقرآن غير هذا القرآن المنزلي عليه أو تبديله، بسبب أنهم لا يتوقعون ملاقاة ربهم، ولا يخافون يوم الحشر والنشور، فيتمادون في العصيان، والتفنن في مخالفـة الرحمن، ولكن الرسول ﷺ يعرض عن ذلك؛ بسبب أن هذا ليس من شأنه، ولا من الصالحيـات التي تسمح بها رسالته، فقصاري جهـده هو أن يتبع ما يوحـى إلـيه من ربـه، وفوق كلـ ذلك يبـدي خوفـه التـام من عذـاب يوم الـقيـمة العـظـيم، ومن مـلاقـة ربـه إـنـ عصـاه لأـي شـيء كانـ، فـكيف إنـ أـقدم علىـ هذه المعـصـية، قال ﷺ : ﴿وَإِذَا قُتـلـ عـلـيـهـمْ مـا يـأـنـا بـيـنـتـقـلـ فـالـلـذـينـ لـا يـرـجـونـ﴾

(١). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٦٧ - ٢٦٨ ، وفي ظلال القرآن : ٣ / ١٧٦٨ - ١٧٦٩ .

(٢). زهرة التفاسير : ٧ / ٣٥٢٦ .

لِقَاءَنَا أَتَتِ بِشْرَاءِنِ عَيْرَهُذَا أَوْبَدَهُ فُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ قِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْعُ لِأَمَا يُوحَى
إِلَيْتِ لَخَافُ إِنْ عَصَيْتِ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ [يونس: ١٥] ، يقول البقاعي :
((الموصول بصلته في قوله : ﴿فَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس: ١٥] في موضع
الضمير تتبيناً على أنَّ هذا الوصف علة قولهم))^(١).

وما الربط بين الإيمان بالله واليوم الآخر فيتجلى في آية سورة هود في أبدع بيان، وأجمل تبيان ﴿الرَّكِبُ أَحْكَمَ إِيمَانَهُمْ فُطِيلَتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَا تَقْنُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّمَا لَكُمْ مِنْهُ
نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُوَبُوا إِلَيْهِ يُمْتَعَكُمْ مَنْعًا حَسَنَا إِلَيْهِ أَجَلٌ مُسَمٌّ وَيُؤْتَى كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ
وَإِنْ تَوَزَّعَا فَإِنَّمَا لَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾] هود: ١ - ٤؛ إذ ورد هذا الربط في سياق ذكر الله أركان العقيدة الصحيحة التي تضمنتها آيات الكتاب الذي أحكمت ثم فصلت، وهي توحيد الله وعبادته وحده، ومقومات الرسالة القائمة على الإنذار والتبيير، والاستغفار من جميع متعلقات الشرك والمعصية، والتوبة والعودة إلى الله بصالح الأعمال، ثم بيان جزاء التائبين المستغفرين، وهو المتع الحسن ما داموا أحياء على طاعة الله، ثم ينتقل السياق إلى تهديد المتولين عن صراط الله المستقيم، وعن التمسك بتلك العقيدة الصافية، فإن لهم بعد موتهم عذاب يوم كبير في يوم المرجع إلى الله^(٢).

ونجد السياق في سورة هود يشير أيضاً إلى قضية التلازم بين الإيمان بالله واليوم الآخر، فمثلاً في قوله ﷺ : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَيَّنَهَا نُوقٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَلُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا
يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْكَارِثَةُ وَحَيْطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَنَطَلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
﴿١٦﴾ هود: [١٥ - ١٦] ، وإرادة الدنيا هنا ليس ظاهرة طارئةً استثنائيةً، بل إرادة مستمرة مُستكنة في أعماق القلوب والآنفوس، بدليل إدخال ﴿كَانَ﴾ على الفعل المضارع ﴿يُرِيدُ﴾^(٣)

(١). نظم الدرر : ٨٧/٩

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٥٢ .

(٣). ينظر : على طريق التفسير البیانی : ٣ / ٤٨ .

قال الألوسي : ((وادخال كان للدلالة على الاستمرار أي : من يريد ذلك بحيث لا يكاد يريد الآخرة أصلا))^(١).

وهنا نلاحظ من مجموع الآيتين المفتتح بهما السورتان، الربط بين الإيمان واليوم الآخر أو العبادة والمرجع في تناسب يعكس أهمية هذا القضية في حياة الإنسان، فهو يعيش بين المبدأ والمصير اللذين يدفعانه نحو الإيمان الحق، وترجمته بالعمل الصالح، وأنَّ الإيمان باليوم الآخر يجعله ملخصاً في أعماله الدنيوية والأخروية، حريصاً كلَّ الحرص على أنْ يحاسب نفسه على كل صغيرة وكبيرة

(١). روح المعاني : ١٢ / ٢٣ .

❖ التناسب بين موضوعات سور (التوبية، ويونس، وهود) وقصصها :

تبين لنا من قبل مدى التناسب بين هذه السور في مفتاحها تناسباً يدل على روعة النظم القرآني، الذي تنتظم فيه السور كانتظام اللؤلؤ في العقد، وحقيقة الأمر أن إشعاعات التناسب لا تقف عند هذا الحدّ، بل تتعاداه إلى التناسب بين الموضوعات وقصصها، بما يشكل لحمةً موضوعيةً واحدةً بين هذه السور الثلاث في تناسق عجيب فريد.

وأبرز الموضوعات التي تكتفها هذه السور على أساس أنها سور مكية، هو موضوع العقيدة الإسلامية وأصولها، على الرغم من أن سورة التوبة مدنية؛ تتحدث عن ضرورة المفاصلة مع المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، إلا أن موضوع العقيدة لم يغب عن جو هذه السورة في إشارة مهمة إلى أن العقيدة الإسلامية هي المعيار الذي يُؤطر هذه المفاصلة^(١)، يقول محمد رشيد رضا، متحدثاً عن التناسب الموضوعي بين سورة يونس وسورة هود : ((قد نزلتْ بعْدَ سُورَةِ يُونُسَ، وَهِيَ فِي مَعْنَاهَا وَمَوْضُوعِهَا الَّذِي بَيَّنَاهُ فِي تَقْسِيرِهَا، وَهُوَ أَصْنُولُ عَقَائِدِ الْإِسْلَامِ فِي الْأَلْهَيَاتِ وَالْبُرُواتِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ))^(٢)، وتابعه في ذلك سيد قطب : ((فالآن إذ نعود إلى القرآن المكي نجد سورتي يونس وهود متواлиتين في ترتيب المصحف وفي ترتيب النزول أيضا.. والعجيب أن هناك شبهًا كبيرًا بين هاتين السورتين وتلكما في الموضوع، وفي طريقة عرض هذا الموضوع كذلك))^(٣)، كذلك أشارت هذه السور إلى موضوع تمجيد القرآن الكريم، وموقف المشركين منه استهزاء واستهانة .

وقد حاولت تتبع الآيات في كل سورة من هذه السور الثلاث، ثم فرزها في موضوعات مشتركة، فكانت موضوعاتها على النحو الآتي :

١. ماهية رسالة الرسول ﷺ : قوله ﷺ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الْأَلْدِينِ كُلِّهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبية: ٣٣] ، قوله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنَّ أَوْجَيْنَا إِلَيْنَاهُ رَجُلًا مِنْهُمْ أَنَّ أَنْذِرَ النَّاسَ وَيَشَرِّي الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدْمًا صِدْقًا عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ ﴾

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٦١٩ .

(٢). تفسير المنار : ٥ / ١٢ .

(٣). في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٤٥ .

الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مُبِينٌ ﴿٦﴾ [يونس: ٢] ، قوله : ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّمَا لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَدَشِيرٌ﴾ [هود: ٢] .

٢. إثبات البعث والنشر : قوله ﷺ : ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمُ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيِّرِي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُمْ تُرْدُونَ إِلَى عَنْلَوْهُ الْفَغِيْبِ وَالْشَّهَنَدَةِ فَيُنَتَّشِّرُوكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ [التوبه: ٩٤] ، قوله : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِجَزِيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٤﴾ [يونس: ٤] ، قوله : ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَقَدِيرٌ﴾ ﴿٤﴾ [هود: ٤] .

٣. إثبات قدرة الله المطلقة : قوله ﷺ : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَدْمَلُكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿١١٦﴾ [التوبه: ١١٦] ، قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَرَبُّ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَدْبِرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٣﴾ [يونس: ٣] ، قوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَبْلُو كُمْ أَيُّكُمْ أَخْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧﴾ [هود: ٧] .

٤. توحيد العبودية والألوهية : قوله ﷺ : ﴿أَنْخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرَهَبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُوْنِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرِيكَ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَيْهَا وَجَدَ الْأَلَّهُ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشَرِّكُونَ﴾ ﴿٣١﴾ [التوبه: ٣١] ، قوله : ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٦﴾ [يونس: ١٠٦] ، قوله : ﴿وَلَلَّهِ غَيْرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَأَعْبُدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبِّكَ يُعَنِّفِلْ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾ [هود: ١٢٣] .

٥. تمجيد القرآن الكريم سواء من الله ﷺ أو البشر : قوله ﷺ : ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتَ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَآمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِّشُونَ﴾ ﴿١٢٤﴾ [] .

التوبه: ١٢٤ [] ، قوله : ﴿الرَّٰتِكَءَ اِيَّٰتُ الْكِتَبِ الْحَكِيمِ ﴾ ﴿١﴾ [يومن: ١] ، قوله : ﴿الرَّٰتِ
كِتَبُكَ اَتَعْكِسْتَ اِيَّٰنَهُمْ فَعِلَّتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴾ ﴿١﴾ [هود: ١] .

٦. الاستهانة بالقرآن العظيم : قوله ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتَ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ
أَيُّكُمْ زَادَهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَإِمَانًا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُرُبَّتْهُمْ
وَقُولَهُ ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتَ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَيْهِ بَعْضٌ هَلْ يَرَنُكُمْ مَنْ أَحَدٌ ثُمَّ أَنْصَرَهُمْ صَرْفَ
اللَّهُ قُلُوبُهُمْ بِإِيمَانِهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ [التوبه: ١٢٤] وقوله : ﴿وَإِذَا تُنْتَلَ عَلَيْهِمْ اِيَّٰنَنَا بَيْتَنَتْ
فَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا اَتَتْ بِمُثْرِئِهِنَّ اَغْرِيَهُنَّ اَوْ بَدَلَهُنَّ قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ اَنْ اُبَدِّلَهُمْ مِنْ تِلْقَائِي
نَفْسِي اِنْ اَتَيْعُ اَلَا مَا يُوحَى اِلَيْكَ اَخَافُ اِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿١٧﴾ [يومن: ١٥] ،
وقوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ اَفَتَرَنَّهُ قُلْ فَاتَّهُ اِعْشَرُ سُورٍ مُّتَّلِّهٍ مُّفْتَرِيَّتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ اِنْ
كُنْتُمْ صَنِدِيقِنَ ﴾ ﴿١٨﴾ [هود: ١٣] .

هذا من جانب التاسب الموضوعي بين هذه السور، أما جانب التاسب القصصي فيها، فاتَّخذ منحى التسلسل من الإجمال إلى التفصيل تارةً، ومن التفصيل إلى الإجمال تارةً أخرى، وقد جاء ذلك بما يتواافق ويتجانس مع الموضوع والسياق في كل سورة منها.

فالقصص في سورة التوبه وردت مكتفيَّةً بذكر أسماء الأقوام فقط، دون ذكر تفاصيلها وأحداثها؛ لأن القصص هنا ليست أساسية في تشكيل هذه السورة، حتى تأخذ مساحة كبيرة عرضاً وتفصيلاً، فكل السورة يُنصَب على الحديث عن الأحكام النهائية في العلاقات بين المسلمين والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين^(١)، وكان الحديث عن المنافقين وفضح مخططاتهم في المجتمع المسلم، كان له النصيب الأوفر، ومن ثم لا غرابة أن يحمل السياق في مخاطبته هذه الفئة التهديد والوعيد، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَفِّقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ
نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيلِيْنَ فِيهَا هِيَ حَسِبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَقِيقٌ ﴾ ﴿٦٨﴾ [التوبه: ٦٨] ، ثم يذكرهم بأسلافهم الذين استمتعوا بحظوظهم، وبملذاتهم في الدنيا، والذين كانوا أشدَّ منهم قوةً وأكثر أموالاً وأولاداً، في محاولةٍ لإيقافهم عن أفاعيلهم الآثمة بأسلوب ملؤه الوعيد والتهديد

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٥٦٤ .

والنفريع ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ فُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا أَسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُصُّتُمْ كَالَّذِي خَاصُّوْا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَدِيسُونَ﴾ [التوبه: ٦٩]، ثم يُذكرهم بقصص هؤلاء السلف كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات، بأسلوب الاستفهام التقريري الإنكاري، دون ذكر التفاصيل كما قلت سابقاً؛ لأن الغرض من سوقها هنا هوأخذ العبرة فحسب مما حل بهؤلاء السابقين؛ لكي يرءوا بأنفسهم عن نهج مسلكهم، والسير على ركابهم حين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم بالبيانات، ومكايرنهم الحقائق الساطعة التي جاء بها أنبياؤهم ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ بَيْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَاصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفَكَاتُ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبه: ٧٠].

وأما القصص في سورة يونس، فهي متناسبة مع قصص سورة التوبه في التفصيل لقصة نوح عليه السلام فقط من جهة، وفي الإجمال لبقية القصص (عاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين، والمؤتفكات) من جهة أخرى، دون ذكر أسماء هؤلاء الأقوام، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ جَاءُهُمْ بِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ كَذَلِكَ نَطَّعَ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

ومن ناحية أخرى تتناسب القصص في سورة يونس مع قصص سورة هود في التفصيل لقصة موسى عليه السلام، وفي الإجمال والإيجاز لقصة نوح عليه السلام.

فضلاً عن أنَّ السياق الذي اكتفى القصص في سورة يونس، فيما يبدو لي، متناسبٌ مع سياق القصص في سورة التوبه؛ فقد وردت القصص في سورة التوبه بعد التهديد والوعيد والاستمتاع بمُتع الدنيا الفانية كما بينت ذلك قبل قليل، فكذلك الحال أيضاً في ورود قصص سورة يونس بعد التهديد والوعيد والاستمتاع بمُتع الحياة الفانية؛ فمثلاً : قصة نوح، كما بقية القصص في سورة يونس، وردت بعد التهديد والوعيد للمفترين على الله كذباً أنه اتَّخذ ولذا تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً بعدما يأخذون نصيبهم من هذه الحياة الدنيا، ويستمتعون بملذاتها، وهم لا هون سادرون في غيهم بما ينتظرون من العذاب في الآخرة ﴿قَالُوا اتَّخَذَ

اللَّهُ وَلَدًا شَبَحْنَاهُ، هُوَ الْفَقِيرُ لِهُمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهِنَّا
 أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٥﴾ مَتَّعْ
 فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذَيِّقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٦﴾ وَأَنْلَى عَيْنَهُمْ
 بَأَنَّ نُوحَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقُولُ إِنْ كَانَ كَبُرُّ عَيْنَكُمْ مَقَابِي وَنَذِكِرِي بِيَمِنَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَاجْمِعُوا
 أَمْرَكُمْ وَشَرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَّةً ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظَرُونَ ﴿٦٧﴾ فَإِنْ تَوَلَّنُمْ فَمَا
 سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْتَهُ وَمَنْ
 مَعَهُ فِي الْفَلَكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَّيْفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِيَمِنَنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْبَهُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٦٩﴾
 [يونس: ٦٨ - ٦٩] ، قال البقاعي : ((ولما تقدم سؤالهم الإتيان بما يقترحون من الآيات،
 ومضت الإشارة إلى أن تسبيحهم في الفلك من أعظم الآيات وإن كانوا لإلفهم له قد نسوا
 ذلك، وتتساجت الآي كما سلف إلى أن بين هذا أن متاع المفترين الكذب قليلٌ تخويفاً من
 شديد السلطة وعظيم الأخذ، عقب ذلك بقصة قوم نوح؛ لأنهم كانوا أطول الأمم الظالمة مدة
 وأكثرهم عدّة، ثم أخذوا أشدّ أخذ، فزالت آثارهم وانطممت أعلامهم ومنارهم، فصاروا كأنهم لم
 يكونوا أصلاً ولا أظهروا قولًا، ولا فعلًا))^(١).

وما يلحظ أيضاً أن القصص في سورة يونس متناسبة مع موضوعها ومقاصدها^(٢)،
 وهي على النحو الآتي :

أولاً : تهديد وتقرير المشركين المعارضين دعوة الرسول ﷺ بأن الله ناصر عبده
 ودعوته كما نصر الأنبياء من قبل على أقوامهم، فأبادهم، وأنجى المؤمنين^(٣)، يقول الله ﷺ:
 ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبِيِّنَاتِ وَمَا كَفَوْا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجِزِي
 الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُمْ خَلَّيْفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ [يونس:
 ١٣ - ١٤] ، يقول وهبة الزحيلي : ((هذه آية وعيد وتهديد بعذاب الاستئصال والإهلاك
 للكفار مقرونة بضرب الأمثال لهم، في تعذيب الأمم السابقة، ليتردعوا بما هم فيه من تحدّ

(١). نظم الدرر : ٩ / ١٦١ - ١٦٢ .

(٢). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٣٨٧ - ٣٨٨ .

(٣). ينظر : المصدر نفسه : ١١ / ٣٨٧ .

لموكب الإيمان أو مطلب متسرع في تعجيل العذاب، مع أن القانون الإلهي واحد، فكما فعل السابقون أفعالاً منكرةً فعذبوا، كذلك يفعل بالأجيال المتلاحقة بسبب التّشابه في الأسباب واقتراف السيئات))^(١).

ثانياً : أنَّ الله جعل لكلَّ أمَّةٍ من الأمم رسولاً، يرشدها ويهدّيها إلى الحقّ، ويقيم عليهم الحجة، ثم يقضى الله بينه وبينهم بالعدل؛ إن أطاعوه نجوا، وإن عصوه هلكوا^(٢)، يقول ﷺ :

﴿وَلَكُلُّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ فُضِّلَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٤٧]

وهذه الآية هي الأخرى تتطوّي على التهديد والوعيد والتحذير لمشركي مكة ومن سار على شاكلتهم، من أن ينتهجوا الكفر والضلالة طریقاً ومسلکاً، قال ابن عاشور : ((ولما أشعر قوله : **﴿فُضِّلَ بَيْنَهُمْ﴾** بـأَنَّ الْقَضَاءَ قَضَاءُ رَجْرِ لَهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ رَسُولِهِمْ وَأَنَّهُ عِقَابٌ شَدِيدٌ يَكَادُ مَنْ يَرَاهُ أَوْ يَسْمَعُهُ أَنْ يَجُولَ بِخَاطِرِهِ أَنَّهُ مُبَالَغٌ فِيهِ أُتَيَ بِجُمْلَةٍ، **﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾**، وهي حالٌ مُؤكَدةٌ لِعَامِلِهَا الَّذِي هُوَ **﴿فُضِّلَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾** لِإِشْعَارِ بِأَنَّ الذَّنْبَ الَّذِي فُضِّلَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِهِ ذَنْبٌ عَظِيمٌ))^(٣).

ثم تأتي القصص بعد ذلك تباعاً، لتؤكد هذا التهديد والتحذير من أن يبال هؤلاء المشركين ما أصاب السابقين من العذاب والهلاك، كما حدث مع قوم نوح وفرعون وملئه وجنوده، ويستثنى من ذلك قوم يونس؛ فإنهم آمنوا قبل أن يحلّ عليهم العذاب.^(٤)

ويبدو لي تناسبٌ موضوعيٌّ داخليٌّ آخر بين القصص ومطلع السورة، فمطلع السورة يعرض لنا تعجب الكفار من أن يوحى على رجل من الناس، فرفضوا دعوة الرسول محمد ﷺ، لهذه العلة، وهذا التعجب يتنااسب ومضمون قصة نوح وقصة موسى عليهما السلام فإن قوم رأوا نبيهم نوحًا ثقيلاً عليهم، غير مرحب به بينهم؛ بسبب عدم تقبيلهم دعوته ورسالته، **﴿وَأَتَلُّ عَلَيْهِمْ بَأَنَّ نُوحَ إِذَا قَالَ لِقَوْمِهِ يَقُولُونَ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِعَائِدَتِ اللَّهِ﴾** [يونس: ٧١]، وكذا الحال مع موسى عليه السلام فقد جد فرعون وملئه دعوة نبيهم، بل وصفوا ما

(١). التفسير الوسيط : ٢ / ٩٥٠ .

(٢). ينظر : المصدر نفسه : ٢/٩٧٧ .

(٣). التحرير والتتوير : ١١ / ١٨٨ .

(٤). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨٠٩ - ١٨١٠ .

جاء به من الوحي والرسالة بأنه سحر مبين، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦].

وأَمَّا القصص في سورة هود، فهي متناسبةٌ في تفصيل قصص سوره التوبه وسورة يونس (نوح، وعاد، وثモود، وإبراهيم مع الملائكة، ولوط، ومدين)، ما عدا قصة موسى عليه السلام فقد أجملت في مقابل التفصيل الذي عرض في سورة يونس.

وقد سبق أن ذكرت قبل قليلٍ أَنَّ القصص في سورة التوبه وسورة يونس وردت بعد التهديد والوعيد، وهذا النمطُ ينطبق أيضًا على القصص في سورة هود؛ إذ وردت بعد التهديد والوعيد لأولئك الذين يفترون على الله كذبًا في وحيه وقرآنـه، أو أحكامـه، أو صفاتـه، أو أفعالـه^(١)، ويصدون الناس عن سبيلـ الحق ويكفرون بيومـ القيـمة، فإنـهم لـن يعـجزـوا اللهـ في الأرضـ منـ أـنـ يـنـالـهـ العـذـابـ والـعـقـابـ والـلـعـنةـ والـطـرـدـ منـ رـحـمـةـ اللهـ، ولـيـسـ لـهـمـ مـنـ أولـيـاءـ وـأـنـصـارـ يـسـتـعـينـونـ بـهـمـ فـي دـفـعـ العـذـابـ عـنـهـمـ بلـ إـنـهـ قدـ خـسـرـواـ أـنـفـسـهـمـ فـي الدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يَعْرَضُونَ عَلَى رَيْهُمْ وَيَقُولُ الْأَشَهَدُ هُنُّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَذَبُوا عَلَى رَيْهُمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾١٨﴾

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَغْوِنُهَا عَوْجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفِرُونَ ﴾١٩﴾

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُنُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَيَاءَ يُضَعِّفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصِرُونَ ﴾٢٠﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾٢١﴾

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾٢٢﴾

... وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوْكَإِلَيْهِ إِلَيْكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾٢٣﴾

[هود: ٢٥ - ١٨] ، قال ابن عاشور في تفسيره على الآية ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُنُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: ٢٠] : ((استثنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عنِ الإقتصارِ فِي تَهْدِيَهِمْ عَلَى وَصْفِ بَعْضِ عِقَابِهِمْ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُبَيِّنُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ أَنْ يَسْأَلَ : هَلْ هُمْ سَالِمُونَ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا ، فَأَجِيبَ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنُوا مُعْجِزِينَ فِي الدُّنْيَا ، أَيْ : لَا يَخْرُجُونَ عَنْ مَقْدِرَةِ اللَّهِ عَلَى تَعْذِيبِهِمْ فِي الدُّنْيَا إِذَا افْتَضَتْ حِكْمَتُهُ تَعْجِيلَ عَذَابِهِمْ))^(٢).

(١). ينظر : تفسير المنار : ٤٧/١٢ .

(٢). التحرير والتورير : ٣٤/١٢ .

وثمة تناصبٌ داخليٌ للقصص في سورة هود مع موضوعها ومقاصدها؛ فالسورة عرضت في مطلعها حقائق العقيدة، ثم تأتي هذه القصص لتأكيد وتستعرض حركة هذه الحقائق في التاريخ البشري، من زمن نوح عليه السلام إلى عهد محمد ﷺ^(١)، وهذه الحقائق العقدية هي : (توحيد الله، والاستغفار والتوبة، والخوف من عذاب الله، والرجوع إلى الله، وقدرة الله الغالبة، وخفايا النفس الإنسانية، والتکلف بأرزاق كل دابة، وخلق السموات والأرض) ، قال عليه السلام

﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّمَا يُنْهَا نَارُ الْجَحَنَّمُ إِلَيْهِ رَيْبٌ لِّكُلِّ أَنْسَابٍ وَإِنَّ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْتَنَعُكُمْ مَنْعًا حَسَنًا إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمٌّ وَيُؤْتَى كُلُّ ذِي فَضْلِهِ أَجَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾١ ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾٢ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْهَوْنَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا جِئْنَ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلَمُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾٣ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَاهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾٤ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَبْلُوُكُمْ أَيْثُمْ أَخْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتُ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ أَلَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾٥ ﴿هُودٌ ٢ - ٧﴾

وبعد هذا التَّطواف لابد من الإشارة إلى أن السور الثلاث اشتربت في قصة نوح عليه السلام في تسلسل عجيب من الإجمال الكلي في سورة التوبة، إلى الإيجاز في سورة يونس، ثم التفصيل والعرض الموسع في سورة هود، ومن اللافت للنظر في التناصب بين القصص في السور الثلاث، أنها كلها بدئت بقصة نوح عليه السلام.

فسورة التوبة، كما ذكرت، لم تتعرض لأحداث القصة تماما، بينما سورة يونس أشارت إلى جانب تحدي نوح عليه السلام قومه بعدما استغرق طويلا في إنذارهم وتخويفهم، وتعرضت إلى استعانته بالله وحده، ونجاة نوح ومن آمن به **﴿وَأَقْلَلْتَ عَلَيْهِمْ بَأْرَأْتَنِي نُوحٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقُولُنَّ إِنَّمَا كَبَرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِعَايَنِتِي اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشَرَكَمُكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنُنَّ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَّةٌ ثُمَّ أَفْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونَ ﴾٦ ﴿إِنَّمَا تَوَلَّتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مَنْ أَجْرِيَ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾٧ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْأَفْلَكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَقَفَ وَأَغْرَقَنَا**

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٤٤ - ١٨٤١ - ١٨٧٠ .

الَّذِينَ كَذَّبُوا إِتَايَنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْقَبَةُ الْمُنْدَرِينَ ﴿٣﴾ [يونس: ٧١ - ٧٣] ، في حين فصلت سورة هود كثيراً؛ فقد ابتدأت بذكر رسالة نوح، ومعارضة قومه له، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾٤٥﴾ أَنَّ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّمَا أَخَافُ عَيْنَكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآيْمِ ﴿٤٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَنَا إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَنَا كَتَبْكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُنَا بِإِدَى الرَّأْيِ وَمَا نَرَنَا لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظَرْنَاكُمْ كَذِيرَتَكَ ﴿٤٧﴾ [هود: ٢٥ - ٢٧] ، وانتهت بنجاة نوح ومن معه ﴿قِيلَ يَنْوُحُ أَهْبِطْ إِسْلَمٍ مِّنَ الْمَرْجَدِ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمُّرٍ مَّمَّنْ مَعَكَ وَأُمُّمٌ سَمِّيَّتُهُمْ هُمْ يَمْسِهُمْ مِّنَّا عَذَابُ الْآيْمِ ﴾٤٨﴾ [هود: ٤٨] .

وبهذا يتبيّن لنا تناسب القصص في السور (التوبة، ويونس، وهود) من حيث :

١. تناسبها تفصيلاً وإجمالاً.
٢. التناسب الموضوعي المشترك : مجيء القصص بعد التهديد والوعيد .
٣. التناسب الداخلي للقصص مع موضوعها ومقاصدها.
٤. اشتراكها جميعاً في قصة نوح .

❖ التناسُب بين خاتمة التوبَة وفاتحة يوْنُس:

من ملامح التناسُب ذلك التلاؤم والتلامُم الذي تبدو فيه فاتحة كل سورة تلقي خاتمة ما قبلها، في تَآخِي وتَالِفَ معنويٌ يأخذ بالأَلْبَاب، ويأسِرُ الأَسْمَاع، حتى تشعر أنك أمام سورة واحدة من شدة ما بينهما من الترابط والتناسق، ويشير الزركشي إلى أهمية هذا النوع من المناسبات بقوله : ((إِذَا اعْتَرْتَ افْتَاحْ كُلَّ سُورَةٍ وَجَدْتَهُ فِي غَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ لِمَا حَنَّ بِهِ السُّورَةَ قَبْلَهَا ثُمَّ هُوَ يَخْفَى تَارَةً وَيَظْهَرُ أُخْرَى))^(١)، وسمى السيوطي هذا النوع من التناسُب (تشابه الأطراف)، ويرى أنه من أكبر وجوه المناسبات في ترتيب السور.^(٢)

وهذا النوع من التناسُب نجده فعلاً بين فاتحة سورة يوْنُس وخاتمة التوبَة، أجمله في

النقطات الآتية :

١. ختمت سورة التوبَة بذكر الرسول ﷺ، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّجِيمٌ ﴾[١٢٨] التوبَة: ١٢٨ ، وبدئت سورة يوْنُس به^(٣)، ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنَّا أَوْجَحَنَا إِلَى رَجْمٍ مِّنْهُمْ أَنَّا أَنْذِرَنَا النَّاسَ وَبَشَّرَنَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا سَاحِرٌ مُّنِينٌ ﴾[٦] يوْنُس: ٦ ، هذا بالنظر في كلتا الآيتين نظرة إجمالية عامة، ولكن حينما نعيد النظر فيما مرَّة أخرى، نجد تناسُباً بين جملهما ومفرداتهما؛ فآية يوْنُس تأتي مؤكدةً أو شارحةً ما ورد في آية التوبَة من الصفات التي يتحلى بها الرسول ﷺ، في ملمح عجيبٍ، وإشارةٌ فريدةٌ إلى أن من كانت هذه صفاتٍ فلا عجبٌ أن يرسله الله إلى الناس هادياً ومنذراً وبيشراً، ومن ثم كان حريضاً بالكافار وغيرهم أن يُقبلوا عليه ﷺ ويسارعوا إلى الإيمان بدعوته^(٤)، وتوضيح هذا التناسُب يكون في المخطط الآتي :

(١). البرهان في علوم القرآن : ١ / ٣٨ .

(٢). ينظر : أسرار ترتيب القرآن : ٧١ .

(٣). ينظر : روح المعاني : ١١ / ٥٨ - ٦١ ، وتفصيل المنار : ١٢٤/١١ .

(٤). ينظر : نظم الدرر : ٦٣/٩ .

آية يونس	آية التوبة	م
رَجُلٌ مِّنْهُمْ	رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ	١.
قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا سَاحِرٌ مُّشِينٌ	عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ	٢.
أَنَّ أَنْذِرِ النَّاسَ	حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ	٣.
وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَّمَ صِدِيقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ	إِلَّا مُؤْمِنِينَ رَءُوفُ رَّحِيمٌ	٤.

٢. تناولت خاتمة التوبة أحوال المنافقين وما يقولونه عند نزول سورة من سور القرآن، ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتَ سُورَةً فِيهَا مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَامْلأَ الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادُوهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِّشُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، قوله تعالى أيضاً : ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتَ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَنُكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَهُمْ صَرْفَ أَنَّ اللَّهَ قُلُوبُهُمْ يَأْتُهُمْ فَقَمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، بينما سورة يونس تناولت أحوال الكفار وما يقولونه في القرآن الكريم ^(١)، ﴿وَإِذَا تُنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ مَا يَأْتُنَا بِيَنْتَهٰٰتِي قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَتِ بِقُرْبَانٍ غَيْرَ هَذَا أَوْ بِدَلَّهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥]، وهذا الترابط بين الآيتين يؤكد أن المنافقين والكافر في خندق واحد يرمون الإسلام والرسالة والقرآن الكريم عن قوس واحدة .

٣. أشارت سورة التوبة إلى ذم المنافقين الذين لا يتوبون ولا يتذكرون ولا يرجعون إلى ربهم من بعد ما ألم بهم البلاء، ﴿أَوْلَئِنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّيْتَهُمْ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦]، أمّا سورة يونس فأشارت إلى ذم ذلك الإنسان الذي يتذكر ربّه ويدعوه ليلاً نهاراً حين يمسه الضُّرُّ والبلاء ثم ينساه في السراء، ناكراً فضل الله عليه ^(٢)، ﴿وَإِذَا مَسَ الْإِنْسَنَ الْضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَنَا كَشْفُنَا عَنْهُ﴾

(١). ينظر : روح المعاني : ١١ / ٥٨ ، و تفسير المنار : ١١ / ١٢٤ .

(٢). ينظر : روح المعاني : ١١ / ٥٨ .

ضَرَّةٌ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ ثُرِّيَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ [يونس: ١٢].

٤. ختمت سورة التوبه بذكر العرش العظيم، ﴿فَإِن تَوَلَّا فَقْلُ حَسِيبٍ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبه: ١٢٩]، وبُدئت سورة يونس بالاستواء على العرش، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدْبِرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

وذكر العرش في الآيتين في سياق التولية والإعراض^(١)، يأتي تفخيمًا وكناية عن سيطرة الله وتدبيره كلًّا هذا الوجود المترامي الأطراف؛ ليُلْتَجأ إِلَيْها ويعتمد عليها حين يتولى المتولون، ويُعرض المعرضون عن دين الله ومنهجه، في حين كان جديراً بهؤلاء أن يذعنوا لله ذي القدرة الغالبة، والسيطرة المطلقة، أذلاء مطيعين عابدين له، لا أن يتولوا ويتکبروا ويعرضوا عن عبادته^(٢)، ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

٥. ولأبي حيان ملحوظ فنيٌّ في تناسب ما جاء في ختام سورة التوبه وفاتحة يونس، يوضحه بقوله : ((وَلَمَّا كَانَ ذِكْرُ الْقُرْآنِ مُقْدَمًا عَلَى ذِكْرِ الرَّسُولِ فِي آخِرِ السُّورَةِ، جَاءَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ كَذَلِكَ، يَعْنِي يُونُسَ، فَتَقَدَّمَ ذِكْرُ الْكِتَابِ عَلَى ذِكْرِ الرَّسُولِ))^(٣).

(١). وردت كلتا الآيتين في سياق التولية والإعراض : ﴿فَإِن تَوَلَّا فَقْلُ حَسِيبٍ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبه: ١٢٩]، و ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا سُحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٤٢ ، و تفسير المنار : ١١ / ٧٨ .

(٣). البحر المحيط : ٥ / ١٢٥ .

❖ التناسُب بين خاتمة سورة يومن وفاتحة سورة هود

بيَنَتْ سابقاً وجوه التناسُب بين فاتحة يومن وخاتمة التوبَة، ولكن لابدّ من النظر في وجوه التناسُب والترابط بين خاتمة سورة يومن وفاتحة سورة هود، حتى تتجلى روعة تآخي سورة يومن بما قبلها وما بعدها، في النَّظام القرآني.

وسأُبرِز وجوه هذا التناسُب في الآتي :

١. ختمت سورة يومن بالأمر إلى الرسول ﷺ باتباع الوحي، والصبر على الدعوة، بما يكتفها من مشاقٍ وضيقٍ وأدَى، حتَّى يحْكَمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَكَمَيْنَ ﴿١٥﴾ [يومن: ١٠٩]، وهذا الختام، فيما يبدو لي، يتساوق مع الآية في مفتاح سورة هود التي تنهي الرسول ﷺ عن الرضوخ لضغوطات المشركين له، فيترك شيئاً من الوحي أو يضيق صدره، بل عليه أن يبلغ كلَّ ما يُوحى إليه، ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَالِّقٌ بِهِ صَدِّرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَذُورًا جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَيْلٌ ﴿١٦﴾ [هود: ١٢]، وفي ذلك قال ابن عاشور : ((فَلَيْسَ فِي هَذَا تَجْوِيزٌ تَرْكِ النَّبِيِّ ﷺ تَبْلِيغَ بَعْضِ مَا يُوحَى إِلَيْهِ، وَذَلِكَ الْبَعْضُ هُوَ مَا فِيهِ دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَإِنْذَارُهُمْ بِالْعَذَابِ وَإِعْلَامُهُمْ بِالْبَعْثِ، ...، وَالْمَعْنَى تَحْذِيرُهُ مِنَ التَّأْثِيرِ بِعِنَادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ وَاسْتِهْنَاهِمْ، ...، فَيَكُونُ تَحْذِيرًا مِنْ أَنْ يَضِيقَ صَدْرُهُ لِاقْتِرَاحِهِمُ الْآيَاتِ بِأَنْ يَقُولُوا : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَذُورًا جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴿١٧﴾ [هود: ١٢])^(٢).

٢. ولكنَّ البقاعيَّ وجَهَ آية يومن الآنفة الذكر وجهةً أخرى، مبيناً تناسُبها مع قوله تعالى : ﴿الرَّكِبُ أَخْكَمَ إِيَّاهُمْ فَصَلَّتْ مِنْ لَذْنَ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ [هود: ١]، فيقول : ((لما خَتَمَ السُّورَةُ الَّتِي قَبْلَهَا، كَمَا تَرَى، بِالْحَثِّ عَلَى اتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَلِزُومِهِ وَالصَّبْرِ عَلَى مَا يَتَعَقَّبُ ذَلِكَ مِنْ مَرَائِرِ الضَّيْرِ الْمُؤْدِيَةِ إِلَى مَفَاوِزِ الْخَيْرِ اعْتِمَادًا عَلَى الْمُتَّصَفِ بالْجَلَلِ

(١). ينظر : التفسير الوسيط : ٢ / ١٠١٨ .

(٢). التحرير والتنوير : ٤ / ١٢ - ١٧، وينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٦٠ .

والكيراء والكمال، ابتدئت هذه بوصفه بما يرغب فيه))^(١)، ويدعو الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي إلى تفصيل هذا التناوب بين هاتين الآيتين، أنقله هنا بنصّه وفصّه : ((قال في خاتمة السورة التي قبلها، وهي سورة يونس : ﴿وَأَتَيْتُ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَكَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٩] ، وما يوحى إليه هو الكتاب الذي أحكمت آياته ﴿كَتَبَ اللَّهُ أَحْكَمَتْ إِيمَانُهُ﴾ [هود: ١] ، فناسب قوله : ﴿خَيْرُ الْحَكَمِينَ﴾ وصف الكتاب بأنه أحكمت آياته، فخير الحاكمين هو الذي أحكم آياته، وناسب قوله : ﴿خَيْرُ الْحَكَمِينَ﴾ في آية يونس قوله في آية هود : ﴿مِنْ لَدُنَ حَكِيمٍ خَيْرٌ﴾ [١] هود: ١ [] ، فالحكيم قد يكون من معنى القضاء فيكون بمعنى الحكم، وقد يكون من الحكمة؛ فالحكيم على هذا هو خير الحاكمين؛ لأنّه حكيم وحاكم، ولا شكّ أنّ الحكم إذا كان ذا حكمة كان خير الحاكمين))^(٢).

٣. أشارت خاتمة يونس إلى أنّ وظيفة الرسول ﷺ تبليغ الحقّ من ربّه ﷺ فحسب، وأما هدايتهم فليست من اختصاصه؛ إذ ليس هو وكيلًا على أن يجعلهم مؤمنين؛ فمن أطاع الله واهتدى، فإنما يهتدي لنفسه، ويعود نفع هدايته لنفسه، ومن ضلّ وغوى، فإنه يعود ضرر ضلاله على نفسه، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلُلُ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨] ، قال سيد قطب : ((وليس الرسول موكلًا بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقًا، إنما هو مبلغ، وهم موكلون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم وإلى تبعاتهم، وإلى قدر الله بهم في النهاية))^(٣)، وهذا يتاسب، فيما أرى، مع قوله ﷺ في مبدأ سورة هود : ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي لِكُوَمْنَهُ نَذِيرٌ وَشَيْرٌ﴾ [٦] هود: ٢ [] ، فالرسول هنا ﷺ يدعو قومه إلى عبادة الله وحده، مبينًا أن وظيفته هي الإنذار والتبيير، يقول وحبة الزحيلي : ((نزل هذا الكتاب بآلا تعبدوا غير الله، ولا تشركوا به شيئاً، وإنني أنا رسول الله مرسل من عند الله، نذير من العذاب إن عصيتموه أو خالفتموه،

(١). نظم الدرر : ٢٢٤ / ٩ .

(٢). على طريق التفسير البياني : ٣ / ٤ - ٥ .

(٣). في ظلال القرآن : ٣ / ١٨٢٦ .

وبشير مبشر بالثواب إن أطعتموه. وفي هذا تبيان مهمة الرسول ﷺ ووظيفته وهي الإنذار لمن عصاه بالثار، والتّبشير لمن أطاعه بالجنة)^(١).

٤. تناولت خاتمة يونس قصة قوم نبي الله يونس عليه السلام الذين آمنوا وتابوا قبيل وقوع العذاب الذي هددتهم به نبيهم، فكشف الله عنهم عذاب الخزي، ومتعمهم في حياتهم إلى حين أجلهم)^(٢)، ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَّةٌ مَأْمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمًا يُوشَّ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْرِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَعَنَّاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، وهذه القصة تتواضع مع قوله ﷺ في فاتحة هود : ﴿إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِلَّيْنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبِّكُمْ ثُمَّ تُبُوءُ إِلَيْهِ يُمْسِكُمُ مَنْعَالًا حَسَنًا إِلَّا أَجَلٌ مُسَمَّىٌ وَيُؤْتَى كُلُّ ذِي فَضْلَةٍ﴾ [هود: ٣ - ٢]، فهذه الآية تشير إلى أن الإيمان بالله وعبادته حق العبادة، والاستغفار والتوبة من الشرك والكفر والذنوب، ينفع صاحبه؛ فالله يمتعه متعًا حسناً في الحياة الدنيا إلى الممات، كانتقاع قوم يونس بإيمانهم.

(١). التفسير الوسيط : ٢ / ١٠٢١ .

(٢). ينظر : تفسير القرطبي : ١١ / ٥٤ - ٥٦ .

القسم الثاني : المناسبات الداخلية :

❖ تناسب اسم السورة مع مقصودها :

للامن اهميته الكبرى في معرفة ما بداخل النص من مضامين، يقول البقاعي : ((
اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه
))^(١)، وبمعرفة المضامين والمقاصد التي تكتنفها السورة، يتشكل لدى الدارس أرضية صلبة
للانطلاق منها إلى بيان أوجه التناسب بين الآيات ومقاطعها وقصصها، يقول البقاعي : ((
أن من عرف المراد من اسم السور عرف مقصودها، ومن حق المقصود منها، عرف
تناسب آيتها، وقصصها، وجميع أجزائها))^(٢)، وهذا ما يؤكد الدكتور مصطفى مسلم بقوله :
((التعرف على الهدف الأساسي للسورة أو المحور الذي تدور السورة حوله يمكن معرفة ذلك
من خلال التعرف على دلالة اسم السورة أو أسمائها التي ثبتت عن طريق الوحي، أي :
بالتوقيف عن رسول الله ﷺ))^(٣).

ولكي نسبر أغوار سورة يونس ومقاصدها ومضامينها، فلا بد من الوقوف على
اسمها، وبيان دلالته، واسم السورة التوقيفي هو (سورة يونس)، وهكذا سميت السورة في
جميع كتب التفسير والحديث، وبه كتبت في المصاحف^(٤)، وسبب تسمية هذه السورة به هو
ورود ذكر (يونس) فيها، في قوله ﷺ : ﴿فَتَوَلَّا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا
ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَزْرِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَغَنَّمُهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾٩٨﴿ [يونس: ٩٨] ، ويرى ابن
عاشر أن سبب التسمية راجع إلى أمرتين، هما :

١. انفراد السورة بذكر خصوصية لقوم يونس، وهي إيمانهم وتوبتهم قبل حلول
العذاب عليهم، ((سُمِّيَتْ فِي الْمَصَاحِفِ وَفِي كُتُبِ التَّقْسِيرِ وَالسُّنْنَةِ سُورَةُ يُونُسَ لِأَنَّهَا اِنْفَرَدتْ

(١). نظم الدرر : ١٩ / ١ .

(٢). مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور : ١ / ١٤٩ .

(٣). مباحث في التفسير الموضوعي : ٤١ .

(٤). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٧٧ ، وأسماء سور القرآن الكريم : ٢٢٤ .

بِذِكْرِ خُصُوصِيَّةِ لِقَوْمٍ يُونُسَ، أَنَّهُمْ آمَّوْا بَعْدَ أَنْ تَوعَدَهُمْ رَسُولُهُمْ بِنَزْولِ الْعَذَابِ فَعَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ لَمَّا آمَّوْا ^(١)

٢. تمييز هذه السورة عن أخواتها الأربع المفتتحة بـ (الر)، وهي سورة : (هود، يوسف، إبراهيم، الحجر)، فقد ميّزَنَ هُنَّ الْأَخْرِيَاتِ بِإِضَافَتِهِنَّ إِلَى نَبِيٍّ أَوْ قَوْمًا نَبِيٍّ بَدَلًا مِنْ أَنْ يُقَالَ الرَّأْوِيُّ وَالرَّثَانِيَّةُ^(٢).

وَحِينَما نَقَفَ عَلَى الْجَذْرِ الْلَّغُوِيِّ لِكَلْمَةِ (يُونُس) نَجَدَهَا عِنْدَ ابْنِ فَارِسِ تَحْمِلُ الدَّلَالَاتِ الْأَتِيَّةَ : ((أَنَّسَ) الْهَمَرَةُ وَالنُّوْنُ وَالسِّينُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ ظُهُورُ الشَّيْءِ، وَكُلُّ شَيْءٍ خَالَفَ طَرِيقَةَ التَّوْحُشِ، قَالُوا: (الْإِنْسُ خِلَافُ الْجِنِّ)، وَسُمُّوا لِظُهُورِهِمْ، يُقَالُ: (آنْسَتُ الشَّيْءَ) : إِذَا رَأَيْتُهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿فَإِنَّمَا آنْسَتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النَّسَاءُ : ٦]، وَيُقَالُ: (آنْسَتُ الشَّيْءَ) : إِذَا سَمِعْتُهُ، وَهَذَا مُسْتَعَارٌ مِنَ الْأَوَّلِ^(٣).

يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ فَارِسِ أَنَّ الْجَذْرِ الْلَّغُوِيِّ لِكَلْمَةِ (يُونُس) يَحْمِلُ دَلَالَةَ الْأَنْسِ وَالظُّهُورِ، أَيْ : إِنَّ الْأَنْسَ يَكُونُ بِسَبِيلِ الظُّهُورِ، وَلِهَذَا الْإِنْسَانُ يَسْتَأْنِسُ بِغَيْرِهِ مِنَ الْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّهُ يَرَاهُ بِكَثْرَةٍ، وَلَوْ لَمْ يَعْرِفْهُ أَحْيَاً، بِخَلَافِ الْجِنِّ الَّذِينَ يَخَافُ مِنْهُمُ الْإِنْسَانُ وَيَسْتَوْحِشُ وَيَوْجِسُ خِيفَةَ مِنْهُمْ؛ بِسَبِيلِ اخْتِفَائِهِمْ وَعَدَمِ ظُهُورِهِمْ^(٤)، وَيَقُولُ الْفِيروزُ آبَادِيُّ : ((وَفِيهِ، يَعْنِي اسْمَ (يُونُس) ثَلَاثُ لُغَاتٍ : ضَمُّ نُونِهِ وَفَتْحُهُ وَكَسْرُهُ، وَهُوَ اسْمٌ عَلِمٌ أَعْجَمَيٌّ مُمْتَنَعٌ مِنَ الْصَّرْفِ، وَقِيلَ : مُشْتَقٌ وَرُثَنَهُ يُفْعَلُ مِنْ آنَسٍ يُونِسُ إِيْنَاسًا بِمَعْنَى أَبْصَرٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿أَنَّسَ مِنْ جَانِي الظُّهُورِ كَارًا﴾ [القصصُ : ٢٩]، وَقِيلَ مِنَ الْأَنْسِ ضَدَّ الْوَحْشَةِ، سُمِّيَّ بِهِ لِأَنَّسِهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ، أَوْ لِأَنَّهُ أَبْصَرَ رُشْدَهُ فِي الْعِبَادَةِ^(٥)، وَنَسْتَخلَصُ مِنْ كَلَامِ الْفِيروزِ آبَادِيِّ أَنَّ اسْمَ (يُونُس) مشتقٌ مِنَ الْأَنْسِ؛ بِسَبِيلِ إِيْنَاسِهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ أَوْ مشتقٌ مِنَ الْإِبْصَارِ؛ بِسَبِيلِ إِبْصَارِ الرُّشْدِ فِي الْعِبَادَةِ .

(١). التحرير والتوكير : ١١ / ٧٧ ، وَيَنْظُرُ : التفسير الوسيط للقرآن الكريم : ٧ / ٧ .

(٢). يَنْظُرُ التحرير والتوكير : ١١ / ٧٧ .

(٣). مقاييس اللغة : ١ / ١٤٥ ، (أنس) .

(٤). يَنْظُرُ : تهذيب اللغة : ١٠ / ٤٩٦ .

(٥). بصائر ذوي التمييز : ٦ / ٥٣ .

ومن كلٌ ما سبق نستنتج أن الجذر اللغوي لاسم (يونس) تدور معانيه حول : (الأنس، والظهور، والإبصار)، وهذه الدلالات نجد ملامحها في مقاصد هذه السورة^(۱)، وسأوضح ذلك في النقاط الآتية :

١. التمسك بالوحي مهما كانت الظروف، فهو أساس الدعوة.

من دلالات الاسم (يونس) الأننس والإيناس، وهذه الدلالة تتوافق مع ما بينته السورة من هجوم كبير على الوحي لما يمثله من أساس قويٌ تستند عليه الدعوة، فلم يفتَ المشركون أن يثروا الشبه حوله؛ كالتعجب من أن يُوحى إلى بشرٍ حينًا ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَابًا أَنَّا وَجَيَّنَا إِلَيْنَاهُ رَجُلًا﴾ [يونس: ٢]، إلى الطلب بالإثبات بقرآنٍ غير هذا القرآن أو تبديله ﴿وَإِذَا تُتَلَّ عَلَيْهِمْ أَيَّاً نَّا بَيْنَنَا قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَتِ إِيمَانَهُنَّا إِنَّا أَوْبَدَلْنَا﴾ [يونس: ١٥]، إلى التشكيك في هذا الوحي المتمثل في القرآن الكريم بأنه مفترٌ ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَا قُلْ فَأَتُوا بِشَوَرَةٍ مِّثْلَهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، إلى آخر محاولاتهم البائسة اليائسة، ولهذا كله ختم الله هذه السورة بأمره إلى الرسول باتباع الوحي والصبر عليه ﴿وَأَتَيْعَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَأَصِيرَ حَقَّنَ يَحْكُمُ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَكَمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩]، وهذا الأمر لا يخلو من الإيناس والتسرية للرسول ﷺ، وفي هذه الآية قال وهبة الزحيلي : ((وفي هذا الكلام تسرية عن هموم النبي ﷺ مما لقيه من أذى قومه، ووعد له وللمؤمنين بأن يغلبهم وينصرهم، ووعيد للأعداء الكافرين بأن يخذلهم ويهزمهم، ويطوي صفحتهم من التاريخ إلى الأبد))^(٢).

٢. الرد على مزاعم المشركين بأسلوب عقلي لا غموض فيه :

من دلالات الاسم (يونس) الأننس والإيناس؛ فإننا نجد في كثير من آيات سورة يونس التوجيه الرباني ومدَّ الوحي المستمر للرسول في الرد على شبُّهات المشركين التي كثرت بعد حدث الإسراء والمعراج، وهذا يظهر جليًّا من خلال تكرار الفعل (قُلْ) في السورة؛ فقد تكرر (٤٢) مرة، مما يُضفي صفة الأننس للرسول ﷺ، وهو يواجه عناد

(١). بعض هذه المقاصد من اجتهادي، وأكثُرها منقول عن كتاب (أسماء سور القرآن الكريم)، نقلًا حرفيًا أو متصرفًا فيه : ٢٢٤ .

(٢). التفسير الوسيط : ٢ / ١٠١٩ ، وينظر : تفسير المراغي : ١١ / ١٦٦ .

المرشكين، وصلف المكذبين بكم كبير من التوجيهات والردود الريانية، ومن أمثلة ذلك، لا الحصر، الرد على طلباتهم الغريبة العجيبة، فإنهم حين تلتى عليهم آيات الله البينات يبدون امتعاضهم وضيقهم منها؛ لأنها لا تتماشى مع هواهم، فيطلبون من الرسول ﷺ الإتيان بقرآن غير هذا القرآن أو تبديله ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيْتَنَتِي قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَتْ بِقُرْءَانٍ عَيْرًا هَذَا أَوْ بَدَأْلًا﴾ [يونس: ١٥]، فيأتي الرد من الله عز وجل عليهم، مواكباً هذا الطلب الغريب بصيغة ﴿قُل﴾ في توجيهه ربانياً صارم لا يقبل المساومة، وفي رد مؤنس للرسول أمام هذه التحديات والطلبات بغية نسف هذا الدين من أساسه، ينطلق الرسول ﷺ إلى المكذبين ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَ مِنْ تِلْقَائِي نَقْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٥ ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوَّهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ فَقَدْ لَيْثَتْ فِيْكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقُلُونَ﴾ ١٦ [يونس: ١٥ - ١٦]، وبعدما لم تفلح هذه الشبهات الفكرية التي بددتها القرآن بنفسه، انتقل أولئك المرشكون أصحاب النفوذ والسلطة إلى اتباع سياسة التهديد والوعيد والتخييف ضدّ الرسول ﷺ ودعوته، ولكن المدد الرياني، والوحى الإلهي، يتنزل عليه؛ ليبلغ الإنساني مبلغه، والأنس منها ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعَزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ١٧ [يونس: ٦٥]، يقول وهبة الزحيلي :)) جاءت آيات الوحي القرآني تواسي محمداً ﷺ، وتشدّ عزيمته، ومعناها : لا يهمك ولا يحزنك أيها الرسول قول المرشكين أبداً : لست مرسلاً، وغير ذلك من المعارضة والإصرار على الشرك والتکذيب لرسالتك، والتهديد بأنهم أصحاب القوة والمال، واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه، فإن العزة، أي : الغلبة والقوة والقهر لله تعالى جميعاً، جميعها له، فهو مصدرها ومانحها لمن يشاء من عباده، كما جاء في آية أخرى : ﴿وَلِلَّهِ الْعَزَّةُ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَكُنَّ الْمُنَفِّقُونَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ١٨ [المنافقون: ٨]).

٣. ترسیخ قضية الألوهية والربوبية :

من دلالات الاسم (يونس) الظهور؛ فقد عرضت السورة قضية الألوهية والربوبية مدعاة بالحقائق الكونية الظاهرة الواضحة، في أسلوب يخاطب الفطرة التي تتباين مع

(١). التفسير الوسيط : ٩٨٨ / ٢ .

خالقها، وما بَثَّ في هذا الكون الفسيح المترامي الأطراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يوس: ٣] ، نلحظ في هذه الآية دلائل استحقاق الله للألوهية والعبودية، فهي تطرق القلب والعقل والسمع والبصر بلطفي ولين، فتدرك هذه الحواس عظمة هذا الإله في ملكته الذي يستحق العبادة ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٢] [يوس: ٣] ، ثم يعدد السياق مظاهر قدرة الله الظاهرة، وبديع صنعه، في جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً، وأثرهما في الحساب والمواقيت، وفي تعاقب الليل والنهار؛ ليلامس شغاف القلوب ويوقظ العقول ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [٥] [إن في أخْيَالِ النَّاسِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَيْكَتِ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [٦] [يوس: ٥ - ٦] ، يقول سيد قطب : ((وكلتا هما ظاهرتان مشهودتان تذهب ألفة المشاهدة بجدة وقعهما في الحس، إلا في اللحظات التي تستيقظ فيها النفس، وينتفض فيها الوجدان للمطالع والمغارب، فيقف في الشروق وفي الغروب وقفه الإنسان الجديد في هذا الكون، يتطلع إلى كل ظاهرة جديدة فيه بعين مفتوحة وحس مستجيب))^(١).

٤. بُعْثُ الْأَمْلِ فِي الرَّسُولِ مُحَمَّدٌ ﷺ بِإِيمَانِ قَوْمِهِ :

من دلالات الاسم (يوس) الأنس والظهور؛ فإن قوم يومنس اللطيف حينما أبصروا أمارات العذاب وظهرت بوادر الهالك، سارعوا إلى الإيمان بالله والتوبة والحوية مما هم عليه من العصيان، فكشف الله عنهم العذاب المخزي^(٢)، ولا شك أن الإيمان كان أنيسهم في تلك الفترة المحدقة بهم كإيناس الصديق بصديقه وقت الضيق، وفي الوقت نفسه نلحظ في القصة تسلية للرسول محمد ﷺ بأن الأمل موجود في قومك وأمنتك بأن يؤمنوا ويدعنوا الله، وبضيف

(١). في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٦٥ - ١٧٦٦ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٩٠ .

الشيخ محمد سيد الطنطاوي جانباً آخر من جانب التسلية والإيناس، فيقول : ((وفي الآية الكريمة أيضاً تسلية الرسول ﷺ عما أصابه من حزن بسبب إعراض قومه عن دعوته))^(١).

٥. تسلية الرسول ﷺ من خلال ذكر قصص بعض الأنبياء :

من دلالات الاسم (يونس) الأنس؛ فقد أوردت السورة عدداً من القصص لإيناس الرسول محمد ﷺ وتسليته، كقصة نوح وقصة موسى، لكيلا يحزن، فوعد الله بنصر أنبيائه وعباده المؤمنين على المكذبين المعاندين، سنة ماضية على وفق إرادته ﷺ لا على رغبة البشر واستعجالهم، فهي، وإن تأخرت، لا تختلف، كما أن العاقبة والاستخلاف للمؤمنين^(٢). وهذه التسلية والتسرية واضحة في التعقيب على كل قصة فصل بعض أحداثها:

أ. التعقيب الأول : ورد على قصة نوح ﷺ يقول ﷺ : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾

في الفلك وجعلناهم خلفاً وأغرقنا الذين كذبوا علينا فأنظر كيف كان عقبة المنذرين [٧٣] يونس: ٧٣]، فالمتأمل في هذه الآية يلحظ تقديم نجاة نوح ومن معه واستخلافهم على هلاك المنذرين المكذبين وغرقهم، وذلك راجع إلى سببين، وضاحهما محمد رشيد رضا بقوله

((

- أولئما تقديم مصداق الوعد لِتَسْلِيَة النَّبِيِّ - ﷺ - وَتَسْرِيَة حُزْنِه عَلَى قَوْمِهِ وَمِنْهُمْ.
- ثانيهما كونه هو الأظهر في الحجة على أنهما (أي : الوعد والوعيد) مِنَ اللَّهِ تَعَالَى الْقَادِرِ عَلَى إِيقَاعِهِمَا، عَلَى خِلَافِ مَا يَعْقِدُ الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ الْمَغْرُورُونَ بِكُثْرَتِهِمْ وَقِلَّةِ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ، وَخِلَافُ الْأَصْلِ الْمَعْهُودِ فِي الْمَصَائِبِ الْعَامَّةِ فِي الْعَادَةِ وَهُوَ أَنَّهَا تُصِيبُ الصَّالِحَ وَالظَّالِحَ عَلَى سَوَاءِ، فَلَا تَمْيِيزٌ فِيهَا وَلَا اسْتِثنَاءٌ، وَلَكِنَّهُ هُوَ الَّذِي جَرَتْ بِهِ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي مُكَذِّبِي الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ تُوحِّي فَكَانَ آيَةً لَهُمْ، فَلَوْلَا أَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِ اللَّهِ عَلَى وَفْقِ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ لَمَّا هَلَكَ الْأَلْفُ الْكَثِيرُونَ، وَنَجَّا أَفْرَادٌ قَلِيلُونَ لَهُمْ صِفَةٌ خَاصَّةٌ أَخْرَجُوهُمْ مِنْهُمْ تَصْدِيقًا لِحَبْرِ رَسُولِهِمْ^(٣).

(١). التفسير الوسيط للقرآن الكريم : ٧ / ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٢ .

(٣). تفسير المنار : ١١ / ٣٩١ .

بـ. التعقيب الثاني : ورد على خاتمة قصة موسى ونوح عليهم السلام يقول ﷺ :

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَئُونَ الْكِتَابَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [٤٦] وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْذِينَ كَذَّبُوا بِعِيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [٤٥]

[يونس: ٩٤ - ٩٥] ، وب يأتي هذا التعقيب متسقاً مع سياق القصص السابقة التي نقلت لنا صورةً واضحةً عما كان عليه دين المعاندين من تكذيبهم رسليمهم، وتشكيكهم في أن دعوة أنبيائهم محض افتراء، وهذا الأمر نفسه حدث في مكة مع الرسول ﷺ، بعد حادث الإسراء والمعراج، فقد انتكس بعض المسلمين عن دين الله، وارتدوا لعدم تصديقهم هذه الحادثة، إلى جانب ضغوطاتِ معسكر الكفر على الرسول وأصحابه، كل ذلك أثر فيه ﷺ وأحزنه، فكان أحوج ما يكون إلى التسلية والتسرية.

يأتي هذا التعقيب أيضاً على إثر بيان ما آل إليه بنو إسرائيل بعد غرق فرعون وجنوده، ولا شك أنهم يعرفون التوراة، وما فيه من قصص كقصة نوح مع قومه، وقصة موسى مع فرعون، يأتي محملاً بالأمر إلى الرسول ﷺ بسؤال علماء أهل الكتاب الذين يقرؤون الكتاب، إن كان في شكٍّ مما جاء في القرآن الكريم من قصة نوح، وقصة موسى وغيرهما، وهذا السؤال على سبيل الفرض والتقدير، فهو موجه إلى أولئك الذين شكّوا في مصداقية الرسول ودعوته حتى ارتدوا عن دينه، والدليل على أن هذا التوجيه ليس مقصوداً به الرسول، ما يُروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : (لا أشك ولا أسأل)^(١)، وهنا تأتي التسلية والتسرية عن الرسول ﷺ في شهادة مؤكدة بالقسم، أن رسالتك ودعوتك لا شك فيها، بل هي الحق من ربك ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [يونس: ٩٤] ، ثم يعرض بالشاكين المكذبين بالنهي المؤكد ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [٤٦] وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْذِينَ كَذَّبُوا بِعِيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [٤٥]

[يونس: ٩٤ - ٩٥] ، فهولاء هم الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة بحرمانها من الإيمان^(٢).

(١). المصنف : ٦ / ١٢٥ ، رقم الحديث (١٠٢١١) .

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٩ - ١٨٢٠ ، وتفسير المنار : ١١ / ٤٠٤ - ٤٠٥ ، والتفسير الوسيط : ٢ / ١٠٠٧ - ١٠٠٨ .

ج. التعقيب الثالث : ورد على قصة يونس، يقول الله ﷺ : ﴿وَأَوْشَأَهُ رَبُّكَ لِلَّامَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَيِّعًا أَفَأَنْتَ تُكَرِّهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] ، في هذه الآية تسلية للرسول ﷺ بأن لا تُضيق على نفسك؛ فأنت لا تستطيع إكراه الناس للدخول في الإسلام، فهذا أمره إلى الله، ما عليك إلا البلاغ، يقول الدكتور عبدالكريم الخطيب : ((وفي هذا عزاء للنبي، وتسريعة عنه، مما يعتمل في نفسه من هموم على أهل هذه القرية التي يأبى عليه أهلها، وهم أهله وعشيرته، أن يستجيبوا له، وأن يأخذوا طريق النجاة الذي يدعوهم إليه))^(١).

وَخُلُصُّ من كُلِّ ما سبق إلى أنَّ اسم السورة (يونس) جَلِّ مقصود السورة الذي يتمحور حول الوحي وقضاياها، كإثبات الألوهية والربوبية لله، وقصص القصص التي جاء بها الوحي، والرد على شبهات المكذبين .

(١). التفسير القرآني للقرآن : ٦ / ١٠٨٥ .

❖ التناسب بين فاتحة السورة وخاتمتها :

يُعَدُ التنااسب بين فاتحة السورة وخاتمتها بمثابة السُّورِ الذي يطوق السورة من كُلّ جانب، والمحيطِ الذي تتناغم معه كُلُّ الموضوعات داخلَ السورة، في وحدة موضوعية قلَّ نظيرُها، وفي ترابطٍ وتلاحمٍ تتجاوب معه الفاتحة والخاتمة اللتان سُبِّكتا أحسن سُبُّكٍ، وصيغتا أروع صياغةٍ، فاستهويتا الألبابَ، وخفّتا على الأسماعِ والقلوب، يقول الدكتور محمد عبد الله دراز : ((ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أنَّ هناك تخطيطاً حقيقياً واضحاً ومحدداً يتكون من دبياجةٍ وموضوعٍ وخاتمةٍ، فتوضّح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذي ستعالجُه في خطوطه الرئيسية، ثم يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتدخل فيه جزء آخر، وإنما يحتلُّ كُلُّ جزء المكان المناسب له في جملة السورة، وأخيراً تأتي الخاتمة التي تقابل الدبياجة))^(١).

وببيان أوجه تناسب المفتتح والمختتم يتجلّى مقصود السورة، كما يبيّنه الاسم أجمل تبيان بالنظر إلى ما جاء في السورة من موضوعات، يقول الدكتور مصطفى مسلم : ((وقد يكون النّظر في فاتحة السورة وخاتمتها وإبراز القضايا المشتركة بينهما دليلاً على الهدف الأساسي في السورة، فكثير من سور القرآن يُرْدُ فيها العجز على الصدر؛ لترسيخ مفاهيم معينة أو التذكير بقضية جاءت السورة لبيانها))^(٢).

ومقصود سورة يونس الذي أكَّده اسمُها (يونس)، كما ذكرت سابقاً، هو إثبات الوحي وقضاياَه، وهذا ما سنتبته فاتحة السورة وخاتمتها أيضاً من خلال الاستعراض القادم. ومن فوائد معرفة تناسب فاتحة السورة مع خاتمتها، هو أنَّ السورة قد تطول؛ بسبب اتساع مساحاتها بين موضوعات متعددة وقصص ومقاطع متعددة، مما يجعل القارئ ينسى ما افتتحت به السورة، فتكون الخاتمة مُذكّرةً بما استهلت به فاتحة السورة في تطابقٍ فريد مقصود، مما يزيد النّص القرآني تماسكاً، يقول أبو حيان : ((وَقَدْ تَتَبَعَتْ أَوَّلَ السُّورِ

(١). مدخل إلى القرآن الكريم : ١١٩ .

(٢). مباحث في التفسير الموضوعي : ٤٥ .

الْمُطَوَّلَةِ فَوَجَدْتُهَا يُنَاسِبُهَا أَوْاخِرُهَا، بِحِينَ لَا يَكَادُ يَنْخَرِمُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَذَلِكَ مِنْ أَبْدَعِ الْفَصَاحَةِ، حَيْثُ يَتَلَاقَى آخُرُ الْكَلَامِ الْمُفْرِطُ فِي الطُّولِ بِأَوْلِهِ ^(١).

وسأاستعراض جوانب التاسب بين فاتحة سورة يونس وخاتمتها في النقاط الآتية :

١. افتتحت سورة يونس بتعجب المشركين من إنزال الوحي على الرسول محمد ﷺ، حتى قالوا : إِنَّهُ ساحِرٌ، بهدف التشكيك وإثارة الشُّبهِ والبلبلة في نفوس الناس حتى لا يأبهوا بدعة نبيهم ﷺ، ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنَّا أَوْجَيْنَا إِلَيْنَا رَجُلٌ مِّنْهُمْ أَنَّا أَنْذَرْنَا النَّاسَ وَبَشَّرْنَا الَّذِينَ مَاءَمُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدِيقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّا هَذَا السَّحْرُ مُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٢] ، فيأتي الختام بالأمر الجازم داعياً الرسول بأن يصدع بهذا الوحي، ويتمسك به، ويتحلى بالصبر ^(٢)، غير مبالٍ بتعجبهم وبما يقولونه، فإن الله سينصره عليهم، ﴿وَأَتَيْنَاهُ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَكَمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩] ، ((فِي الإِخْبَارِ بِأَنَّ اللَّهَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ إِيمَاءٌ بِأَنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الَّذِينَ كَذَّبُوا وَعَانَدُوا، وَهَذَا كَلَامٌ جَامِعٌ فِيهِ بَرَاعَةُ الْمَقْطَعِ

(٣)).

ولسيد قطب كلام جامع لهاتين الآيتين، مبينا القضية الأساسية التي ربطت بين الفاتحة والختمة، ما نصه : ((والترابط في سياق السورة يوحّد بين مطلعها وختامها، فيجيء في المطلع قوله ﷺ : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنَّا أَوْجَيْنَا إِلَيْنَا رَجُلٌ مِّنْهُمْ أَنَّا أَنْذَرْنَا النَّاسَ وَبَشَّرْنَا الَّذِينَ مَاءَمُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدِيقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّا هَذَا السَّحْرُ مُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٢] .. ويجيء في الختام : ﴿وَأَتَيْنَاهُ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَكَمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩] .. فالحديث عن قضية الوحي هو المطلع وهو الختام، كما أنه هو الموضوع المتصل الملتحم بين المطلع والختام ^(٤)).

(١). البحر المحيط : ٢ / ٣٧٨.

(٢). ينظر : التفسير الوسيط : ٢ / ١٠١٨.

(٣). التحرير والتورير : ١١ / ٣١٠.

(٤). في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٥٢.

٢. ومن جميل التناسب في هذه السورة، أن الخاتمة فيها أمر للرسول ﷺ باتباع الوحي، ﴿وَأَتَيْعَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْكُمُ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَكَمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩] ، وسبق هذا الأمر تتنفيذ الرسول له في فاتحة السورة، ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَ اللَّهَ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥] ، وكان هذا الأمر ﴿وَأَتَيْعَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ توكيد لما كان عليه الرسول ﷺ من الالتزام بهذا الوحي المقدس.

٣. بدأت سورة يونس بوصف الكتاب بـ ﴿الْحَكِيم﴾، وهذه الصفة على وزن (فعيل) بمعنى : (فاعل)، وعليه فالحكيم بمعنى الحاكم، الذي يحكم ويهيمن على الكتب ببيان صحيحتها من محرفها^(١)، وقد تكون هذه الصفة ﴿الْحَكِيم﴾ بمعنى : ذي الحكمة، على أساس اشتغال الكتاب على الحكمة^(٢)، وكلا التفسيرين يتاسب والصفة التي وصف بها الله تعالى في ختام السورة ﴿وَأَتَيْعَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْكُمُ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَكَمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩] ، يقول وهبة الزحيلي : ((وهو خير الحاكمين، أي : أعدل الحكام وأحكمهم، يقضي بالعدل التام والحكمة الصحيحة، الواقع الحقيقي))^(٣).

٤. تناولت فاتحة يونس الأمر الإلهي للرسول ﷺ بإذار الناس وتخويفهم من عذاب الله، وتبشير المؤمنين بالمنزلة الرفيعة في جنات النعيم، ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنَّ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنَّ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَّمَ صَدِيقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] ، ثم تأتي الخاتمة ؛ لتبيّن للرسول الأكرم كيف ينفذ هذا الإنذار، ﴿قُلْ يَنَّا يَهْبِطُ إِلَيْهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمُ الْحَقِّ مِنْ رَّتِيكُمْ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلُلُ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨]^(٤).

(١). ينظر: التحرير والتتوير : ١١ / ٨٢، والبحر المحيط : ٥ / ١٢٦ .

(٢). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ٤ .

(٣). التفسير الوسيط : ١٠١٨ / ٢ .

(٤). التناسب بين السور في المفتاح والخواتيم : ٢٠ - ٢١ .

٥. عرضت خاتمة يونس أنَّ الضرَّ إِنْ حلَّ بِالإِنْسَانِ فَلِيُسْ لِأَحَدِ الْقُدْرَةِ عَلَى كَشْفِهِ إِلَّا اللَّهُ، ﴿وَإِنْ يَمْسِكَ اللَّهُ بِضُرِّيْ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧]، فهذه الآية وردت في معرض الحديث عن نفي النفع والضر عن الأصنام، والنعي على أولئك المشركين الذين يسبحون بحمد هذه الأصنام ويعبدونها، ولا يعبدون الله الذي خلقها، وهي منسجمة ومناسبة مع قوله ﷺ في فاتحة السورة نفسها : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَنَ الْضُرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرُّهُ مَرَّ كَانَ لَمَّا يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّيْ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُرِّيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٢] [يونس: ١٢]؛ إذ إنَّ هذه الآية تبين كيف يتعامل هذا الإنسان مع الضرّ حينما يحدق به، ولا يجد منه مفرًا، فإنه يُقبل على ربه إقبال الضعف، فيُلْحُ في الدعاء إليه في كل حال يكون عليه، فتارةً يدعوه مضطجعاً لجنبه، وتارةً يدعوه قاعداً، وتارة أخرى يدعوه قائماً، ما دام الضرُّ جاثماً عليه يتهدده، والنجاة بعيدة المنال، وإذا بهذا الإنسان إذا ما كُشفَ عنه ضُرُّه وانقشع خطره، مرَّ في شؤون حياته غافلاً سادراً غير آبهٍ بربه، وكأن لم يكن ثمة شيء قد ألمَ به، يقول محمد رشيد رضا : ((هَاتَانِ الْآيَتَانِ^(١) فِي بَيَانِ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ الْبَشَرِ وَعَرَائِزِهِمْ فِيمَا يَعْرِضُ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا مِنْ حَيْرٍ وَشَرٍّ، وَنَفْعٍ وَضُرٍّ، وَشُعُورِهِمْ فِيهِ بِالْحَاجَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَاللُّجُوعُ إِلَى دُعَائِهِ لِأَنْفُسِهِمْ وَعَلَيْهَا، وَاسْتِعْجَالِهِمُ الْأُمُورُ قَبْلَ أَوْانِهَا، وَهُوَ تَعْرِيضٌ بِالْمُشْرِكِينَ وَحْجَةٌ عَلَى مَا يَأْتُونَ مِنْ شِرٍّ، وَمَا يُنْكِرُونَ مِنْ أَمْرٍ الْبَعْثِ^(٢)))، ومما يلحظ في هذه النقطة والنقطة الرابعة أنَّ الخاتمة كأنها ملخص لما ورد في فاتحة السورة.

٦. ورد في خاتمة السورة الأمر بالنظر إلى السموات والأرض ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَا ذَاقُوا إِلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْأَيْدِيْتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، فإنَّ هذا النظر والتأمل في بدائع صنع الله في السموات والأرض يقود إلى الإيمان بالله، وهذا يتاسب مع الآية في فاتحة السورة، التي جاءت في معرض التدليل على استحقاق الله للعبودية واللوهية، ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]، ثم يذكر في آخر الآية ما يقود إليه التأمل والنظر من

(١). يعني الآيتين : (١١، ١٢) .

(٢). تفسير المنار : ١١ / ٢٦٦ - ٢٦٧ .

استنتاج : ﴿ذَلِكُمْ أَنَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣] ، يقول الزمخشري : ((هو ربكم ، وهو الذي يستحق منكم العبادة فاعبدوه وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان ، فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع ، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ : فإن أدنى التفكير والنظر ينبهكم على الخطأ فيما أنتم عليه))^(١).

٧. ذكر الله في فاتحة السورة وعيده وتهديه للمشركين بتعذيبهم كما عذب من قبلهم من الأقوام الغابرة حين كفروا وعصوا ، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَافُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجَزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾١٣﴾ [يونس: ١٣] ، ثم يأتي التذليل في هذه الآية : ﴿كَذَلِكَ نَجَزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣] ليستكمل ذلك التهديد ، وليس تهضيم من غيرهم آخذين العبرة مما حل بالقرون الماضية ، ولكن هؤلاء لا يتَّعظون ولا يعتبرون ، ولا يسارعون إلى الإيمان والطاعة ، وكأنَّهم بذلك ينتظرون ذلك العذاب ، ثم تتجلى المناسبة مع خاتمة السورة في قوله ﷺ : ﴿فَهَلْ يَنْنَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّارِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنَتَّظِرِينَ ﴾١٠٢﴾ [يونس: ١٠٢] .

من خلال هذا العرض يتبيَّن لنا أهمية التاسب بين فاتحة سورة يونس وخاتمتها ، الذي طوق السورة بالقضية الأساسية ، وحقق مقصودها ، وهو (الوحى وقضاياها) ، ثم كانت ملامح هذا التاسب تتفاعل تفاعلاً عجياً مع هذه القضية الأهم ، فتارة بالتوكييد ، وتارة بالتوسيع ، وتارة أخرى بالاستكمال.

(١). الكشاف : ٣ / ١١٤ - ١١٥ .

❖ التناسب بين الآيات :

التناسب بين الآيات صورة من صور التناسب داخل النظام القرآني، ففيه تتعانق الآيات، وتلتئم فيما بينها مكونة وحدة نصية متماسكة، المعاني فيها منتظمة، والمباني مُتسقة، في شكل يكون فيه النص القرآني آخذًا بعضه بحجز بعض، يقول ابن العربي : ((ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كأنها كلمة واحدة، متسقة المعاني، منتظمة المبني، علم عظيم))^(١)، وأصدق وصف لهذا النظام القرآني المُحكم آياته هو قوله ﷺ : ﴿الرَّكِبُ أَخْكَمَ إِيمَانَهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١].

ومن روائع النظم القرآني أن كلَّ تعبير فيه وضع وضعًا فنيًّا مقصودًا^(٢)، فلا تندُ فيه الآيات عن أخواتها، ولا تشذُّ عن أماكنها، بل تكون في تركيب فريد، وترتيب جميل، وتأخ عجيب، يشدُّ بعضها ببعضًا وشائجُ وصلاتٌ من المعاني، وهذا صورة من صور الإعجاز القرآني، يقول البقاعي في ذلك : ((وذلك لأنَّ في كُلِّ آية معنى تتنظم به بما قبلها ومعنى تنهيأً به للانتظام بما بعدها؛ وبذلك كان انتظام الآي داخلاً في معنى الإعجاز الذي لا يأتيخلق بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً))^(٣).

وترتيب الآيات داخل هذا النظام القرآني توقيفي^(٤)؛ فلو لم يكن تسلسل الآيات وترتيبها على ما عليه الآن من الإحكام والضبط، لنزل القرآن عن الإعجاز درجات إلى مصاف الكتب التي طالتها يد التحريف والتبدل، يقول ابن عاشور : ((فلذلك كان ترتيب آيات السورة الواحدة على ما بلغتنا عليه متعينا بحيث لو غيرَ عنه إلى ترتيب آخر لنزل عن

(١). البرهان في علوم القرآن : ٣٦ / ١ .

(٢). التعبير القرآني : ١٠ .

(٣). نظم الدرر : ١ / ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٤). يقول ابن عاشور : ((أَمَّا ترتيب الآي ببعضها عقب بعضٍ فهو بتوقيفٍ من النبي ﷺ حسبَ تزوّلِ الْوُحْيِ)) التحرير والتووير : ١ / ٧٩ .

حَدَّ الْإِعْجَازِ الَّذِي امْتَازَ بِهِ))^(١) ، وأفضل منه ﷺ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجِدُوا فِيهِ أَخْلَفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢]^(٢)

وسأحاول أن أستعرض هذا التناسب على وفق المحاور الآتية^(٣) :

- التناسب بين مقاطع الآيات.
- تناسب الآية مع ما قبلها .
- تناسب الآية الواحدة من حيث صدرها وخاتمتها .

التناسب بين مقاطع الآيات :

يهدف هذا النوع من التناسب إلى دراسة توزع آيات السورة في مقاطع متعانقة بعضها بعض موضوعياً ودلائياً، بما يتاسب مع مقصود السورة ووحدتها، وفي هذا المحور سأتعرض مقاطع السورة مقطعاً مقطعاً على النحو الآتي .

تقسم سورة يونس إلى خمسة مقاطع، وهي على النحو الآتي :

المقطع الأول : (التمهيد) من الآية (١) إلى الآية (٢) .

هذا المقطع التمهيدي هو المنطلق الأساسي الذي حدد مسار سورة يونس، واصطبغت به مقاطع السورة؛ لتكوّن لحمةً موضوعيةً واحدةً، تتمحور حول (الوحي)، وهذا يُعدُّ من براعة الاستهلال^(٣) الذي يتميز بها القرآن الكريم في سورة.

افتتحت السورة بالأحرف المقطعة التي تمثل صورة من صور الإعجاز، ثم تلا ذلك الإشارة إلى المكانة السامية للقرآن الكريم، باستعمال أسلوب اسم الإشارة للبعيد كعادة النظام القرآني حينما يستفتح سوراً بالأحرف المقطعة، ثم يأتي الحديث عن القضية المحورية في السورة، وهي قضية الوحي، وإنكار كفار مكة نبوة الرسول ﷺ واتهامه بأنه

(١). المصدر نفسه : ١ / ٧٩ .

(٢). أفت في هذا التقسيم من دراسة سابقة . ينظر : سورة النمل دراسة لغوية في ضوء علم المناسبة .

(٣). ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٦ .

ساحر، وهذا يقبح بدوره في القرآن الكريم الذي هو من الوحي، كذلك بينت الآيات وظيفة الرسول القائمة على الإنذار والتبشير.^(١)

وقد أورد السيوطي سبب نزول الآية (٢) : ((قوله تعالى : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَّابًا﴾ [يونس: ٢] ، لما بعث الله محمداً رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر ذلك منهم قالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَّابًا﴾ الآية)^(٢).

المقطع الثاني : (تفنيد إنكار كفار مكة الوحي، وإثبات الدلائل على وحدانية الله)، من الآية (٣) إلى الآية (٥٦)

وهنا نلاحظ مدى التناوب بين هذا المقطع والتمهيد السابق، فقد تم الربط بينهما بأسلوب الالتفات من الغائب إلى الخطاب ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]^(٣) ، وفي هذا تبيه على أهمية قضية الوحي الذي هو قوام هذا الدين وأساسه، يقول محمد رشيد رضا : ((والخطاب فيها للناس الذين عجبوا أن يوحى إلى رجل منهم ما فيه هدايتهم بأسلوب الالتفات المنبه للذهن))^(٤) .

ابتداً هذا المقطع بالتأكيد على استحقاق الله الربوبية والعبودية لخلق السموات والأرض وتدبيره أمر الخلق، في إشارة إلى أن الذي يدبر أمر السموات والأرض، يدبر أيضاً أمر البشر بإرساله الرسل إليهم، وإنزاله الوحي عليهم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]^(٥) .

وهنا يتجلّى انسجام هذا المقطع بالمقطع السابق في أنه يأتي ردًّا على مزاعم الكفار في قضية الوحي، فهذه الآية الكريمة نفسها تناقش هذه المزاعم بما يعتقدون هم أنفسهم؛ فقد

(١). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ١٢٦ .

(٢). لباب النقول في أسباب النزول : ١٤٧ .

(٣). ينظر : التحرير والتتوير : ١١ / ٨٧ .

(٤). تفسير المنار : ١١ / ٢٥٤ .

(٥). ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٢٤ .

كانوا يعتقدون أن أصنامهم ومعبداتهم من الملائكة والبشر تقر لهم إلى الله وتشفع لهم عنده، ثم في الوقت نفسه يتعجبون عندما يُوحِي الله إلى عبدٍ من عباده برسالته، وفي هذا يقول محمد رشيد رضا : ((إنَّكُمْ إِذَا كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِأَنَّ لِلَّهِ شُفَعَاءَ مِنْ أُولِيَّ أَهْلِهِ وَعَبَادِهِ الْمُقْرَبُينَ يَشْفَعُونَ لَكُمْ عِنْدَهُ بِمَا يُقْرِبُكُمْ إِلَيْهِ رُلْفَى وَيَدْفَعُ عَنْكُمُ الضُّرُّ وَيَجْلِبُ لَكُمُ النَّفْعَ، وَهُوَ قَوْلُ مِنْكُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَمَا لَكُمْ تُنْكِرُونَ وَتَعْجَبُونَ أَنْ يُوحِيَ تَعَالَى إِلَى مَنْ يَشَاءُ، وَيَصْنُطُفِي مِنْ هَؤُلَاءِ الْعِبَادِ مَنْ يُعْلَمُكُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَهْدِيْكُمْ إِلَى الْعَمَلِ الْمُوَاصِلِ إِلَى كُلِّ مَا تَطَلُّبُونَهُ مِنْ هَؤُلَاءِ الشُّفَعَاءِ بِاسْتِحْقَاقِ بِدُونِ عَمَلٍ مِنْكُمْ وَلَا اسْتِحْقَاقٍ لِمَا تَطَلُّبُونَ مِنْهُمْ؟))^(١).

إلى جانب الرد على طلباتهم الغريبة العجيبة المشككة المستهزئة، مثل طلبهم من الرسول ﷺ الإتيان بقرآن غير هذا الذي جاءهم به أو تبديله، بأن هذه المسألة فوق قدرته ﷺ، حتى تلاوته عليهم وإعلامهم به ليست بيده، بل بقدرة الله، ﴿ وَإِذَا تُنْتَلَ عَلَيْهِمْ مَا يَأْتَانَا بَيْنَتْرُ فَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَتْ بِقُرْءَانٍ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدَلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيْ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوَّثُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَذْرَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَيْتُ فِيْكُمْ عُمَراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦ ﴾ [يومنس: ١٥ - ١٦].

فضلاً عن أن هذا الجحود والنكران طاريٌّ وناشيٌّ، بعدما كان الناس أمة واحدة حنفاء مسلمين على الفطرة^(٢) ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةٌ وَجِهَةٌ فَلَمَّا خَلَقَنَا مِنْ آتَيْنَا كُلَّمَكَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقْضَى بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٩ ﴾ [يومنس: ١٩].

وبناءً على السياق في أساليب رده، فيتبع في هذه المرة أسلوب الحوار القائم على السؤال والجواب لإثبات وحدانية الله والبعث من خلال آثار قدرته ونعمه : (نعمة الرزق والحواس، والقدرة على الحياة والموت والإيجاد والهداية التي لا يقدر عليها الشركاء والأصنام والمعبدات)، ثم يختتم الحوار بالنتيجة التي خلص إليها، وهي : (إثبات الوحي والنبوة والقرآن) في قوله ﷺ : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَقْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٣٧ ﴾ [يومنس: ٣٧].

(١). تفسير المنار : ١١ / ٢٥٥ .

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٧٢ .

كذلك أشار هذا المقطع إلى السبب الحقيقي وراء هذا النكران لقضية الوحي والتشكيك فيها؛ إذ مرجع ذلك إلى ركونهم إلى الدنيا الفانية، وجود آخرة^(١)، قال ﷺ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأْنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ مَا يَعْلَمُنَا عَنِفْلُونَ﴾ [يوس: ٧] ، بالإضافة إلى فسادهم وظلمهم، قال ﷺ : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [يوس: ٤٠] ، ويبين سعيد حوى ارتباط هذا السبب بمقصود السورة : ((سبب الريب والكفر بهذا القرآن الظلم والإفساد في الأرض، فمن كان ظالماً ومن كان مفسداً فهذا وحده الذي يرتاب في هذا القرآن ويشكُ به ويُكفر، أما القرآن فليس فيه ريب ولا شكُ، لأن الحجة قائمة فيه أنه من عند الله)).^(٢)

ثم يتبع السياق أسلوب التفير والتزهيد في هذه الحياة الزائلة^(٣)، وترغيبهم في الدار الحقيقة؛ دار السلام التي أعدت للمتمسكيين بالوحى ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَّا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَلَاخْنَاطَ بِهِ بَنَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَمُ حَتَّى إِذَا أَخْذَتِ الْأَرْضَ زُخْرُفَهَا وَأَزْيَّنَتْ وَظَرَبَ أَهْلُهَا أَهْلَهُمْ فَنِدَرُونَ عَيْنَاهَا أَتَّهَا أَمْرُهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ﴾ [٢٤] ، والله يدعُوا إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراطِ مستقيم^(٤) [يوس: ٢٤ - ٢٥].

وفي تاسب هذه الآيات مع مقصود السورة يقول سعيد حوى : ((وارتباطها بالمقطع من حيث إن المقطع يرد على المنكريين للوحى، فالله يحدثنا عن ذاته جل جلاله أنه يدعو إلى دار السلام، وهذا يقتضي أن يرسل رسلاً وأن ينزل وحياً، فكيف ينكر المنكرون الوحي وبعثة الرسل ؟)).^(٤)

كما تطرق المقطع إلى مقالة الكفار بأن محمداً افترى القرآن من لدنه، بنبرة مرتفعة في مخاطبة هؤلاء في تحدٌ واضح، بأن يأتوا بسورة مثله، مستعينين بمن شاعوا بحسب

(١). ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٢٨ .

(٢). الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٦٢ .

(٣). ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٤٣ .

(٤). الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٤٧ .

استطاعتهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَا قُلْ فَأَقُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُ صَدِيقَنَ﴾ [٢٨] [يونس: ٣٨] ، بل ينعي السياق على مسارعتهم إلى تكذيب القرآن دون تأمل وروية، ودرایة بخصائصه، فيقول الله ﷺ : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ كَوَافِلُهُ كَذَّالِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنْقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [٢٩] [يونس: ٣٩] .

كذلك تناول هذا المقطع قضية التشكيك في العذاب الذي سيتحقق بالمخذلين بالوحى والرسول ﷺ سواء أكان عذاب الدنيا أو الآخرة، فقد أخذ الكفار يتفنون في التكذيب به، فتارة بالاستعمال مستهزئين ومستبعدين وقوعه، وتارة بالسؤال عنه، كما توضح الآيات ﴿وَيَقُولُونَ مَنْ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقَنَ﴾ [٤٨] [يونس: ٤٨] ، ﴿وَيَسْتَغْرِقُونَكَ أَحَقُّ هُوَ﴾ [٥٣] [يونس: ٥٣] ، فيأتي الجواب حاسماً مؤكداً بالقسم ﴿قُلْ إِنِّي وَرِيِّ إِنَّهُ لَحَقٌ وَمَا أَنْتُ بِمُعَجِّزٍ﴾ [٥٣] [يونس: ٥٣] .

ثم يختتم هذا المقطع الذي كان فيه التأكيد على صدق الرسول ﷺ والقرآن الكريم، وما تخلله من الوعيد وإثبات البعث ونزول العذاب بالمنكريين المخذلين، يختتم بملخص عن كل ذلك في آيتين :

١. التأكيد والتبيه على استحقاقه العبادة، من خلال انفراده بامتلاكه السمات والأرض، وبالتالي قدرته على تصريف شؤون الناس.
٢. التأكيد والتبيه على إنفاذ وعده، مع بيان تجهيل منكريه.
٣. قدرته على الإحياء والإماتة، وعلى البعث والحساب.

وفي ذلك يقول ابن عاشور : ((تذليل تهية للكلام المتعلق بصدق الرسول والقرآن وما جاء به من الوعيد وترقب يوم البعث ويوم نزول العذاب بالمرتكبين ، وقد اشتمل هذا التذليل على مجمل تفصيل ذلك الغرض، وعلى تعليله بأن من هذه شؤونه لا يعجز عن تحقيق ما أخبر بوقوعه))^(١).

(١). التحرير والتنوير : ١٩٨/١١

⊕ المقاطع الثالث : (مقاصد القرآن الكريم الإصلاحية، وضرورة الاهتداء به) ، من الآية (٥٧) إلى الآية (٧٠).

ينسجم هذا المقاطع مع المقاطع الثاني الذي رمى إلى الرد على الشبهات الفكرية التي أثارها المشركون حول الوحي والقرآن الكريم والرسول ﷺ ليأتي هذا المقاطع شارحاً حقيقة مقاصد القرآن الكريم الإصلاحية .

ابتدأ هذا المقاطع بخطاب عام للناس، موضحاً ما اشتمل عليه القرآن الكريم من مقاصد وخصائص وسمات؛ فهو موعدة لإصلاح حياة الناس في أخلاقهم وأعمالهم لتكوين خالصة لله، وشفاء لأمراضهم الباطنية من أدوات الشرك والكفر والمعاصي والحق وحب الدنيا، وهداية لحياتهم العملية، ورحمة للمؤمنين فيما بينهم كإغاثة الملهوف، والتعاون على البر والتقوى، ومنع الظلم ^(١) ﴿بِتَائِبَهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم مَّوْعِظَةً مِّن رَّبِّكُمْ وَشَفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ثم يبين السياق أنَّ السعادة كل السعادة في تطبيق هذه المقاصد بدلاً من الركض وراء حطام الدنيا ^(٢) ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ فِي ذَلِكَ فَيَقْرَبُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وهذا هو الذي فهمه الراعيل الأول الذي شرب بنور القرآن وهديه، ف ((عن عقبة بن الوليد عن صفوان بن عمرو : سمعت أيفع بن عبد الله الكلاعي يقول : لما قدم خراج العراق إلى عمر رضي الله عنه خرج عمر ومولى له ، فجعل عمر يُعدُّ الإبل فإذا هي أكثر من ذلك ، فجعل يقول : الحمد لله تعالى ، ويقول مولاه : هذا والله من فضل الله ورحمته ، فقال عمر : كذبت ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى : ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ فِي ذَلِكَ فَيَقْرَبُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨])) ، وهنا يقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه درساً للأمة بأن الفضل والرحمة في اتباع مقاصد القرآن ومنهجه، وليس في المال والثراء والأرزاق المادية ^(٣) .

(١). ينظر : تفسير المنار : ١١/٣٣٨-٣٤١، والتحرير والتتوير : ١١ / ٢٠٠ .

(٢). نقل عن : في ظلال القرآن : ٣/١٧٩٩ .

(٣). ينظر : في ظلال القرآن : ٣/١٨٠٠ .

ثم يشير السياق إلى جانب من اجتراء المكذبين في الجاهلية على مقاصد القرآن الكريم، وتجاوزهم الحدود على الوحي الذي ينظم الحياة العملية فيما يحل لهم ويحرّم عليهم، فإذا بهم يحلون ويهربون كما يحلو لهم وحسبما تشهيه أهواهم، ضاربين بتشريعات الله عرض الحائط، وهم بذلك يفتررون على الله الكذب ﴿ قُلْ أَرَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ قِنْطَةً حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ مَا أَذِنَ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ قَنْتَرَوْتُ ۝ ۵۹ وَمَا ظَلَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝ ۶۰﴾ [يونس: ۵۹ - ۶۰].

ومن خلال تصحيح مفهوم التحليل والتحريم بأن مرجعهما إلى الله، يرمي القرآن الكريم إلى أهداف إصلاحية كبرى، وهي أن نكيف كلّ شيء في حياتنا لمقاصده، وأن نخضعها لموازينه ومقاييسه، حتى نسعد في الدارين، لا أن نتبع أهواءنا ونزواراتنا، ونساير الركب المادي حيث اتجه وسار .

ومن بين مقاصد الوحي الإصلاحية التي تتناولها هذا المقطع هي قضية اطلاع الله عَلَى شُؤون النَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ، بما في ذلك الاطلاع على حال الرَّسُولِ مَعَهُمْ فِي دُعُوتِهِ إِلَيْهِمْ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِمْ؛ لِكَيْ يَحْسِبُوا أَنفُسَهُمْ عَلَى تَقْصِيرِهِمْ فِي عِبَادَتِهِ وَذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ^(١)، يَقُولُ عَلَيْهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا نَتَوَلَّ مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفْيِضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِنْقَالٍ ذَرَقَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ ﴾ [يوس: ٦١] .

ثم يؤكد السياق على تطمين الرسول ﷺ وتسليته بسبب حزنه على تكذيب الكفار له وعنادهم وأقوالهم بأن لهم العزة ، مبيناً له أن العزة كلها له ﷺ ، لا أحد ينارعه فيها ، كيف لا وهو مالك ما في السموات والأرض ، وهو خالق الليل والنهار ، وجعل الليل للاستراحة والسكن (٢) ، ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعَرَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦٥ ﴾ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَرِيكَةٌ إِنَّ

(١). ينظر : تفسير المنار : ٣٤٩/١١ ، والتفسير الوسيط : ٩٨٥/٢ .

(٢) بنظر : التفسير الوسيط : ٩٨٩/٢

يَكُنْتُ إِلَّا لَفْلَنَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْيَلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ
وَالنَّهَارَ مُبْعِسِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٧﴾ [يونس: ٦٥ - ٦٧].

ويختتم هذا المقطع بعرض نموذج من أقوالهم الفاسدة ^(١)، وتصوراتهم العقدية الخاطئة في ذات الله؛ فقد ادعوا زوراً بهتاناً بدون دليل أن الله ولداً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ثم يأخذ السياق في تصحيف هذا التصور الخاطئ، ويفند مقولتهم وعقيدتهم الساذجة بأدلة كونية واضحة؛ أن من يملك ما في السموات والأرض ليس بحاجة إلى الولد، ثم يبين عاقبة افترائهم الكذب والتقول على الله في الدنيا والآخرة، ﴿ قَالُوا أَتَخَذُ اللَّهَ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْعَقِيقُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَنٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذَبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذَيْقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ [يونس: ٦٨ - ٧٠].

 المقطع الرابع : (قصص الأنبياء) ، من الآية (٧١) إلى الآية (١٠٣).

هذا المقطع ينطوي على مشاهد من قصص الأنبياء التي تتناسب والمقطع السابق في التأكيد على خصيصة من خصائص القرآن الكريم، وهي خصيصة الموعظة  **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ** [يونس: ٥٧] ؛ فقد وردت هذه القصص (قصة نوح، وقصة موسى وما بينهما من أنبياء عليهم السلام) بهدف وعظ ^(٢) المشركين الذين استكفوا عن الإيمان برسالة سيدنا محمد ﷺ، لكي ينظروا في تاريخ الأمم الماضية، ويأخذوا العبرة مما حل بها عندما ابتعدت عن منهج الله الذي فيه صلاح أمرها وفلاح شؤون حياتها، يقول ابن عاشور مبينا التناسب : ((انتقال من مقارعة المشركين بالحجج الساطعة على بطلان دينهم، وبالدلائل الواضحة على تفنيد أكاذيبهم وتكذيبهم وما تخل ذلك من الموعظة والوعيد بالعذاب العاجل والآجل والإرهاب، إلى التعريض لهم بذكر ما حل بالأمم المماثلة أحوالها لأحوالهم، استقصاء لطرائق الحجاج على أصحاب اللجاج)) ^(٣).

(١). ينظر : الأساس في التفسير : ٢٤٨٣/٥ .

(٢). ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٩٤ .

(٣). التحرير والتوير : ١١ / ٢٣٤ .

وهذا الهدف الوعظي واضح من التعقيبات الواردة في نهاية قصة نوح عليه السلام، قال عليه السلام :

﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِنْقَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ [يونس: ٧٣] ، يقول سيد قطب : ((لينظر من ينظر (عاقِبةُ الْمُنْذَرِينَ) المكذبين ولیتعظ من يتعظ بعاقبة المؤمنين الناجين))^(١).

وفي نهاية قصة موسى عليه السلام مع فرعون، يقول الله عليه السلام : **﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنَكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ إِيمَانًا وَإِنَّ كَيْفَيَّا مِنَ النَّاسِ عَنِ مَا يَرَبَّنَا لَغَفِيلُونَ ﴾** [يونس: ٩٢] ^(٢) ، يقول فخر الدين الرازي : ((فالا ظهر أنه تعالى لما ذكر قصة موسى وفرعون، وذكر حال عاقبة فرعون وختم ذلك بهذا الكلام وخاطب به محمدا عليه الصلاة والسلام فيكون ذلك زاجرا لأمنه عن الإعراض عن الدلائل، وباعثا لهم على التأمل فيها والاعتبار بها، فإن المقصود من ذكر هذه القصص حصول الاعتبار، كما قال تعالى : **﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولَئِكَ الْأَتَيْبَ﴾** [يوسف: ١١١])^(٣).

وهذا الهدف أكده من قبل قوله عليه السلام في بداية السورة، **﴿وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ تَجْزِي الْقَوْمُ الْمُجْرِمِينَ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَّيْفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾** [يونس: ١٣ - ١٤] .

المقطع المختتم : (التمسك بثوابت الوحي والدين رغم عواصف التشكيك) من الآية **﴿الْمُقْطَعُ الْمُخْتَمِ﴾** إلى الآية (١٠٩).

يأتي هذا المقطع المختتم ليخلص ثوابت الوحي في تناسب رائع وفريد مع مقاطع السورة السابقة التي تضمنت التصور الصحيح للعقيدة الإسلامية، وفي ذلك يقول محمد رشيد رضا : ((هذه الآيات الأربع والآياتان اللتان بعدها ختم للسورة بالنداء العام، في الدعوة إلى عقيدة الإسلام، أجملت أمرا ونهيا وخبرا في خاتمتها))^(٤)، وهو الذي أكده سيد قطب بقوله :

(١). في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٢ .

(٢). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٤٠٢ .

(٣). مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٦٤ .

(٤). تفسير المنار : ١١ / ٤١١ .

((هذه القواعد الرئيسية للعقيدة التي دار حولها سياق السورة كله، وسيقت القصص لإيضاحها، وضررت الأمثال لبيانها... ها هي ذي كلها تلخص في هذه الخاتمة))^(١) ،

يببدأ هذا المقطع بخطاب الرسول ﷺ بأن يعلن للناس بكل وضوح تسفيهًا لتشكك المشككين، بأنه صادع بإيمانه وتوحيده وعبادته الله رب العالمين، ﴿ قُلْ يَأْتِيهَا الْنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكُنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمْ وَأَمْرُتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠٤ ﴾ [يونس: ١٠٤] ، يقول الفخر الرازي مبينًا تتناسب هذه الآية بما قبلها : ((واعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات، أمر رسوله بإظهار دينه وبإظهار المباينة عن المشركين، لكي تزول الشكوك والشبهات في أمره))^(٢) .

ثم يتغير مجرى السياق من الخبر إلى الأمر بالاستقامة على الدين الحنيف الذي لا اعوجاج فيه، مخلصًا عبادته الله، مائلاً عن معتقدات المشركين وأعمالهم^(٣) . ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٠٥ ﴾ [يونس: ١٠٥] ، يقول سيد قطب : ((وهذا يتحول السياق من الحكاية إلى الأمر المباشر، كأن الرسول ﷺ يتلاوه في مشهد حاضر الجميع، وهذا أقوى وأعمق تأثيراً ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّهِ حَنِيفًا ١٠٥ ﴾ [يونس: ١٠٥] متوجهاً إليه خالصاً له، موقعاً عليه ﴿ وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٠٥ ﴾ [يونس: ١٠٥] زيادة في توكييد معنى الاستقامة للدين))^(٤) .

ثم يتحول السياق إلى النهي المباشر للتاكيد على إفراد الله النافع الضار بالعبادة والدعاء والاستعانة والتقرب إليه في قضاء الحاجات ، بدلاً من التعلق بمعبودات لا تنفع ولا تضر ، وإن فعلت ودعوت غير الله كنت من طغامة المشركين الظالمين أنفسهم، فميزان الله لا يحابي ، وعدله لا يلين^(٥) ، ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ إِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ ١٨٢٥ / ٣ . ﴾

(١). في ظلال القرآن : ١٨٢٥ / ٣ .

(٢). مفاتيح الغيب : ١٧٩ / ١٧ .

(٣). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٩٨ .

(٤). في ظلال القرآن : ١٨٢٥ / ٣ .

(٥). ينظر : في ظلال القرآن : ١٨٢٥ / ٣ .

﴿أَلَّا ظَلَمَنِ﴾ [١٦] وَإِنْ يَمْسِسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ [١٧] وَإِنْ تُرِدَكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [١٨] [يونس: ١٠٦ - ١٠٧] ، يقول محمد رشيد رضا عن تناسب الآية (١٠٧) بما قبلها : ((هذه الآية مؤكدة لما قبلها داحضة لشبهة الذين يدعون غير الله بأنهم طالما استفادوا من دعائهم والاستغاثة بهم فشفيت أمراضهم، وكتبوا أعداؤهم، وكشف الضر عنهم، وأسدي الخير إليهم، يقول تعالى لكل مخاطب بهذه الدعوة إلى توحيد الإسلام، بكلام الله وتبلغ محمد عليه أفضل الصلاة والسلام : ﴿وَإِنْ يَمْسِسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧]))^(١).

ثم تختتم السورة بالكلمة الجامعة، والمفاصلة الكاملة، بأن مهمة الرسول ﷺ تبيّن الحق وتبلغه كما جاء من ربكم، فمن تقبل هديه ففائدة هديه تعود عليه بالنفع في الدنيا والأخرى، ومن ضلَّ وأعرض عنه، فوبالضلالة يعود عليه^(٢)، ﴿فُلِّيَّاً يَأْتِيهَا أَنْتَاشُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلُلُ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨] ، يقول ابن عاشور في تناسب هذه الآية لكل ما ورد في السورة : ((استئناف ابتدائي هو كذيل لما مضى في السورة كلها وحصلة لما جرى من الاستدلال والجادلة والتخويف والترغيب، ولذلك جاء ما في هذه الجملة كلامًا جامعًا ومودعة قاطعة .))^(٣).

ثم يكون تكملة البلاغ الأخير بأمر الرسول ﷺ باتباع الوحي علمًا وعملاً وتعليمًا^(٤)، والصبر على ما يلقاه من العنت والأذى حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين^(٥)، وهنا يرتدُ العجز على الصدر في التحام تمامًا وقوياً بالمقطع الأول، موضحاً مقصود السورة الذي يتمحور حول إثبات الوحي وثوابته، ومؤكداً في الوقت نفسه على مدى التماسك النصي داخل السورة بين كل مقطع ومقطع آخر مما جعل النَّصَّ يبدو وكأنه قطعة فنية بيانية منقطعة النظير في وحدتها الموضوعية، يقول سيد قطب : ((وهو الختام المناسب الذي

(١). تفسير المنار : ١١ / ٤١٣ .

(٢). ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٥٢٠ .

(٣). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٤١٥ .

(٤). البحر المحيط : ٥ / ١٩٧ .

يلتقي مع مطلع السورة، ويتناقض مع محتوياتها بجملتها على طريقة القرآن في التصوير والتنسيق ..)^(١).

▣ تناسب الآية مع ما قبلها :

يعدُّ تناسب الآية مع ما قبلها أساساً مهمّاً في تماسك النَّصِّ القرآنيّ، بحيث تبدو فيه الآي متربطة بعضها ببعض، والآيات مُتّسقة، وكأنها كلمة واحدة، لوجود رابط أو أكثر يربطها بعضها^(٢)، وقد يكون هذا الارتباط ظاهراً أو خفيّاً، قال السيوطي :)) وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، فنقول ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكون ظاهر الارتباط لتعلق الكلم بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح ... وإما ألا يظهر الارتباط بل يظهر أنَّ كلَّ جملة مستقلة عن الأخرى وأنَّها خلاف النوع المبدوء به))^(٣).

وهذا النوع من التناسب كثير في القرآن الكريم، اعنى به المفسرون في تفاسيرهم، قال ابن عاشور :)) وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضاً ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزع جليل))^(٤).

وسأضرب أمثلة على هذا النوع من التناسب مما لم أتوسع في بيان مناسبته عند الحديث عن التناسب بين مقاطع السورة الكريمة، وهي كالتالي :

١. نجد مناسبة بين الآيتين في قوله ﷺ : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْرَغَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِعَايَتِهِ إِنَّهُ لَا يُقْلِعُ الْمُجْرِمُونَ ⑯ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَصْرِفُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَذُلَّاءِ شُفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ⑰﴾ [يونس: ١٧ - ١٨] ، فبعدما قررت الآية

(١). في ظلال القرآن : ٣ / ١٨٢٦ .

(٢). ينظر : البيان في الإعجاز والتناسب في القرآن الكريم : ٣٠٩ .

(٣). الإتقان في علوم القرآن : ٥ / ١٨٤٠ .

(٤). التحرير والتنوير : ١ / ٨ .

الأولى أن أشد أنواع الظلم والإجرام البشري شيئاً أحدهما : الافتاء على الله كذباً، والآخر : التكذيب بآيات الله ^(١)، ففت عليه الآية الثانية بذكر نوع من أنواع الافتاء، وهو عبادة ما لا يضر ولا ينفع من دون الله، يقول ابن عاشور موضحاً ما بينهما من التناصب : ((يجوز أن تكون جملة : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨] إلخ عطفاً على جملة ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [يونس: ١٧] فإن عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الافتاء ^(٢)).

٢. وحينما أشار الله تعالى إلى ما كان عليه الكفار في مكة المكرمة من الشرك وعبادة ما لا يملك لهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضرراً، مدعين زوراً وبهتاناً أن آلهتهم وأصنامهم شفعاء وسطاء لهم عند الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً **﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَعْرِشُهُمْ وَلَا يَنْقُعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاءُنَا إِنَّ اللَّهَ قُلْ أَتُنَبِّئُكُمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَنِ اسْتِرْكُونَ ﴾** [يونس: ١٨]، جاءت الآية الثانية لتعقب فساد مذهب هؤلاء المشركين الذي هو خلاف المذهب السائد بين العرب قديماً في اتفاقهم على التوحيد الخالص لله تعالى، **﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةٌ وَجِدَةٌ فَاتَّخَذُوكُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضَى بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾** [يونس: ١٩]، ولأجل أن يؤكّد ذلك جيء بأسلوب القصر **﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةٌ وَجِدَةٌ ﴾** للبالغة على أن هذه الحقيقة ضاربة في أعماق التاريخ ^(٣)، يقول الألوسي في بيان التناصب بين الآيتين : ((ووجه ارتباط الآية بما قبلها أنها كالتأكيد لما أشار إليه من أن التوحيد هو الدين الحق حيث أفادت أنه ملة قديمة اجتمعت عليها الأمم قاطبة، وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها العواة خلافاً للجمهور وشققاً لعصا الجماعة، وقيل : وجه ذلك أنه سبحانه بين فيما قبل فساد القوم بعبادة

(١). تفسير المنار : ١١ / ٢٧٦ .

(٢). التحرير والتوير : ١١ / ١٢٥ .

(٣). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ١٢٧ .

الأصنام وبين في هذه أن هذا المذهب ليس مذهبًا للعرب من أول الأمر بل كانوا على الدين الحقّ الخالي عن عبادة الأصنام، وإنما حدثت فيهم عبادتها بتسويل الشياطين))^(١).

٣. حينما يقف المشركون وشركاؤهم على أرض المحشر موقف الخزي والعار، يدور بينهم حوار حادٌ، يتداولون فيه النّهم، فالشركاء يتبرؤون من عبادة المشركين لهم، ﴿وَيَوْمَ تَحْشِرُهُمْ جَمِيعًا مِّمَّا نَفَولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشَرِكَاوْمُ فَرِيلَنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شَرِكَاوْهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ [يونس: ٢٨] ، حتى يُفضي بهم النزاعُ فيما بينهم إلى أن يؤكّد الشركاء كلامهم بالقسم لنفي التّهمة عنهم بأنّا لا ندرّي شيئاً عن عبادتكم لنا، ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بِيَنَّا وَيَنَّكُمْ إِنْ كُنَّا عَنِ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ [يونس: ٢٩] ، وتمّ الربط بين الآيتين بواسطة الفاء، وفي ذلك يقول ابن عاشور : ((وجملة : ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [يونس: ٢٩] مؤكدة بالقسم ليثبتوا البراءة مما أطلق عليهم، وجواب القسم ﴿إِنْ كُنَّا عَنِ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ [يونس: ٢٩] ، وليس قولهم: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [يونس: ٢٩] قسماً على كلامهم المتقدّم لأن شأن القسم أن يكون في صدر الجملة، وعطفت جملة القسم بالفاء للدلالة على أن القسم متفرع على الكلام المتقدّم؛ لأن إخبارهم بنفي أن يكونوا يعبدونهم خبر غريب مخالف لما هو مشاهد فناسب أن يفرّع عليه ما يتحققه ويبينه مع تأكيد ذلك بالقسم))^(٢).

٤. وحينما نأتي إلى قوله ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَعْلَمُ الْسَّمَعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسِيقُولُونَ اللَّهُ فَقْلَ أَفَلَا نَنَقُونَ ﴾ [يونس: ٣١] نجده متناسباً مع الآية التي قبلها ﴿هُنَّا لَكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَظَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٣٠] ، مركز التّناسب بين الآيتين في ﴿مَوْلَاهُمُ﴾ [يونس: ٣٠] ، فالمولى في المعجمات اللغوية تأتي بمعنى : ((المولى الولي الذي يليه أمرك)) و ((الرب والمالك والسيد والمنعم))^(٣).

(١). روح المعاني : ١١ / ٩٠، وينظر : نظم الدرر : ٩ / ٩٣-٩٢، والتحرير والتّویر : ١٢٨ / ١١ .

(٢). التّحرير والتّویر : ١١ / ١٥٢ .

(٣). لسان العرب : ٦ / ٤٩٢١ - ٤٩٢٢ (ولي) .

ففي ساحة المحشر حيث الحساب والجزاء، الكل يرد إلى ربه وسиде ومولاه الحق، وهكذا حال المشركين في ذلك الموقف العصيب الذي تخلى فيه العبودات والأصنام عن من عبدها^(١)، فلم يبق لهم إلا مولاهم الحق ﷺ، وحينئذ لا مفر لهم من الإقرار له بالريوبية الخالصة له بعدهما أنكروا ذلك في الدنيا بعبادتهم هذه العبودات من دونه ﴿وَرَدُوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠]، يقول فخر الدين الرازي : ((وردوا إلى الله أى : جعلوا مجئين إلى الإقرار بإلهيته، بعد أن كانوا في الدنيا يعبدون غير الله تعالى، ولذلك قال : ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ﴾ أعني أعرضوا عن المولى الباطل ورجعوا إلى المولى الحق))^(٢)، وفي هذا تعريض للمشركين حتى يربووا بأنفسهم أن يقفوا هذا الموقف يوم القيمة، لات ساعة مندم، تأتي الآية التي بعدها في غاية التناسب للاستدلال على استحقاق مولاهم العبودية والريوبية، من خلال الحوار معهم، ينتهي بالاعتراف بالله ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمَعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيَّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نَنَقُولُ﴾ [٣١] [يونس: ٣١]، يقول ابن عاشور : ((وهذه الجملة تنزل منزلة الاستدلال لقوله: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ﴾ [يونس: ٣٠] ، لأنها برهان على أنه المستحق للولاية، فاحتاج على ذلك بموهاب الرزق الذي به قوام الحياة، وبموهبة الحواس، وبنظام التناسل والتوالد الذي به بقاء الأنواع، وبدبيir نظام العالم وتقدير المقدرات، فهذه كلها موهاب من الله وهم كانوا يعلمون أن جميع ما ذكر لا يفعله إلا الله إذ لم يكونوا ينسبون إلى أصنامهم هذه الأمور، فلا جرم أن كان المختص بها هو مستحق الولاية والإلهية .

(١). بدليل الآيتين اللتين قبلها : ﴿وَيَوْمَ تَحْسِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشَرَكُوكُمْ فِي نَارِنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شَرَكُوكُمْ مَا كُنُتمْ إِيمَانًا تَعْبُدُونَ﴾ [٤٢] فَكَنَّ إِلَهًا شَرِيدًا يَنْسَأُ وَيَنْتَكُمْ إِنْ كُنُّا عَنِ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [٤٣] [يونس: ٢٨ - ٢٩].

(٢). مفاتيح الغيب : ١٧ : ٨٩ - ٩٠ .

والاستفهام تقديرٌ، وجاء الاستدلال بطريق الاستفهام والجواب لأن ذلك في صورة الحوار، فيكون الدليل الحاصل به أوقع في نفوس السامعين، ولذلك كان من طرق التعليم مما يراد رسوخه من القواعد العلمية أن يؤتى به في صورة السؤال والجواب^(١).

٥. بعدهما أدار السياق حواراً مع المشركين لإثبات قدرة الله على الإيجاد والخلق والإيمانة والهداية، كما في قوله ﷺ : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَقُلْ اللَّهُ يَكْبَدُهَا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَإِنَّ تُوفِّكُونَ ﴾^{٣٤} ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يَتَبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَمَا لِكُرْكِيفَ تَحْكُمُونَ ﴾^{٣٥} ﴿ وَمَا يَشَعُّ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنَّا إِنَّ الْقُلْقَلَ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلَيْمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾^{٣٦} [يونس: ٣٤ - ٣٦] ، انتقل بهم إلى نفي شبهة عن القرآن الكريم بأسلوب بلieve، مما كان مستشارياً في أوساطهم، أن محمداً يفترى القرآن، وينسبه إلى الله ﷺ، ولا سيما أنهم كانوا يتعجبون من الإيحاء بالقرآن إلى الرسول ﷺ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْنَا رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الظَّالِمِينَ أَمْنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَّمَ صَدِيقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّكَ هَذَا السَّاحِرُ مُهِينٌ ﴾^{٣٧} [يونس: ٢] ، وبلاهة هذا الأسلوب تكمن في أن النفي في الآية متوجه إلى الشأن، وليس متوجهاً إلى المصدر المؤول ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُورِنَ اللَّهِ ﴾^{٣٨} [يونس: ٣٧] ، وبهذا يدل على أن هذا القرآن ما كان شأنه أن يفترى، وليس من شأنه أصلاً أن يفترى؛ لأنه قرآن معجز فوق قدرة البشر^(٢)، يقول الزمخشري في إيضاح معنى هذا التركيب : ((ومعنى ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَى ﴾ : وما صحيحاً وما استقام، وكان محالاً أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى))^(٣) ، ثم تتسلسل الآية في بيان صفاتها، من كونه مصدقاً كل الكتب السماوية التي قبله في أصول العقيدة، والدعوة إلى الخير، ومفصلاً لكتاب الواحد الذي جاء به الرسل جميعاً، لتأكيد ذلك الدفع والنفي البليغ لشبهة الافتراض عن القرآن الكريم، وأن الرسول عاجز كل العجز عن فعل ذلك ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَقْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^{٣٩} [يونس: ٣٧] ، ثم تأتي الآية اللاحقة

(١). التحرير والتنوير : ١١ / ١٥٥ .

(٢). مفاتيح الغيب: ١٧ / ٩٩ .

(٣). الكشاف : ٣ / ١٣٧ .

لتطرح سؤالاً استكارياً ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْرَيْهُ مُتَّقِلِّهُ قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلَهُ وَادْعُوا مِنْ أَسْتَطْعَتُمْ مِنْ دُونَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِنَ﴾ [يونس: ٣٨]؛ أيقولون افتراء بعد كلّ هذه الدلائل على براعته ﷺ من الافتراء؟، ليشتمّر السامع وينفر القارئ من مقالة المشركين المشككة في هذا الكتاب العزيز، وتسقط التهمة تماماً عن الرسول ﷺ، يقول ابن عاشور: ((وَمِنْ بَدِيعِ الْأَسْلوبِ وَبِلِيفِ الْكَلَامِ أَنْ قَدْ وَصَفَ الْقُرْآنَ بِمَا يَقْتَضِي بَعْدَهُ عَنِ الْأَفْرَاءِ وَبِمَا فِيهِ مِنْ أَجْلِ صَفَاتِ الْكِتَابِ، وَبِتَشْرِيفِ نَسْبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِالْاسْتِفَاهَمِ عَنِ دُعَوَى الْمُشَرِّكِينَ افْتَرَاءً لِيَتَلَقَّى السَّامِعُ هَذِهِ الدُّعَوَى بِمَزِيدِ الْأَشْمَيْزَارِ وَالْتَّعْجَبِ مِنْ حِمَاكَةِ أَصْحَابِهَا فَلَذِكَ جَعَلَتْ دُعَوَاهُمْ افْتَرَاءً فِي حِيزِ الْاسْتِفَاهَمِ الإِنْكَارِيِّ التَّعْجِيبِيِّ))^(١).

٦. وَثِمَةٌ بَيْنَ قَوْلِهِ ﷺ : ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَأَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرَوْا النَّدَاءَمَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضُوا بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤ - ٥٥]، مناسبة واضحة، فالنفس الظالمة تحاول أن تفتدي نفسها بكلّ ما في الأرض من خزان نفيسة وممتلكات عظيمة أو كانت تملك ذلك عند معاينة العذاب، ولكن أتى لها ذلك، فالله غنيٌّ عن فديتها؛ لأنّه يملك كلّ ما في السموات والأرض، قال فخر الدين الرازي : ((اعلم أن من الناس من قال إن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه تعالى قال قبل هذه الآية : ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَأَفْتَدَتْ بِهِ﴾ [يونس: ٥٤]، فلا جرم قال في هذه الآية ليس للظالم شيء يفتدي به فإن كل الأشياء ملك الله تعالى وملكه، واعلم أن هذا التوجيه حسن))^(٢).

٧. ونلحظ في قوله ﷺ : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكَرِّهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] تتناسبًا مع الآية ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَا كَانَ لِرَجُلٍ أَنْ يَجْعَلِ الْرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]، ويتمحور التناصب في أن الجملة ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ معطوفة على جملة ﴿أَفَأَنْتَ تُكَرِّهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فالجملة المعطوفة عليها مصدراً بالاستفهام للدلالة على

(١). التحرير والتورير : ١١ / ١٧٠ .

(٢). مفاتيح الغيب : ١١٨ / ١٧، وينظر : درة التنزيل : ٢ / ٧٤٣ - ٧٤٤، وفتح القدير : ٢ / ٦٣٥ .

الإنكار على الرسول ﷺ ونفيه عن إكراه الناس على أن يكونوا مؤمنين، وذلك دليل حرصه على إيمانهم، أما الجملة المعطوفة فهي تتماهى دلاليًا مع الجملة المعطوفة عليها، ومن ثم يتأكد المعنى أنه ليس بمقدور الرسول ﷺ أن يجبر أحدًا على الإيمان؛ إذ ذلك من اختصاص الله ﷺ وحده، وليس من وظائف رسالته، يقول ابن عاشور : ((عطف على جملة : ﴿ أَفَأَنْتَ تُكَرِّهُ النَّاسَ ﴾ [يونس: ٩٩] لتقدير مضمونها؛ لأن مضمونها إنكار أن يقدر النبي ﷺ على إلقاء الناس إلى الإيمان لأن الله هو الذي يقدر على ذلك))^(١)، ويحتمل أن تكون الواو التي صدرت بها الآية الثانية حالية، فيكون المعنى كيف تكره الناس على الإيمان، والحال أنه لا يمكن أن تؤمن نفس إلا بإذن الله، وبهذا يتبيّن لنا أن التناسب بين الآيتين تم بواسطة الواو الحالية.

تناسب الآية الواحدة من حيث تناسب صدرها مع خاتمتها

من وجوه التناسب في النص القرآني ما يكون من تلاحم وترابط داخل الآية الواحدة بين صدر الآية وخاتمتها، وروعه هذا النوع من التناسب تكمن في أن الخاتمة أو التعقيبة^(٢) تحمل معنىًّا جديداً لما استعرضته الآية من معانٍ، فتزداد الآية وضوحاً، وبياناً أو تتضمن إشارة مضيئة إلى مركز التقليل في الآية، فتزداد إفهاماً، ويتأكد المعنى ويقوى^(٣)، يقول أبو زيد عن أسرار التعقيبات : بأنها ((تجمع بين وظائف معنوية لكونها تزيد معاني الآيات بياناً وإيضاحاً))^(٤).

ومن جمال هذا التناسب والتتساق أن يُرى في صدر الآية خاتمتها، فيتبّأ مَنْ رُزِقَ الفهم القرآني العميق بما ستكون عليه الخاتمة من تركيب، ومن ذلك ما يحكى عن الأصماعي أنه ((قال : كنت أقرأ السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم ، وبجنبي أعرابيٌّ ، فقال: كلام مَنْ هذا ؟ فقلت كلام الله قال : أَعِذْ ، فأعدت ،

(١). التحرير والتووير : ١١ / ٢٩٤ .

(٢). التعقيبة أو التعقيب : هو ذلك الجزء أو المقطع الذي يأتي في خاتمتها، تذليل به الآية زيادة في البيان، ومحافظة على وحدة الإيقاع. (التنااسب البياني في القرآن : ٩١) .

(٣). ينظر: الفاصلة في القرآن : ٢٧ .

(٤). التنااسب البياني في القرآن ٩١ .

قال: ليس هذا كلام الله فانتبهت فقرأت ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَكِيمٌ﴾، فقال أصبت هذا كلام الله فقلت : أتقرأ القرآن ؟ قال : لا ، فقلت : فمن أين علمت ؟ فقال : يا هذا عَزَّ حكم فقط ، فلو غفر ورحم لما قطع)١(.

والتعقيبات التي تذيل بها كثير من الآيات في السور الطوّال تأخذ غالباً ثلاثة أشكال ، كما أوردها الباحث أحمد أبو زيد)٢(، وهي على النحو الآتي :

١. يؤكد التعقيب صفة أو صفتين من صفات الله ﷺ على وفق ما يتطلبه مضمون الآية ، كقوله ﷺ : ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ فَوْلَاهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ أَسْمَاعُ الْعَلِيمُ﴾ [٦٧] يومن : ٦٥] ، قوله : ﴿وَإِنْ يَمْسِكَ اللَّهُ بِضُرِّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدَكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَأْدَ لِفَضْلِهِ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْغَفُورُ الْرَّحِيمُ﴾ [١٧] [يومن : ١٠٧] .

٢. يرد التعقيب لزيادة البيان بتعليق المعنى أو الحكم الذي تضمنته الآية أو بتأكيده أو تقريره ، كما في قوله ﷺ : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَبَ بِعَايَتِهِ إِنَّمَا لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [١٧] [يومن : ١٧] ، قوله : ﴿فَلَمَّا آتَقْوَا قَالَ مُوسَى مَا جَنَثَمْ بِهِ الْسِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْعَلِهُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٨١] [يومن : ٨١] .

٣. يأتي التعقيب تتبيناً أو تذكيراً أو وعداً أو وعداً ، كما في قوله ﷺ : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَيَّلَ لِنَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيْنَ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [٦٧] [يومن : ٦٧] ، قوله : ﴿وَإِذَا أَذْقَنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتُهُمْ إِذَا أَهْمَمْ مَكْرُّرًا فِي إِيَّائِنَا قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرُّرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْنِبُونَ مَا تَنَكِرُونَ﴾ [٦٩] [يومن : ٢١] .

وسورة يومن ملائى بهذا النوع من التناسب ، وسأعرض بعض الأمثلة فيما يأتي :

ففي قوله ﷺ : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُمْ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ الْسَّيْنِينَ وَالْحِسَابَ مَا حَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفْصِلُ الْأَيَّنَتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [٥] [يومن : ٥] ، يتناسب التعقيب في الآية الكريمة مع صدرها تماماً ، فقد وردت هذه الآية في سياق تعداد

(١). الكشكول : ٢ / ١١٢ .

(٢). التناسب البياني في القرآن : ٩٩ .

الأدلة على استحقاق الله الربوبية والألوهية، والأدلة على قدرته على البعث والنشور، مفصلة ما أجمل في الآية (٣) من خلق السموات والأرض، وتدبير أمور هذا الكون، وذلك بأن الله هو المفرد المدبر الذي جعل الشمس مصدراً لضياء الكون في النهار، والقمر نوراً لتبديد الظلمات في الليل، ثم فصلت منافعهما في معرفة حساب الأوقات والأزمان لضبط العبادات والمعاملات الدينية، والمالية والمدنية^(١)، فلا غرو أن تختتم الآية بعد ذلك كله بـ ﴿يُنَفِّذُ
الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ولما كانت هذه الأمور التفصيلية تحتاج إلى علم ودراسة، خص بها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، و(العلم) في اللغة : ((العين واللام والميم أصل صحيح واحد، يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره))^(٢)، فإذا خص هؤلاء لأنهم يتميزون عن غيرهم بمعرفة كُنه منافع الشمس والقمر، وهو الذي يؤكده أبو حيان بقوله : ((وخص من يعلم بتفصيل الآيات لهم، لأنهم الذين ينتفعون بتفصيل الآيات، ويتذرون بها في الاستدلال والنظر الصحيح، والآيات العلامات الدالة أو آيات القرآن))^(٣).

وفي قوله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَبَ إِعْيَانَتِهِ إِنَّهُ لَا يُقْلِعُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧] ، يتركز تناسب صدر الآية مع خاتمتها، بين قوله : ﴿أَظْلَمُ﴾ و﴿الْمُجْرِمُونَ﴾، أما : ﴿أَظْلَمُ﴾ فمشتق من الجذر (ظلم) الذي يدل على (التعدي ووضع الشيء في غير موضعه)، يقول ابن فارس : ((الظاء واللام والميم أصلان صحيحان، أحدهما خلاف الضياء والنور، والآخر وضع الشيء غير موضعه تعدياً))^(٤)، فجعل أي شيء في غير موضعه يُعد ظلماً وتعدياً، يقال : ((ظلمت الأرض : حفرتها ولم تكن موضعاً للحفر، وتلك الأرض يقال لها : المظلومة، والتربة الذي يخرج منها: ظليم))^(٥)، فقد جاءت هذه الآية في معرض الرد على المشركين حين طلبوا من الرسول ﷺ الإتيان بقرآن غير هذا القرآن أو تبليه، لتبيين وتقرر أن أشد الظلم البشري هو

(١). تفسير المنار : ١١ / ٢٦١ .

(٢). مقاييس اللغة : ٤ / ١٠٩ ، (علم) .

(٣). البحر المحيط : ٥ / ١٣٠ - ١٣١ .

(٤). مقاييس اللغة : ٣ / ٤٦٨ ، (ظلم) .

(٥). المفردات في غريب القرآن : ٢ / ٤١١ ، (ظلم) .

الاعتداء على القرآن الكريم بالافتراء والتكذيب وجعله في موضع التشكيك، بل هو اعتداء على الله تعالى الذي أنزل هذا القرآن الكريم، يقول ابن عاشور : ((والظلم : هنا بمعنى الاعتداء، وإنما كان أحد الأمرين أشدّ الظلم لأنّه اعتداء على الخالق بالكذب عليه وبتكذيب آياته))^(١)، ولاسيما أن الاستفهام هنا إنكارٌ يحمل دلالة النفي.

وأما **﴿المُجْرِمُونَ﴾** فمشتق من الجذر (جرم) الدال على (الذنب و التّعدي)، يقول الجوهرى : ((الجُرمُ) : الذَّنْبُ، و (الجَرِيمَةُ) مثله، تقول منه : (جَرَمَ، وَاجْرَمَ، واجْتَرَمَ)^(٢)، ودائماً ما يقترن هذا الفعل بالشيء السيء المكره، يقول الراغب الأصفهانى : ((واستعير ذلك لكل اكتساب مكره، ولا يكاد يقال في عامّة كلامهم للكيس المحمود))^(٣)، كما أنه لا يبعد عن دلالة التّعدي، يقول ابن منظور : ((و(الجُرمُ) : التّعدي، و(الجُرمُ) : الذَّنْبُ، وَالْجَمْعُ (أَجْرَامٌ وَجُرُومٌ)، وَهُوَ (الجَرِيمَةُ)، وقد (جَرَمَ يَجْرِمُ جَرْمًا واجْتَرَمَ واجْرَمَ)، فَهُوَ (مُجْرِمٌ وَجَرِيمٌ)))^(٤).

بعد كلّ هذا التحرير اللغوي يتضح التلاحم الدلالي بين لفظتي **﴿أَظْلَمُ﴾** و **﴿الْمُجْرِمُونَ﴾** في معنى (التّعدي) إلى جانب الدلالات الأخرى التي كانت سبباً في تعاون خاتمة الآية بصدرها؛ فهو لاء المجرمون المذنبون لا مثيل لهم في الظلم، ولا هم يفلحون ولا يفوزون بمطلوبهم الذي يتولّون إليه بالكذب والزور^(٥)؛ لأنّهم ارتكبوا أشدّ ظلم وأعظم جرم في الوجود باعتدائهم السافر على الله تعالى وعلى كتابه العزيز افتراءً وتكذيباً، فإن التعقيب هنا يفيد توكييد صدر الآية، يقول فخر الدين الرازي : ((وأما قوله : إنه لا يفلح المجرمون فهو تأكيد لما سبق من هذين الكلامين، والله أعلم))^(٦).

(١). التحرير والتتوير : ١١ / ١٢٤ .

(٢). الصحاح : ٥ / ١٨٨٥ ، (جرم) .

(٣). المفردات في غريب القرآن : ١ / ١١٨ ، (جرم) .

(٤). لسان العرب : ١ / ٦٠٤ ، (جرم) .

(٥). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٧٦ .

(٦). مفاتيح الغيب : ١٧ / ٦٢ .

ونجد تناسباً بين صدر الآية وختمتها في قوله ﷺ : ﴿إِنَّمَا مَثُلَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَّا
أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْنَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَمُ حَتَّى إِذَا أَخْدَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَزْيَّنَتْ
وَظَرَّ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوكُنْ عَلَيْهَا أَتَهُمْ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ هَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَفْنِ بِالْأَمْسِ
كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكُرُونَ﴾ [يوس: ٢٤] ، فهذه الآية قد وردت عقب بيان أن
الفساد في الأرض بسبب الاغترار بمتاع الحياة الدنيا ﴿فَلَمَّا أَجْنَبْتُمُّ إِذَا هُمْ يَعْمَلُونَ فِي الْأَرْضِ يُغَيِّرُ
الْحَقَّ يَنْأِيَهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمُّ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرِجِعُكُمْ فَنُنَتِّعُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ [يوس: ٢٣] ، ومن ثم جاءت هذه الآية لتفصل حقيقة هذا المتاع^(١)
بضرب مثل عن الحياة الدنيا في زينتها ونعمتها وسرعة تصرمها لأجل التغير منها وعدم
الوقوع في حبائلها التي تلهي عن الاستعداد للأخرة بالإيمان والعمل الصالح، ثم ختمت الآية
بأن ما استعرضته الآية من تفصيل، يستعان به في تفصيل الآيات القرآنية في التوحيد
والتشريع وال عبر والمواعظ وكل ما فيه صلاح الناس^(٢)، التي لا ينتفع بها إلا القوم الذين
يعملون فكرهم وعقولهم، يقول الألوسي في ذلك : ((كَذَلِكَ) أي : مثل ذلك التفصيل
البعيد ﴿نُفَصِّلُ الْآيَتِ﴾ أي : القرآنية التي من جملتها هذه الآية الجليلة الشأن المنبهة على
أحوال الحياة الدنيا أي : نوضحها ونبينها ﴿لِقَوْمٍ يَنْفَكُرُونَ﴾ في معانيها ويقفون على
حقائقها، وتخصيصهم بالذكر لأنهم المنتفعون))^(٣)، وزاد ابن عاشور في بيان علاقة خاتمة
الآية بصدرها قائلاً : ((وجملة : ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَتِ﴾ إلى آخرها تذليل جامع، أي :
مثل هذا التفصيل نفصل أي : نبين الدلالات كلها الدالة على عموم العلم والقدرة وإنقاذ
الصنع))^(٤).

وفي قوله ﷺ : ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
فَأَنَّ مُؤْفَكُونَ﴾ [يوس: ٣٤] ، يتجلّى تناسب صدر الآية مع خاتمتها في دلالة الفعل

(١). ينظر : التحرير والتتوير : ١١ / ١٤١ .

(٢). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٩٧ .

(٣). روح المعاني : ١١ / ١٠٢ .

(٤). التحرير والتتوير : ١١ / ١٤٤ .

تُفَكِّرُونَ المشتق من الجذر (**أَفِكَ**) الدال على : (الكذب المتعَمَّد وصرف الشيء عن وجهته) ، يقول ابن فارس : ((الهمزة والفاء والكاف أصل واحد، يدلُّ على قلب الشيء وصرْفه عن جهته . يقال : **(أَفِكَ الشَّيْءُ)** ، و **(أَفِكَ الرَّجُلُ)** ، إذا كَذَب ، و **(إِلْفَكُ)** الكذب ، و **(أَفَكُثُ الرَّجُلُ** عن الشيء) ، إذا صرفته عنه ، قال الله تعالى : **﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِتَأْفِكَانَا عَنِ الْهَمَّةِنَا﴾** [الأحقاف: ٢٢] ^(١) . وهذه الآية تجيء في معرض الاحتاج على المشركين أنَّ أصنامهم مسلوبة من أي شيء من صفات الكمال والألوهية التي يتصرف بها الله مثل انفراده بـ**بِرْكَةِ الرَّزْقِ** ، وـ**خَلْقِ الْحَوَاسِ** ، وـ**خَلْقِ الْأَجْنَاسِ** ، وـ**تَدْبِيرِ الْأَمْرِ** ، على خلاف ما يدعوه هؤلاء المشركون الذين يكذبون بقصد وإصرار بأنها آلهة تستحق العبادة ^(٢) **﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمَاءَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمَنْ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَنْقَوْنَ﴾** [يوس: ٣١] ^(٣) ، تأتي هذه الآية لتستمل هذا الاحتاج بطرح قضية بدء الخلق وإعادته عليهم على سبيل الاستفهام الإنكاريّ ، مع أنها قضية واضحة في غاية الوضوح بأن الله وحده هو المنفرد بذلك؛ لأن السؤال في مثل هذه السياقات له تأثيره ووقعه على قلوبهم ، فما كان من هؤلاء إلا أنهم مع وضوح الحقيقة ازدادوا تعنتاً وتکبراً وعناداً وإنكاراً للبعث والنشور ، فلم يجيئوا ولم يقرروا بالحقيقة بل صمتوا ، وصمتهم هذا ليس لأن آهتهم لها القدرة على فعل ذلك ، ولكنه بهدف الانصراف عن سماع صوت الحق ، وقلب الحقائق الساطعة عن وجهتها ، وأمام هذا التهرب عن الإذعان لهذه الحقيقة يلقن الرسول ﷺ **الجواب** **﴿قُلْ اللَّهُ يَكْبِدُ الْخَلَقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾** تأكيداً ^(٤) على سطوع هذه الحقيقة ، يقول الشوكاني في ذلك : ((وهذا القول الذى قاله النبي ﷺ عن أمر الله سبحانه له هو نيابة عن المشركين في الجواب إما لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح إلى غاية لا يحتاج معها إلى إقرار الخصم ومعرفة ما لديه ، وإما لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصواب في هذا

(١). مقاييس اللغة : ١ / ١١٨ ، **(أَفِكَ)** .

(٢). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ١٦٠ - ١٦١ .

(٣). ينظر : الباب في علوم الكتاب : ١٠ / ٣٢٣ .

الجواب فراراً منهم عن أن تلزمهم الحجة أو يسجل عليهم بالعناد والمكابرة إن حادوا عن الحق))^(١).

وهنا تبرز مناسبة خاتمة الآية مع صدرها من خلال أداة الاستفهام ﴿فَإِنْ﴾ الدالة على مكان مجازي شبهت به الحقائق في رسوخها وثباتها^(٢)، ومن ثم يتجسد لنا مشهد المشركين العجيب، وهم يحاولون الانصراف إلى باطلهم وإفكهم من كل حدب وصوب عن هذه الحقائق الساطعة بعدهما أثبتت فساد رأيهم في الاعتقاد، وكأن الآية تصرخ في وجوههم، وتقرع أسماعهم ﴿فَإِنْ تُوقَنُوا﴾، إلى أين تصرفون وتكلمون ، يقول الفخر الرازى : ((المراد التعجب منهم في الذهاب عن هذا الأمر الواضح الذي دعاهم الهوى والتقليد أو الشبهة الضعيفة إلى مخالفته، لأن الإخبار عن كون الأوثان آلهة كذب وإفك، والاشغال بعبادتها مع أنها لا تستحق هذه العبادة يشبه الإفك))^(٣).

(١). فتح القدير : ٦٢٣ / ٢ .

(٢). ينظر : التحرير والتوير : ١٦١ / ١١ .

(٣). مفاتيح الغيب : ٩٣ / ١٧ .

المبحث الثاني

التناسب القصصي

❖ أهمية القصص القرآني

يمثل القصص ركيزة مهمة من ركائز النظام القرآني، فهي تشدّ من عضد التناسب الموضوعي في السور القرآنية وتحقق مقاصدها؛ لما لها من قدرة فائقة على تجسيد الأحداث بريشة التصوير المبدعة، فضلاً عن ذلك تمعتها برونق الأسلوب وبديع النظم وجمال الصورة، فلا غرو إذن أن يتناولها الباحثون بالدرس والنقاش.

فـ (القصص) في اللغة : التَّتْبُعُ والتَّسَاوِي ، قال ابن فارس : ((الكاف والمصاد أصلٌ صحيح يدلُّ على تتبع الشَّيْءِ . من ذلك قولهم : اقتصَنْتُ الْأَثَرَ، إِذَا تَتَبَعَهُ))^(١)، ومنه قوله ﷺ : ﴿وَقَاتَلَ لِأَخْتِهِ فُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] ، ومنه قوله ﷺ : ﴿فَازْتَدَأَعَلَىٰ أَثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] ، ويزيد ابن فارس معنى آخر إلى هذا الجذر، وهو (التساوي)، ((ومن الباب : قَصَصَتِ الْشِّعْرُ، وذلِكَ أَنَّكَ إِذَا قَصَصْتَهُ فَقَدْ سُوِّيَتْ بَيْنَ كُلَّ شِعْرٍ وَأَخْتِهِ، فَصَارَتِ الْوَاحِدَةُ كَأَنَّهَا تَابِعَةٌ لِلْأَخْرَى مُسَاوِيَةٌ لَهَا فِي طَرِيقِهِ))^(٢)، ويقول أبو البقاء الكفوبي : ((قَصَصَتِ الْحَدِيثُ : رُوِيَتْ عَلَى وَجْهِهِ))^(٣)، وجاء عند الراغب الأصفهاني أنَّ : (((القصص) : الْأَخْبَارُ الْمُتَتَبِّعَةُ، قَالَ : ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَص﴾] [القصص: ٢٥] ﴿نَقْصَشْ عَلَيْكَ أَخْسَنَ الْقَصَص﴾ [يوسف: ٣])^(٤).

ونستخلص من كلَّ هذا العرض اللغوي، أنَّ القصص في اللغة هو تتبع الخبر تتبعاً متساوياً ومتطابقاً مع الواقع دون زيادة أو نقصان^(٥).

(١). مقاييس اللغة : ١١/٥، (قصّ) .

(٢). مقاييس اللغة : ١١/٥، (قصّ) .

(٣). الكليات لأبي البقاء الكفوبي : ٧٣٤ .

(٤). المفردات في غريب القرآن : ٢ / ٥٢٣، (قصّ) .

(٥). ينظر : القصص القرآني : ٢٠ - ٢١ .

ويعرف عبد الكريم الخطيب القصص القرآني بأنها : ((أنباء وأحداث تاريخية لم تتلبس بشيء من الخيال، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع، ومع ذلك فقد اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من القصص من الإثارة والتشويق مع قيامه على الحقائق المطلقة))^(١)، ويرى الدكتور بليول أن القصص القرآني : ((إختار الله عما حدث للأمم السابقة مع رسلاهم، وما حدث بينهم وبين بعضهم، أو بينهم وبين غيرهم أفراداً وجماعات من كائنات بشرية أو غير بشرية، بهدف الهدایة والعبرة))^(٢)، و قريب من هذا التعريف ما يذهب إليه الدكتور محمد حجازي : ((والاشتقاق اللغوي للقصة يفيد أنها كشف عن آثار مضت وتتقرب عن أحداث نسيتها الناس أو غفلوا عنها، وغاية ما يراد من ذلك هو إعادة عرضها من جديد، لتنذير الناس بها، ولفتهم إليها، لتكون العبرة والعظة))^(٣)، ومن هذين التعريفين الأخيرين تتجلى لنا أهمية القصص القرآني في أن لها مرامي سامية مثل الهدایة والعبرة، والعبرة تمثل في الاستفادة والتفكير فيما جرى للسابقين والأمم الغابرة، وهذا الهدف الأسمى لا ينفع به إلا أصحاب العقول الفاهمة الواقعة والبصائر المستيرة، الذين يهفون إلى الاهتداء والانعاظ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولَئِكَ الَّذِينَ مَا كَانُ حَدِيثًا يُقْرَأُ وَلَا كَيْنَ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يَرْمَوْنَ ﴾ [يوسف: ١١١] ، ونلحظ الإشارة إلى هذا الهدف أيضاً في قصة ذلك الشقي التعيس الذي أنته آيات الله فانسلخ منها، فتترك الصراط المستقيم واتبع الشيطان الرجيم، وكان من الغاوين، وصار حاله، وهو يلهث وراء ملهيات الدنيا كحال الكلب الذي يلهث دون انقطاع، فالعاقل هو الذي يتذكر في هذه الحال المزريّة، والعياذ بالله، ويشخذ عقله حتى يرقى بنفسه إلى مصاف الطائعين العابدين الله حق العبادة، يقول تعالى : ﴿ وَأَتَلُ عَلَيْهِمْ بَأْذِنِ الَّذِي أَتَيْتَهُمْ إِذَا يَرَيْنَا فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَارِيْنَ ﴾ [٧٦] وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ إِلَيْهَا وَلَنَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَأَتَبَعَهُ هَوَّهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنَّ

(١). القصص القرآني في منطقه ومفهومه : ٤٩ .

(٢). القصص القرآني : ٣٩ ، نقاً عن رسالة دكتوراه : اتجاهات التاليف ومناهجه في القصص القرآني : ٣٣ .

(٣). الوحدة الموضوعية في القرآن : ٢٨٩ ، نقاً عن رسالة دكتوراه : اتجاهات التاليف ومناهجه في القصص القرآني : ٣٢ .

تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرْكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَايَنَنَا فَأَقْصَصُ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَايَنَنَا وَأَنفَسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧] ، يقول الدكتور صلاح الخالدي عن أهمية هذا الهدف : ((التفكير واجب قراني ، وفرضية إسلامية ، لا يجوز تعطيلها ، ومن لم يتذكر ويتعظ ما جرى للسابقين ، فهو أعمى القلب والعقل وال بصيرة . قال تعالى : ﴿فَكَانُوا مِنْ قَرِيبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهُنَّ ظَالِمَةٌ فَهُنَّ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشَهُمَا وَيُتَرِّكُ مُعَطَّلَةً وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ ﴿٤٠﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ مَآذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ أَلَّا قِوَى الْأَنْجَوْرِ ﴿٤١﴾ [الحج: ٤٥ - ٤٦])^(١).

هذا إلى جانب تسليمة الرسول ﷺ وأصحابه وأمتهم؛ لتبنيت أفتادتهم على طريق الحق والدعوة، من خلال عرض صور لما عاناه الأنبياء السابقون وأتباعهم من أذى وتعذيب أقوامهم، وكيف صبروا على ما أودوا^(٢)، يقول الله ﷺ : ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا نُثِّيَتْ بِهِ فُؤَادُكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذَكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٢٠﴾ [هود: ١٢٠] ، يقول الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس : ((القصة القرآنية قصة هادفة ، فهي حلية للنص القرآني أو ترقاً فنياً أو تأريخياً لمجرد التاريخ أو سرداً لمجرد التسلية والمتعة الفنية ، وهي وإن كانت ذات خصائص فنية راقية وتأثير فذ في المتلقى ، فإنها صدق لا خيال فيه وحق لا زيف فيه ، وبما أن مصدر القصة القرآنية هو مصدر القرآن نفسه ، وهو الوحي الإلهي ، فالأهداف المتباينة منها هي الأهداف ذاتها المتباينة من أشكال التعبير الأخرى في القرآن الكريم ، غير أن للقصة تأثيراً نفسياً ووجدانياً ذا طابع خاص لما فيها من عرض حي لل فكرة والغرض مجسم في أشخاص يتحركون ويتكلمون ويتناورون ، وفي أحداث ثبت فيها الحياة ، فتعرض أمم المتلقى كما لو كانت ماثلة أمامه وإن كانت لأقوام مضوا))^(٣).

(١). القصص القرآني : ١ / ٣٣ .

(٢). ينظر : قصص القرآن الكريم : ٤٤ .

(٣). قصص القرآن الكريم : ٤٣ .

وتبرز أهمية القصص في أن الله بذاته العلية يتولى قصّ القصص على رسوله المصطفى محمد ﷺ، يقول الله عزّ وجلّ : ﴿نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْفَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْفُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمْ يَنْأِ الْغَفِيلُ﴾ [يوسف: ٣]، قوله : ﴿نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ أَمَّا نُؤْمِنُ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، ناهيك أنّ ما في القصص من أحداث تاريخية، وموضوعات دعوية، ولامح شرعية أو توجيهية تعدّ صحيحةً لا يشوبها خطأً ولا زيف ولا زيادة ولا نقصان ولا مجال فيها للخيال والخرافات والأساطير، قال ﷺ : ﴿إِنَّهُذَا لَهُوَ الْفَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، يقول الدكتور صلاح الخالدي : ((قصص القرآن هو القصص الحقّ، والحق هنا معناه الصدق والصحة والصواب، من حيث المعنى والمضمون والمحظى، فكل ما ورد في القرآن من القصص فهو حقّ ، سواء كان موضوعه عقيدة أو دعوة أو شريعاً أو توجيهاً))^(١)، وفي ذلك يزيد أيضاً أ.د. فضل حسن عباس : ((فالحقائق التي ترد في القصة القرآنية عن الكون وعن طبائع النفس البشرية عموماً، وعن قصص أقوام وأشخاص بأعيانهم هي كلها حقائق ثابتة علمياً وتاريخياً، وإن لم تقصد القصة القرآنية إلى التاريخ المجرد بل انتخذت من حقائق التاريخ مجالاً للموعظة والاعتبار والتأسيس ودروساً واقعية يتأملها المتلقى ويتعلم منها))^(٢).

❖ طرائق عرضه

من الخصائص الفنية التي تتميز بها القصة القرآنية أنها ترد بطرائق شتى بما يتناسب ومقصود السورة وأهدافها، مستعيناً بالوسائل البينانية التي تحقق التكامل بين طريقة العرض والهدف المنشود من القصة على وفق مقصود السورة كالتهذيب والوعظ والإرشاد، وقد عرضت القصص في سورة يونس على ثلاثة طرائق، هي :

الطريقة الأولى :

(١). القصص القرآني : ١ / ٣٠ .

(٢). قصص القرآن الكريم : ٤٦ .

عرضت قصة نوح ويونس عليهما السلام تلميحاً يستغنى به عن الإطالة، اعتماداً على أنَّ هذه القصة معروفة بهدف الإيجاز، قال ﷺ عن قصة نوح ﷺ : ﴿وَأَقْلَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأً نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقُولُونَ إِنْ كَانَ كُبُرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِثَايَدِي اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشَرِكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَنَمَةٌ ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيْهِ وَلَا نُظْرُونَ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تُؤْلِسْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَبُوهُ فَنَجَّيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلُكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَّيْفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِثَايَنَا فَأَنْظَرْتَ كَيْفَ كَانَ عَيْبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾]
 يonus: ٧١ - ٧٣ [، وأما قصة يونس ﷺ فقال ﷺ : ﴿فَنَوَّلَ كَانَتْ قَرِيَّةٌ مَأْمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونَسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَزْرِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٧٤﴾] يonus: . [٩٨]

الطريقة الثانية :

بينما وردت قصة موسى موسى ﷺ بدون مقدمات ولا تمهد، مكتفية فيها بالإيحاء إلى مقصود السورة، وهو إنكار الوحي والنبوة ، قال ﷺ : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَدَوْنَا إِلَيْهِ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِيْهِ، بِثَايَنَا فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا شَغَرِيْمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾] يonus: ٧٥ - ٧٦ [.

الطريقة الثالثة :

وردت قصص الأقوام الذين جاؤوا ما بين نوح ﷺ وموسى ﷺ مجملة بدون أدنى تفصيل، قال ﷺ : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَيْهِمْ بَشَّارُوْهُمْ بِالْبَيْنَتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِمَّا كَذَبُوا إِمَّا مِنْ قَبْلِ كَذَلِكَ نَطَبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِيْنَ ﴿٧٧﴾] يonus: ٧٤ [.

❖ تناسب تسلسل القصص

نزل القرآن الكريم موزعاً ومُفرقاً بحسب حكمة الله تعالى، لينسجم مع الأحداث والواقع، وهذا كان القصص القرآني ينزل ليواكب أحداث الحياة، ويسهم في تربية الفرد المسلم والجماعة المسلمة بما يعرضه من نماذج بشرية تعددت حالاتها واختلفت أحوالها^(١)، يقول سيد قطب : ((وهذا نجد القصص في القرآن يواجهه مقتضيات الحركة والمعركة مع الجاهلية في مراحلها المختلفة مواجهة حية فاعلة، شأنه شأن بقية السورة التي يجيء فيها، ونجده في الوقت ذاته متتسقاً مع سياق السورة وجوّها وموضوعها، متواافقاً مع أهدافها، مصدقاً في عالم الواقع لما تقرره من توجيهات وأحكام وإيحاءات تقريرية))^(٢)، ويقول أيضاً : ((وقد كان القرآن، ولا يزال، يربى المؤمنين بهذا النموذج وذاك، وفق الحالات والملابسات، ويعدّ نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء؛ لتطمئن على الحالين، وتتوقع الأمرين، وتتكلّل شيء لقدر الله يجريه كما يشاء))^(٣) .

ويشغل القصص القرآني مساحات واسعة من القرآن مكيّه ومدنيّه، تبلغ مساحة الربع تقريباً أي: ما يزيد على ١٥٠٠ آية^(٤)، وإن كانت نصيبيها في سور المكية أكثر منها في سور المدنية، فبعض سور تستغرق القصص آياتها مثل سورة القصص وسورة يوسف، وبعضها ذكرت فيها عدة قصص مثل سورة يونس، وبعضاها الآخر لم يذكر فيها شيء من القصص^(٥).

وينتظم القصص القرآني داخل مساحة كلّ سورة في تسلسلٍ فريدٍ وترتيبٍ بدائع على وفق سياق هذه السورة وموضوعاتها وأهدافها، ليُتبَع عن دلالات عظيمة على إعجاز القرآن وسمو نظمه، فعلى سبيل المثال تتسلسل قصص سور المكية ؛ لتأكد على عبادة الله وحده،

(١). ينظر : اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني : ٢٠١ .

(٢). في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٤٣ .

(٣). في ظلال القرآن : ٦ / ٣٩٠٤ .

(٤). ينظر : اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني : ٢٠٠ .

(٥). ينظر : قصص القرآن الكريم : ٨٣، و القصص القرآني : ٢٧ / ١ .

وترك عبادة الشركاء من دونه، ويتجلّى ذلك مثلاً في سورة هود^(١) التي تستعرض حركة العقيدة الإسلامية في التاريخ البشري، من لدن نوح العليّة إلى عهد محمد ﷺ، فكلهم دعوا إلى عبادة الله وحده، في إشارة واضحة إلى أن دعوة سيدنا محمد ﷺ : ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢] ليست بدعاً من القول، فقد قالها من قبلُ نوح العليّة : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿أَنَّ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَيْتُكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥ - ٢٦]، وقالها هود العليّة : ﴿وَإِنَّ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]، وقالها صالح العليّة : ﴿وَإِنَّ ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَنَلِحًا قَالَ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرْتُكُمْ فِيهَا فَأَسْتَغْفِرُهُ ثُمَّ تُؤْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّ قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، ودعا شعيب بها قومه : ﴿وَإِنَّ مَدِينَ أَخَاهُرَ شَعِيبًا قَالَ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤]، يقول سيد قطب في التشابه اللغطي في نصّ دعوة الأنبياء التي استعرضتها أعلاه : ((إنّها تكاد تكون الألفاظ ذاتها التي أرسل بها محمد ﷺ والتي تضمنها الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، وهذه المقاربة في ألفاظ التعبير عن المعنى الرئيسي الواحد مقصودة في السياق لتقرير وحدة الرسالة ووحدة العقيدة، حتى لتتوحد ألفاظ التعبير عن معانيها))^(٢).

وليس بعيداً عن ذلك الانتظام القصصيّ سورة يونس، فقد انتظم في فلكها نوع واحد من أنواع القصص، وهو قصص الأنبياء، وهي قصة : (نوح، وموسى، ويونس عليهم السلام)، فضلاً عن إشارة محملة للرسل الذين كانوا بين نوح وموسى عليهما السلام، وكل هذه القصص تحمل في طياتها مشاهد جديدةً وزيادات لم ترد في مواضع أخرى، بما يشكل بينها وشائج ومناسبات، تدعونا لتبیانها، وإيضاح ملامحها.

أول هذه المناسبات بين هذه القصص اشتراك كلّ قصة في عرض الدعوة إلى الله، مدعاومةً بالوحى والبيانات والبراهين، فلا غرو أن تتكرر مفردة الإسلام ومشتقاتها في ثلاثة

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٤١ .

(٢). في ظلال القرآن : ٤ / ١٨٧١ .

مواضع^(١)، بالإضافة إلى تكرار مفردة البيانات والآيات^(٢) التي تقوي من أزر هذا العرض الدعوي الذي يشي بوحدة الدعوة إلى الله عَزَّلَهُ، وَكَانَ هُؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ فِي مَحْفِلٍ وَاحِدٍ، مجتمعين لهدف واحد وغاية واحدة، يدعون أقوامهم إلى الإسلام والتمسك بمبادئ الوحي؛ فهذا نوح عليه السلام يدعو قومه بما عنده من الوحي والبراهين والبيانات التي تؤكد صدق رسالته، فكان منهم من آمن بنوح عليه السلام، ومنهم من استقل سماع دعوته، بل كبر عليهم إقامته بينهم وتذكيره لهم، ولكن نوح عليه السلام لم يأبه بعنادهم وتهديداتهم، فهو متوكلا على ربه، ثابت على مبادئه ودعوته، مُسْتَقْوِي بِإِيمَانِهِ، ﴿وَأَقْلَلْ عَلَيْهِمْ بَأْنُوْجٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقُولُ إِنْ كَانَ كَبُرُّ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِعَائِنَتِ اللَّهِ فَعَلَّ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشَرَكَاهُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَّةً ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيْهِمْ لَوْلَا نُظَرُونَ﴾ [٧٦] فَإِنْ تَوَلَّتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْتَلِمِينَ [٧٧] [يونس: ٧٢ - ٧١] ، فكانت عاقبة المؤمنين النجاة، وعاقبة المكذبين الغرق، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْقُلُكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَّيْفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَائِنَنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْنَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [٧٨] [يونس: ٧٣] .

وكذا الحال مع أقوام الأنبياء الذين طویت قصصهم في السورة، لم يؤمنوا على الرغم من وضوح الحجج على صحة دعوة أنبيائهم؛ لأنهم أصحاب طبيعة واحدة في نكران هذا الحق الواضح، فهم كما يقول الرمخشري : ((كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق، مما وقع فصل بين حاليهم بعد بعثة الرسل وقبلها))^(٣)، وكانت خاتمتهم أن طبع على قلوبهم، فحال دون أن تتأثر بالبيانات الواضحة، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَيْنَ قَوْمِهِمْ جَاءُهُمْ بِالْبِيَّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلٍ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِلِينَ﴾ [٧٩] [يونس: ٧٤] .

(١). الآيات : (٩٠، ٨٤، ٧٢) .

(٢). تكررت مفردة الآيات في ١٣ موضعًا، وهي : (١، ٥، ٦، ٧، ١٥، ١٧، ٢١، ٢٤، ٦٧، ٦١، ٩٥، ١٠١) ، وتكررت مفردة البيانات في موضعين : (١٣، ٧٤) .

(٣). الكشاف : ٣ / ١٦٢ .

والمشهد نفسه يتكرر مع موسى عليه السلام الذي أرسل إلى فرعون وملئه معززاً بالآيات والبراهين، ولكنهم تعاملوا مع الوحي بغضرة واستكبار لما جاءهم من عند ربهم، متهمين الرسول بالسحر والتعدى على المعتقدات الموروثة، ﴿ ثُمَّ بَعْثَنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَنُوْرُتْ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِئِنِهِ، بِإِيمَانِنَا فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾^{٧٥} ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحُقْقُ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾^{٧٦} ﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسْخَرُهُنَا وَلَا يُفْلِحُ أَسْنَاحُرُونَ ﴾^{٧٧} ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِتَأْلِفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ مَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾^{٧٨} []

يونس: ٧٥ - ٧٨ []، وفي المقابل هناك فئة الشباب الذين آمنوا بموسى وهارون عليهما السلام، واهتدوا بنور هذا الوحي الذي فيها صلاح حياتهم، ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرْيَّةُ مَنْ قَوْمِهِ ﴾^{٧٩} []

يونس: ٨٣ []، وتختم القصة ببيان الخاتمة؛ فقد غرق فرعون وجنوده، في حين نجا موسى ومن معه، وتمكنوا من مجاوزة البحر بسلام، ﴿ وَجَنَوْزَنَا بِبَيْتِ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغِيَا وَعَدْوَا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرْقَ قَالَ مَا مَأْمَنْتَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا إِلَهُ إِلَّا الَّذِي مَأْمَنْتَ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَلَا إِنَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^{٨٠} [] يonus: ٩٠ [] كما أنه لم يختلف الأمر في بدايته، مع قوم يonus عليه السلام فقد تمنّعوا وجدوا الآيات والبراهين على صدق رسالته حتى رأوا أمارات العذاب تلوح في الأفق، ساعتها آمنوا كلهم برسالة نبيهم، فمتعهم ربهم إلى حين، فكانت عاقبتهم عاقبة خير ورحمة لهم، ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَّةٌ مَأْمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْسَى لَمَّا مَأْمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْعَلَهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾^{٨١} [] يonus: ٩٨ [].

تأتي هذه القصص مجتمعة متناسبة مع ما أجملته الآيات (٤٧، ١٤، ١٣) ، لتفصل كيف تحققت عاقبة التكذيب في الأمم الغابرة بعدما جاءتهم رسليم بالوحى والبيانات، وكيف تحقق القضاء في أمرها بعدما جاء رسولها^(١)، قال عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا يُؤْمِنُوا كَذِلِكَ مَهْزِي الْقَوْمُ الْمُجْرِمِينَ ﴾^{١٢} []

جَعَلْنَاكُمْ خَلَّيْفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾^{١٣} [] يonus: ١٣ - ١٤ []، وقال

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ١٨١٠ / ٣ .

﴿ وَلَكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ إِذَا جَاءَهُ رَسُولُهُمْ فُضِّلَ بَيْنَهُمْ بِالْقُسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٤٧] ، وهذا ما رأينا في سرد هذه القصص، فقد ركزت وأكملت منحى العاقبة والقضاء في أمر هؤلاء الأقوام ورسلهم، ومن اللافت للنظر ذلك التناقض والتتشابه في العاقبة السلبية لقوم نوح وفرعون وجندوه؛ فقد كانت غرفة، يقول البقاعي : ((هذا إلى ما ينظم إليه من مناسبة ما بين إهلاك القبط وقوم نوح بآية الغرق، وأنه لم ينفع أحداً من الفريقين معاينة الآيات ومشاهدة الدلالات البينات)) ، ويبدو لي أن التناقض بين هذه القصص في منحى العاقبة والقضاء لا يقتصر على العاقبة السلبية بل يتعداه إلى العاقبة الإيجابية لمن آمن من هؤلاء الأقوام؛ فالقضاء مثلًا في أمر من آمن من قوم نوح وقوم يونس كان النجاة من الغرق، والاستخلاف والتمتيع إلى حين، قال ﷺ : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ وَجَعَلْتَهُمْ خَلَفَهُ ﴾ [يونس: ٧٣] و قال ﷺ : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَّةٌ أَمَّنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْنِسُ لَهَا أَمَّنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرْقَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَغْنَثُهُمْ إِلَى حَيْنٍ ﴾ [يونس: ٩٨] أما القضاء في من آمن من قوم موسى فهو التبشير بالنصر والتمكين ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَلَيْهِ أَنْ تَبَرَّعَ لِقَوْمَكُمَا بِمَصْرَبَ يُوتَأْ وَاجْعَلُوا يُوتَكُمْ قِتْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٧] الذي يتوافق مع العاقبة الإيجابية للمؤمنين، كما يفهم من قوله ﷺ في خطابه للرسول ﷺ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنَّ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنَّ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ أَمَّنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدْمَ صَدِيقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّاحِرُ مُهِينٌ ﴾ [يونس: ٢] .

وهذا يقودنا بدوره إلى سر تكرار هذه القصص في هذه السورة، ومناسبة ورودها فيها، فإنها وردت لتواكب ركب الدعوة المحمدية ﷺ وتشد من أزرها معنوياً، وتقوي عزيمة نبيها ومعنيات أصحابه نفسياً في مواجهة لأداء أذى المشركين، وضنك عداوتهم لهذه الدعوة، وفي هذا يقول التهامي نقرة : ((أن القرآن لم يكرر من القصص أو من حلقاتها إلا ما كان أشد تجاوباً مع بيئة الدعوة، وأكثر استجابة لأهدافها، وخدمة لأغراضها ... كما أنه لم يكرر بل لم يذكر من قصص الأنبياء إلا ما يقوى عزيمة الرسول وأصحابه، وينبت قلوبهم، وينير سبيلهم))^(١)، تأتي هذه القصص في ظرف عصيب على الدعوة، وحقبة قاسية على الرسول

(١) . سيكولوجية القصة في القرآن : ١١٨ .

سماها سيد قطب (الفترة الحرجة)، وهي الواقعة ما بين حصار المسلمين في شعب أبي طالب إلى بيعة العقبة الأولى ثم الثانية^(١)، يقول الدكتور صلاح الخالدي : ((ففي هذه الفترة الحرجة ازداد إيذاء قريش للرسول ﷺ وال المسلمين، وازداد حربهم للدعوة، وأصبحت حركة الدعوة شبه متجمدة، ومرت مشاعر وأعصاب المسلمين بكرب وضغط وضيق وانفعال، وصاروا يتساءلون : هل من مخرج من هذه المحنّة؟ وهل من زوالٍ لهذا الكرب؟ ومتى يأتي الفرج؟))^(٢)، كل ذلك بسبب موت عمه أبي طالب الذي كان يذود عنه وينافح، وقد ان النصير الذي يخف عنّه الهموم في البيت زوجه خديجة بنت خويلد، فنزلت في هذا الجو المكروب سورٌ من القرآن المكي : (الأنعام، وهود، ويونس، وإبراهيم، والحجر)، ومن هذه السور سورة يونس بما فيها من قصص لتهذيد^(٣) المشركين بأن العذاب مصيّبهم كما أصاب قوم نوح وفرعون ولاده وجنوده والأقوام الذين كانوا قبل موسى، مصادقاً لقوله ﷺ :

﴿بَلْ كَذَّبُواٰ بِمَا لَمْ يُحِيطُواٰ بِعِلْمِهِ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْقَبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩]

[يقول محمد رشيد رضا محدثاً عن مقطع القصص في هذه السورة : ((هذا سياق جديد متصل بما سبق من مقاصد هذه السورة أتم الاتصال، بتفصيله بعض ما فيها من إجمال، وهو الاحتجاج على مشركي مكة وما حولها وسائر من تبلغهم الدعوة من المكذبين، بأن الله تعالى سيخذلهم وينصر رسوله عليهم كما نصر من قبله من الرسل على أقوامهم المجرمين، فأهلكهم وأنجى المؤمنين))^(٤)، وفي الوقت نفسه فيها تسلية للرسول المصطفى ﷺ وأصحابه ﷺ بأن الله ناصرهم على المشركين ولو بعد حين، كما نصر الأنبياء من قبل كنوح وموسى عليهما السلام على المكذبين المعاندين، وفيها أيضاً ما يجعل الأمل يتقدّم في القلوب المكروبة بإيمان قومه ﷺ كما آمن قوم يونس عليهما السلام، وبضيف الفخر الرازي جانباً آخر من جوانب التسلية قوله : ((ثم إنه تعالى بين أنهم مع مشاهدة المعجزات العظيمة ما آمن به منهم إلا ذرية من قومه، وإنما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد ﷺ؛ لأنّه

(١). ينظر : في ظلال القرآن : ٤ / ١٩٤٩ .

(٢). القصص القرآني : ٢ / ٧٦ .

(٣). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٤٢ .

(٤). تفسير المنار : ١١ / ٣٨٧ .

كان يغتم بسبب إعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر، فبين أن له في هذا الباب بسائل الأنبياء أسوة، لأن الذي ظهر من موسى عليه السلام كان في الإعجاز في مرأى العين أعظم، ومع ذلك فما آمن به منهم إلا ذرية ((^١))، ومن ثم تتناسب هذه القصص واسم السورة (يونس) الذي يحمل دلالة الإيناس والأنس^(٢)، ولكي يبلغ الإيناس مبتغاه في نفسية الرسول المكلوم عليه السلام جاءت القصص متعددة في أسلوب ذكر أحداثها؛ فتارة تتبع أسلوب السرد كما في قصة نوح ويونس عليهما السلام، بينما في قصة موسى عليه السلام ثراوح بين السرد والحوار، فضلاً عن التنويع في ورودها مجملةً مثل قصة نوح ويونس عليهما السلام، ومفصلة بعض الشيء مثل قصة موسى عليه السلام، كل ذلك ليتجانس مع نفسية الرسول عليه السلام التي تستدعي الإضمار القصصي والإيجاز، يقول الدكتور عبدالله محمد الجيوسي : ((أن النفس في العادة لا تسمع للكلام الطويل))^(٣).

كما إن لمقصود السورة الذي يتمحور حول قضية الوحي مناسبةً مع هذه القصص، فكل مشاهدها تصور لنا مدى العجب والرفض للرسالة والوحي الذي جاء به الرسل؛ فهذا نوح عليه السلام يواجه بالرفض لدرجة أنه استغل شخصه وكبر عليهم سماع الحق منه، وذاك موسى عليه السلام يتهم بالسحر، وهي التهمة نفسها التي قيلت للرسول عليه السلام، ولا تختلف ردة فعل الأقوام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام، التي لخصها التعبير القرآني في قوله عليه السلام : ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلٍ﴾ [يونس: ٧٤]، يقول الألوسي : ((بيان لاستمرار عدم إيمانهم في الزمان الماضي أي: مما صاح ولا استقام لهم في وقت من الأوقات أن يؤمنوا لشدة شكيتهم ومزيد عنادهم))^(٤)، وهذا ما يشير إليه سعيد حوى بقوله : ((إن كل مكان ترد فيه (يعنى القصة) فإنها تخدم سياق السورة التي وردت فيها موضوعها ومحملها في الترتيب القرآني، وقد لاحظنا هنا أنَّ قصة نوح خدمت السياق العام لسورة يونس، وهو نفي العجب، وجدية الإنذار كجزء من معالجة الشك في القرآن))^(٥).

(١). مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٥٠ .

(٢). راجع موضوع : تتناسب اسم السورة مع مقصودها : ٥٥ .

(٣). التعبير القرآني والدلالة النفسية : ٤٨٩ .

(٤). روح المعاني : ١١ / ١٦٢ .

(٥). الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٩٣ .

وتبرز المناسبة من ناحية أخرى بين هذه القصص، أنها بدأت بقصة نوح ﷺ كما هو الحال في سورة التوبة وسورة هود، وهذا يتماهى ويتجاوب مع التناسب بين موضوعات هذه السور أيضاً، وهو ما بينته سابقاً في موضوع (التناسب بين موضوعات سور (التوبة، يوئيس، وهود) وقصصها^(١)).

وأخيراً ثمة تناسب آخر على يبدو لي بين هذه القصص، يتمثل في تسلسلاها التاريخي، وهذا يجعل المتألق مشاركاً أصحابها في التقلل مع أحداها وموافقتها، بدءاً من قصة نوح، مروراً بالأقوام الذين كانوا بعد نوح، ثم بموسى وانتهاء بيوئيس عليهم السلام، وهذا يتضح من التعبير بالظرف ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ في قوله ﷺ : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمَهُمْ فَجَاءُهُمْ بِالْبِيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ كَذَّالِكَ نَطَّبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [٧٤] يوئيس: ٧٤ [، أي: من بعد نوح ﷺ، وكذا الحال في قصة موسى وهارون عليهما السلام التي كانت بعد الأقوام الذين أجملت قصصهم، بدليل ظرف البعدية : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَرُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِائِيهِ، بِإِيمَانِنَا فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [٧٥] يوئيس: ٧٥ . وبالجملة قدم السياق لوحدة قصصية، قوامها أربعة قصص، اثنان منها؛ في كل واحدة فتتان متقابلان؛ فئة مؤمنة وأخرى كافرة مثل (قصة نوح، وموسى عليهما السلام)، وأما الاثنتان الأخريان؛ فهي كل واحدة منها فئة واحدة؛ إما فئة مؤمنة فقط مثل (قبيل يوئيس)، وإما فئة كافرة مثل (الأقوام ما بين نوح وموسى عليهما السلام) .

هذه هي جوانب التناسب بين القصص في سورة يوئيس على وجه العموم، وسأنتقل إلى الحديث عن التناسب الداخلي لكل قصة من هذه القصص.

(١). راجع موضوع : التناسب بين موضوعات سور (التوبة، يوئيس، وهود) وقصصها .

❖ تناسُب القصَّة مع مقصود السورة

١. قصَّة نوح النَّبِيُّ

وردت قصَّة نوح النَّبِيُّ في عشر سور^(١) من القرآن الكريم بمشاهد مختلفة ولقطات متعددة، بالمقدار الذي يتتفق مع موضوع السورة وسياقها وجُوهُها النَّصِّي وشخصيتها والعبرة المقصودة منها في كل سورة^(٢)، وهناك إشارات أخرى لقصَّة نوح النَّبِيُّ ذكرت في معرض الحديث عن الأقوام المكذبين أو في أثناء الحديث عن الأنبياء المؤيدين بنصر الله^(٣).

ولكن ورودها في سورة يومنس يأتي ليضيف مشهدًا جديًّا لم يذكر من قبل؛ بهدف تثبيت فوادِ النبي النَّبِيُّ، فالقصَّة هنا تتفرد عن غيرها من المواقف بذكر مشهد التحدي الصريح من نوح النَّبِيُّ لقومه، بأنه ماضٍ على طريق الدعوة، لا يكُلُّ ولا يمْلُّ رغم تكذيبهم المستمر، ولا يلتفت إلى شيء من تهدياتهم ، متوكلاً على مولاه، مستمدًا بذلك من ثقته بربه رَبِّكُمْ، راغبًا فيما عند الله من الأجر، لا فيما عندهم، وهي بهذا تحكي واقعًا مشابهًا لما كان عليه نَبِيُّ آنذاك من ضيقٍ نفسيٍّ ورفضٍ قريشٍ مُطْبِقٍ لدعوته، متعجبين من إنزال الوحي عليه، يقول :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنَّا أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنَّا أَنْذِرَنَا النَّاسَ وَيَسِيرَ الَّذِينَ أَمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَّمَ صَدِيقٌ ﴾
عند رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا سَنِحُورٌ مِّنْهُنَّ ﴿٦﴾ [يومنس: ٢] ، يقول التهامي نقرة :))
ومن هنا يتَّضح مقصود القرآن من اختياره في قصصه لأحداث بعينها من تاريخ بعض الرسل
﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا نُثِّيَتْ بِهِ فُوَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠] ، وفي سورة يومنس مثلاً،
عرضت قصَّة نوح مع قومه، وهي شبيهة بحال محمد مع قومه، وكانت الفترة التي نزلت فيها
السور شديدةً عليه، لموتِ المدافع عنه عمِّه أبي طالب، وقد النصير له الموسى في البيت
زوجته خديجة، وتَأَلَّبَ المشركون عليه، وإنما لهم في إيزانه فنزلت عليه هذه الآيات : ﴿ وَأَتَلَّبَ ﴾

(١). في السور المكية الآتية : (الأعراف، ويومنس، وهود، والأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت، والصفات، والقمر، ونوح) .

(٢). ينظر : القصص القرآني : ١ / ١٥١ - ١٥٢ .

(٣). ينظر : في آيات السور الآتية : الفرقان (٣٧)، سورة النجم (٥٢)، سورة ص (١٢)، سورة (٤٦)، الذاريات (٤٦)، ينظر : قصص القرآن الكريم : ١٧٦ .

عَلَيْهِمْ بَأْ نُوحٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقُولُ إِنْ كَانَ كَبُرُّ عَلَيْكُمْ مَقَامٌ وَتَذَكِّرِي بِتَائِبَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُ
 فَاجْجُمُوا أَشْرَكُمْ وَشَرَكَاهُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَشْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَّةً ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيْهِ وَلَا تُنْظَرُونَ ﴿٧١﴾
 فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنَّ أَجْرَيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْتُهُ
 وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلُكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَتِيفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِتَائِبِنَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْقَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾
 [يونس: ٧١ - ٧٣] ^(١).

وهنا نلحظ أنَّ القصة لم تتطرق إلى ذكر السفينة وركابها، ولم تأت على ذكر الطوفان؛ لأنَّ الهدف من إيراد هذه اللقطة من القصة في هذا الموضع هو التركيز على ذكر عاقبة المؤمنين بالوحي، وعاقبة المكذبين به، بما يتوافق مع مقصود السورة، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْتُهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلُكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَتِيفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِتَائِبِنَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْقَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، يقول سيد قطب : ((لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة إلى حلقة واحدة، ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة؛ لأنَّ هذا هو مقتضى السياق في هذا الموضع)) ^(٢).

ويذهب النَّصُّ القرآني إلى ما هو أبعد من ذلك في تركيزه على جانب العاقبة، وهو تقديم التوجيه على الإغراء؛ لأجل مراعاة الجانب النفسي بتعجيل المسيرة للرسول وأصحابه ^(٣)، ومن جهة أخرى لحظ ربط الإغراء بالتكذيب بواسطة الاسم الموصول (الذين) للإيماء إلى سبب تعذيبهم ^(٤)، وفي ذلك رسالة إنذار واضحة للمشركين ^(٥) أن يكفوا عن تكذيب الوحي، وإلا كان مصيرهم كمصير قوم نوح، ولذلك ذيل هذا الإنذار بقوله ﴿ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْقَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، ليربط على ما يبدو لي بين عاقبتين؛ عاقبة

(١). سيكولوجية القصة في القرآن : ٣١٥ .

(٢). في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٠ .

(٣). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٢٤٣ .

(٤). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٢٤٣ .

(٥). البحر المحيط : ٥ / ١٧٩ .

المنذرين من قوم نوح السابقة الذكر، وعاقبة المنذرين من القصة الآتية، في براعة تخلص قلًّا
نظيرها .

٢. القصص المجملة : قصص الأقوام الذين كانوا بين نوح وموسى عليهم السلام

ينتقل بنا السياق إلى قصص أقوام، هم أعجب حالاً من قصة قوم نوح عليهما السلام؛ لأنَّ قوم نوح كان منهم المؤمن، ومنهم الكافر، أمّا هؤلاء فهم قد اجتمعوا على كلمة الكفر جملةً واحدةً، على الرغم من مجيء رسليهم إليهم بالبيانات الصادقة الواضحة، والخوارق المؤيدة بالوحي، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسْلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [يونس: ٧٤]، ولهذا عُطفت قصة هؤلاء على قصة نوح بحرف العطف (ثم) لبيان التراخي بين القصصتين في الغرابة والعجب، يقول ابن عاشور : ((ثم للتراخي الرتبوي، لأن بعثة رسول كثريين إلى أمم تلقوهم بمثل ما تلقى به نوحاً قومه أعجب من شأن قوم نوح حيث تمالأت تلك الأمم على طريقة واحدة من الكفر))^(١)، ولعل اتفاقهم على الكفر حتى صاروا جماعة واحدة على اختلاف أجيالهم^(٢) سبب على ما يبدو لي لإجمال ذكر تفاصيل قصصهم وأسمائهم، وهذا ما يفهم من النص القرآني نفسه، الذي أكدَ جحودهم بلام الجحود بعد (كان) المنفية ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ [يونس: ٧٤]، يقول أبو حيان : ((وجاء النفي مصحوباً بلام الجحود ليدل على أن إيمانهم في حيز الاستحاله والامتناع))^(٣)، ويقول أبو السعود في تفسير هذه الجملة : ((بيان لاستمرار عدم إيمانهم في الزمان الماضي لا لعدم استمرار إيمانهم ... أي : مما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوام في وقتٍ من الأوقاتِ أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعاً منهم لشدة شكيمتهم في الكفر والعناد))^(٤) .

ويذكر البقاعي سبباً آخر لإجمال قصصهم، وهو أن هؤلاء تشابهوا مع قوم نوح في عدم الانتفاع بالآيات التي رأوها من أريدت شقاوته منهم، فاكتفى بذكر قوم نوح، وطُويَ ذكر أسماء هؤلاء الأقوام : ((ولما لم يكن في قصص من بينه وبين موسى - عليهم السلام

(١). التحرير والتتوير : ١١ / ٢٤٤ .

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٢ .

(٣). البحر المحيط : ٥ / ١٧٩ .

(٤). تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٩٤ .

- مما يناسب مقصود هذه السورة إلا ما شاركوا فيه قومٌ نوحٌ من أنهم لم تتفع الآيات من أريت شقاوته منهم، ذكره سبحانه طاويًا لما عداه))^(١).

ولكِنَّني أخالف البقاعيَّ في أنه ثمة تناسب آخر بين هذه القصص المجملة يتماشى مع مقصود السورة غير ما ذكره، وهو ختمها بذكر عاقبة تكذيب الوحي التي تشتراك فيه كلُّ القصص في السورة وإن اختلفت أشكالها، وكانت عاقبة هؤلاء أن طبع الله على قلوبهم وختم عليها، فلم تَعُدْ صالحة للتأثير بالمواعظ والهدا؛ بسبب اعتدائهم المستمر على الوحي بالتكذيب والجحود الذي أدى بهم إلى تعطيل مداركهم، كما هي سنة الله في طبعه على قلوب المعتدين^(٢). ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٧٤].

٣. قصة موسى عليه السلام

تُعدُّ قصة موسى عليه السلام من أكثر القصص ذكرًا في القرآن الكريم، بحسب ما ينتقيه السياقُ في كلٍّ موضعٍ من حلقات معينة، ومشاهد مطلوبة بما يتتساب ومقصود السورة وجوَّها العامَّ، ولا شكَّ أنَّ هذا التكرار يقتضيه السياقُ الزمنيُّ الذي تمُّرُّ به الدعوة المحمدية على صاحبها عليه السلام من ظروف عصبية كما بينت ذلك في أكثر من موضع، فالشبةُ كبيرٌ بين ما لاقاه موسى عليه السلام من قومه، وما عاناه الرسول عليه السلام من قومه المشركين، وقد قيل سابقاً : التاريخ يعيد نفسه، فها هم قوم موسى يتأمرون عليه ليقتلوه : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسِئُ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتِمُرُونَ إِلَيْكَ لِيُقْتُلُوكَ فَأَخْرَجَ إِلَيْكَ مِنَ النَّصْرَيْنِ ﴾ [القصص: ٢٠] ، وذلك محمد عليه السلام قد تأمر عليه المشركون ليقتلوه : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَمْكُرِينَ ﴾ [الأفال: ٣٠] ، ويبدو هذا الشبه واضحاً أيضاً بين ما واجهه المؤمنون على يد فرعون المتغطرس؛ فقد هدد مرةً السحرةَ لما آمنوا لموسى عليه السلام بالعذاب والصلب إن لم يرجعوا عن إيمانهم، ولكنَّهم ثبتوه على إيمانهم

(١). نظم الدرر : ٩ / ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢). ينظر : الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٩٥ - ٢٤٩٦ .

ثبات الجبال، يرجون مرضاة الله ومغفرته غير مبالين بتهدياته : ﴿ قَالَ أَمَنْتُمْ لَمَّا قَبْلَ أَنْ أَذَّنَّ
 لَكُمْ إِنَّهُ لَكَيْرُكُمُ الَّذِي عَلَيْكُمُ السِّخْرَى فَلَسْوَ فَنَعْمَوْنَ لَا قُطْعَنَ أَتَيْكُمْ وَأَنْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفِهِ وَلَا صَلَبَكُمْ أَجْعَيْنَ
 ٦٩﴾ [الشعراء: ٤٩ - ٥٠] ، وهو الحال نفسه يتكرر مع
 صحابة الرسول ﷺ، فقد روى أحمد عن ابن مسعود قال : (كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ
 سَبْعَةً : رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ ، وَعَمَّارٌ ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ ، وَصَهْبَيْنُ ، وَبِلَالٌ ، وَالْمِقْدَادُ ، فَلَمَّا رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِعَمَّهِ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ
 الْمُشْرِكُونَ ، وَأَبْسُوْهُمْ أَذْرُعَ الْحَدِيدِ ، وَصَهْرُوْهُمْ فِي الشَّمْسِ ...)^(١) ، فتأتي هذه القصة بمثابة
 المحف ومواسى ليتحمل الرسول ﷺ وأصحابه هذه الفترة الشديدة، يقول التهامي نقرة : ((
 وكانت قصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل قصة حافلة بالعظات التي لا يستغني عنها
 الرسول ﷺ في اقتحام العقبات، والتعود على الصبر، والصمود أمام القوى الغاشمة، ليجعل
 من الإسلام طلائع النور في أمم طال عليها الليل، كما طال الأمد على بني إسرائيل فقسمت
 قلوبهم))^(٢) .

ومن جهة أخرى نلحظ أن القرآن الكريم يستشرف مستقبل الدعوة التي ستؤول إليه
 في المدينة المنورة من صراع طويل مع اليهود، فيوضح كثيراً من قصص بني إسرائيل
 استعداداً لمواجهتهم على بينة من أمرهم، وفي هذا يقول الدكتور عبد الله محمد الجيوسي : ((
 إن طبيعة الصراع الذي تعيشه الدعوة الجديدة سيكون في أغلبه مع اليهود، وسيبقى مستمراً
 إلى يوم الدين، فكان في الإكثار من قصص بني إسرائيل كشف لحقيقة ما هم فيه، وبيان
 نفسيتهم وطريقتهم، والأساليب التي يستخدمونها في محاربة هذا الدين، خاصة تلك الأسلحة
 المعنوية من : إشعارات، ودسّ شبهات، وحرب نفسية يستخدمونها ضدّ أهل الإيمان، فكان
 في كثرة القصص الوارد في حقهم إبراز لهذه الجوانب، وبيان لهذه الطبيعة))^(٣) .

(١). فضائل الصحابة : ١ / ١٨٢ .

(٢). سيكولوجية القصة في القرآن : ١٢٦ .

(٣). التعبير القرآني والدلالة النفسية : ٥١٩ .

وردت القصة في هذا الموضع مكثفةً في أحداثها، تنتقل من حدث إلى آخر في إجمال مقصود، وتفصل أحداثاً أخرى بما يتتسق مع سياق السورة نفسها ومع شخصيتها^(١)، تراوح في طريقة عرضها بين السرد والحوار .

تتوزع القصة على خمسة مشاهد^(٢)، سأاستعراضها على النحو الآتي :

المشهد الأول : مشهد التحدى والتکذیب

يبدأ السياق بملخصٍ سريعٍ لمجمل القصة لإبراز ملامح التکذیب والإنكار الذي يتصف به فرعون وملوئه حتى بلغ بهم الأمر أن يتکبروا على الآيات والوحى في صلٍ واضحٍ يشي به التعبير الذي يحمل دلالة المبالغة في الفعل ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا﴾، ودلالة كينونة الإجرام المستكنة في نفسيتهم : ﴿وَكَانُوا قَوْمًا لَّجُورٍ مِّنْ أَهْلِ الْمُنَادِيَةِ﴾ [يوسوس: ٧٥]، فلا غرو إذن أن تعطف هذه القصة بـ (ثم) على القصص السابقة؛ بسبب هذا الترقى في التحدى والتکبر على الحق أكثر مما كان عليه قوم نوح والأقوام الذين كانوا بعده، بل لم يقف الأمر بفرعون وملئه عند حد الإنكار فحسب، بل امعنوا في تحديهم وتکذیبهم بوصفهم الوحي بالسحر، وذلك لما رأوا قوة الحجة وسطوع البراهين على صدق ما جاء به موسى ، يقول ابن عاشور : ((لما رأوا المعجزات التي هي حق ثابت وليس بتخيالات وتمويهات ، وعلموا أن موسى صادق فيما ادعاه ، تدرجو من مجرد الإباء المنبعث عن الاستكبار إلى البهتان المنبعث عن الشعور بالغموض))^(٣)، وهنا يبدأ الصراع يتاماً شيئاً فشيئاً من خلال ما يبرزه الحوار الذي يصوّره لنا القرآن بريشه التصويرية مما يعكس شناعة جريمتهم، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ [يوسوس: ٧٦]، هكذا بهذا التحديد ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ حينها قالوا قولتهم العظيمة في حق الوحي : ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يوسوس: ٧٦]، بهذا التوكيد المتبرج الذي يعكس الطبيعة المتغطرسة في فرعون وملئه، والذي يبين لنا الشبه بين قصة محمد وموسى عليهما السلام في الدعوة؛ فالاتهمة واحدة، مما يدل على أن هذا الرفض هو دين المتكبرين في كل زمان ومكان، فرسول الله ﷺ قيل له ذلك أيضاً كما في الآية (٢) في بداية السورة ﴿أَكَانَ

(١). ينظر : قصص القرآن الكريم : ٥٣٨ .

(٢). أفت في هذا التقسيم مما جاء في كتاب : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٣ .

(٣). التحرير والتوير : ١١ / ٢٤٨ .

للناس عَجَباً أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَّمَ صِدْقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾ [يونس: ٢]، ويربط سعيد حوى هذا التشابه في التهمة بما يخدم السياق ومقصود السورة، فيقول : ((نلاحظ كيف أن القصة هنا تؤدي دورها في السياق العام لسورة يونس، فلو تذكرنا بداية سورة يونس فإننا نجد ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنَّ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَّمَ صِدْقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾) [يونس: ٢] فكما اتهم محمد ﷺ بالسحر بأبلغ صيغ التأكيد في الاتهام، اتهم موسى من قبل ، فقصة موسى هنا تأتي لتؤدي دورها في نفي العجب من الإرسال، وفي تبيان المواقف الخاطئة من الرسل، ولتبين نهايات المكذبين الغابرين، ليحذر المكذبون الجدد)^(١)، ونتيجة لهذا الاتهام يستمر الحوار بوتيرة متصاعدة، في إشارة إلى اشتداد الصراع أكثر مما كان عليه قبل ليواكتب التصعيد الفرعوني، فيبيين السياق استتكار موسى عليه على فرعون وملئه هذه التهمة وهذه المقالة المستهجنة، فالساحر بسحره يزيف الحقيقة، ولا يستهدف هداية الناس، ولعظم هذه التهمة في حق الوحي يحذف السياق كلمة (السحر) عند إعادة مقالتهم، لوجود ما يدل عليه قبله وبعده، ويضيف الألوسي سببا آخر للحذف، فيقول : ((والمقول محفوظ ثقةً إذاناً بأنَّه ممَّا لا ينبغي أن يتقوه به ولو على نهج الحكاية)) ^(٢) ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسْخِرُهُمْ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ ﴿٧﴾] يونس: ٧٧ [، ليكشف لنا بعد ذلك أنَّ هذه التهمة ليس لها أساس من الصحة في شيء، بل لها أغراض دنيوية وسياسية خوفاً على عروشهم ومكتسباتهم القائمة على معتقدات موروثة متهافة^(٣)، ﴿قَالُوا أَجْهَنَنَا لِتَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ مَآبَانَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يونس: ٧٨]، وهذا الخوف نفسه الذي جعل مشركي مكة يرفضون الرسالة المحمدية في تشابه مستمر بين النبيين الكريمين عليهما السلام، ثم يختتم المشهد بذلك الرد السافر القاطع بعدم الإيمان بالله : ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٤) [يونس: ٧٨].

(١). الأساس في التفسير : ٥ / ٢٤٩٦ .

(٢). روح المعاني : ١١ / ١٦٤ .

(٣). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٤ .

المشهد الثاني : مشهد المباراة بين موسى والسحرة

لا يقف الصلف والغطرسة عند حد عدم الإيمان الشخصي بل يتعداه إلى منع أن يتسرّب نور الإيمان إلى الرعية، فيطلب فرعون التحضير للمباراة بين موسى والسحرة؛ التي حضرّ لها على جهة السرعة؛ لإيهام الناس أنَّ موسى ساحر مُزيّف للحقّاق يدعى النبوة، ﴿وَقَالَ فَرَعَوْنَ أَتُؤْنِي بِكُلِّ سَحْرٍ عَلَيْمٍ﴾ [يوس: ٧٩]، ولكن موسى عليه السلام يواجه هذا التهويل بكلٍّ تحدٌ وثبات ويقين بالنصر المؤزر بالوحى الذي لا يقف أمامه سحرٌ سحرةٌ فرعون؛ لأنَّ سحر هؤلاء زيف وتخبييل، فما له البطلان، ﴿فَلَمَاجَأَهُ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْوَا مَا أَشْدَرْ مُلْقُوتَكُمْ﴾ [٨٠] ﴿فَلَمَّا أَقْوَاهُ قَالَ مُوسَى مَا جَعْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٨١] وَيَحْكُمُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلْمَاتِهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ [٨٢] [يوس: ٨٠ - ٨٢]، فهذا التحدي من موسى لفرعون ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٨١] [يوس: ٨١] يشابه ذلك التحدي من نوح لقومه : ﴿وَأَتَلُ عَلَيْهِمْ بَنَآ نُوحٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنْ كَانَ كُبُرُ عَنِّكُمْ مَقَاءِي وَتَذَكِّرِي بِتَأْيِيْتَ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَاجْمِعُوا أَشْرَكُمْ وَشَرَكَاهُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَشْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَّةَ ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [٧١] [يوس: ٧١]، ومن جهة أخرى يتبيّن لنا مدى التشابه أيضًا في السبب المانع من إيمان فرعون ولملئه، وإيمان مشركي مكة بالوحى، فمنشأ ذلك هو راجع إلى الفساد، يقول ﷺ : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [٤٠] [يوس: ٤٠].

وفي هذا المشهد يتضح جليًّا قوة الحقّ التي تتضاعل دونها كلُّ القوى، فلا التضليل ولا التزييف يحجب نور الوحى وسطوع براهينه؛ فقد عرف الناس حقيقة الوحى الذي جاء به موسى عليه السلام، ونلحظ هنا أنَّ السياق يمضي دون أي تفاصيل (كمثال إيمان السحرة وتهديدهم بالصلب)؛ لأنَّ السياق لا يقتضي ذلك في هذه السورة .

المشهد الثالث : إيمان الشباب الإسرائيلي

وبعد مشهد المباراة التي تغلب فيها الحقُّ على الباطل، يشتَدُّ الصراع فتزداد العجرفة الفرعونية لمنع الرعية بقوة التهديد والتعذيب من الإيمان بموسى عليه السلام، ولهذا لم يؤمن بموسى أحدٌ إلا الشباب الإسرائيلي في سرّ وخفاء خوفًا من بطش فرعون ولملئهم من بني إسرائيل

الذين استمروا الذل والمهانة أن يردعوهم عن الانبعاع بموسى، ﴿فَمَا آمَنَ مُوسَى إِلَّا ذُرْيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ حَقْوَنِ مِنْ فَرْعَوْنَ وَمَلَائِكَتِهِمْ أَنْ يَقْتِنُهُمْ وَإِنَّ فَرْعَوْنَ لَعَالِمٌ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لِمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [٨٣] يومنس: ٨٣ ، وأمام هذا الخوف من البطش الفرعوني وملائكتهم، فلا بد من تطمئن القلوب وإزالة المخاوف بقوة الإيمان والتوكيل عليه والاستسلام لأمره تعالى مما يجعل المؤمن يستأنس به، فيقوى ويحتمل الأذى، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقُولُ إِنَّ كُنُّمْ أَمَنَّمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكِّلُوا إِنَّ كُنُّمْ شَسْلِمِينَ﴾ [٨٤] ﴿فَقَالُوا عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتَنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [٨٥] [يومنس: ٨٤ - ٨٥] ، ثم يأمر الله نبيه موسى وأخاه هارون باتخاذ بيوت سرية للعبادة وإقامة الصلاة والتدريب والتنظيم، وهنا تبرز أهمية التعبئة الروحية في تربية الشباب على مبادئ الوحي والعقيدة، إلى جانب التعبئة النظامية؛ للثبات على الحق ومواجهة قوى الطغيان استعداداً للخروج من مصر، مستأنسين بشارة الله لهم بالنصر، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبُوءَ لِقَوْمَكُمْ بِمُعْصَرَ بِيُوتَنَا وَاجْعَلُوهُمْ بِيُوتَكُمْ قِبَلَةً وَأَقِمُوهُمْ الصَّلَاةَ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٨٦] [يومنس: ٨٧] ، يقول سيد قطب : ((وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية، وهما معًا ضروريتان للأفراد والجماعات، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات، ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تتبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائن العقيدة لا تساوي شيئاً كثيراً في ساعة الشدة))^(١).

المشهد الرابع : دعاء موسى على فرعون

ولما كانت الأموال والمكتسبات الدنيوية وما ينتجانه من تعالٍ وغرورٍ سبباً مانعاً، يستعمل في ترهيب الناس والرعيمة عن الإيمان بالله، كان لزاماً أن تُحرد هذه القوى الظالمة من وسائل إضلالها، ولهذا أخذ موسى يدعو ربه أن يُدمر هذه الأموال، وأن يختم على قلوب هؤلاء، بحيث لا يؤمنون حتى يأتيهم العذاب، فاستجاب الله دعاءه، ﴿وَقَالَكَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ أَعْلَمُتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَغْوَلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لَيُخْسِلُوا عَنْ سَيِّلِكَ رَبَّنَا أَطْسِنْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [٨٨] [يومنس: ٨٨] ، وعدم الإيمان حتى يروا

(١). في ظلال القرآن : ١٨١٦ / ٣ .

العذاب هي عقوبة في حد ذاتها، فلو رأى ما رأى من آيات الله، فإن قلبه لن يلين ولن يستجيب لنور الإيمان بسبب ما عليه من طمس وختم، وهذا ما تحقق فعلاً لفرعون، فقد أنزل الله آيات كثيرة على فرعون وقومه مثل (إرسال الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم)، ولكنهم في كل مرة لا يؤمنون، ولكن هذه التفاصيل لا تذكر هنا اختصاراً؛ لأجل الإسراع للوصول إلى العاقبة التي يركز عليها السياق في هذه السورة .

ولأهمية الاستقامة على هدى الوحي، طلب الله من موسى وهارون عليهما السلام عدم الاستغلال بإنجاز الوعد بإهلاك فرعون، فهو ناجزٌ ونافذٌ لا محالة، لأنَّ التفكير بذلك يؤدي إلى تثبط عزائمهم عن مواصلة الإعداد والتخطيط للخروج من مصر، ﴿فَالَّذِي أَنْهَا عَوْتُمَا فَأَسْتَقِيمَا وَلَا تَنْتَعَانَ سَكِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]، يقول المراغي : ((أي: قال لهم عز اسمه قد قبلت دعوتكم في فرعون ومثله وأموالهم، فامضوا لأمرى واثبوا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الحق، ومن إعداد شعبكم للكفاح والجلا وخروج من مصر، ولا تسلكا سبيل الذين لا يعلمون سنتي في خلفي، فيستعجلوا الأمر قبل ميقاته، ويستبطئوا وقوعه في حينه))^(١).

المشهد الخامس: مشهد التنفيذ : غرق فرعون

وهنا ينقلنا السياق إلى المشهد الختامي الذي استقردت به سورة يونس^(٢)، مشهد يتجلى فيه انتصار الحق على الباطل، في تصوير عجيب موجز للعقوبة الوخيمة التي تنتظر فرعون وجنوده، فلا مناص من إنفاذ سنته في المكذبين، فلا القوة تتفع في هذه اللحظة، ولا التتممة بالإيمان تُجدي شيئاً، مصداقاً لقوله ﷺ : ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَقّاً بَرُّوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، فيبدأ المشهد باتباع فرعون النبي الله موسى ومن معه، وهو في كامل غطرسته وعدوانه وغيه، نحو مصيره المرسوم له، ولهذا عبر بالمصدررين اللذين يعرجان حالاً^(٣) ﴿بَعِيَا وَعَدَوَا﴾ للدلالة على تأكيد استحقاق فرعون وجنوده العقوبة، وهم متلبسون بالبغى والعداون،

(١). تفسير المراغي : ١٤٩ / ١١ .

(٢). وردت إشارة مبهمة إلى خبر غرق فرعون في سورة طه، الآية : (٧٨) .

(٣). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٨١ .

فَلَمَا أَحاطَتْ بِهِ الْمَيَاهُ مِنْ كُلِّ حَدِّ وَصُوبٍ وَأَدْرَكَ أَنَّهُ غَارِقٌ لَا مَحَالَةَ، سَارَعَ إِلَى الإِيمَانِ بِاللهِ، وَالْإِسْلَامِ لِرَبِّهِ، لَكِنَّ أَنِّي لَهُ أَنْ تَقْبِلَ تُوبَتِهِ، يَقُولُ ﴿وَجَنَوْزَنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجَنْوْدُهُ بَغْيًا وَعَذَّوْا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ إِيمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِلَّا الَّذِي إِيمَنْتُ بِهِ، بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يوس: ٩٠]، وَهُنَّا السِّيَاقُ بِإِبْدَاعِهِ الْفَنِّيِّ يُرْتَقِي فِي تَصْوِيرِهِ مَشَهُدُ الْخُطَابِ الْمُوجَهُ لِفَرْعَوْنَ، وَقَدْ فَاتَهُ سَاعَةُ النَّجَاهِ، يَصُورُهُ وَكَانَ الْحَدِثُ حَاضِرٌ أَمَانًا نَشَاهِدُهُ بِأَمْ أَعْيَنَا مُسْتَعْمِلًا الظَّرْفَ ﴿إِنَّنِي هُوَ الظَّرْفُ﴾، حَتَّى تَصُلُّ الْعِبْرَةُ إِلَى الْقُلُوبِ بِأَسْهَلِ طَرِيقٍ، ﴿إِنَّنِي وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يوس: ٩١]، هَذِهِ تَنْفِذُ الْمُشَيْئَةِ الْرِّبَانِيَّةِ فِي فَرْعَوْنَ وَجَنْوَدِهِ، وَلَكِي تَكُونَ الْعِبْرَةُ حَاضِرَةً أَكْثَرَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ نَجِيَ اللَّهُ جَنَّةُ فَرْعَوْنَ لِيَرْتَدِعَ مِنْ بَقِيَّةِ الْطَّوَاغِيْتِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَمَنْ يَأْتِي بَعْدِهِ عَلَى مَدَارِ الْأَزْمَانِ وَالدُّهُورِ، ﴿فَالْيَوْمَ نُتَبَّعِيكَ بِيَدِنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ إِيَّاهُ﴾ [يوس: ٩٢]، وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ تَعْرِيْضٌ لِمُشْرِكِيِّيْ مَكَّةَ لِيَؤْمِنُوا حَتَّى لَا يَكُونَ حَالَهُمْ كَحَالِ فَرْعَوْنَ حِينَما نَتَكَبِّرُ وَتَعَالَى عَلَى الْحَقِّ، يَقُولُ الْمَرَاغِيُّ : ((وَوَجَهَ الْعِبْرَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ يَكُونُ شَاهِدًا عَلَى صَدْقَ وَعْدِ اللهِ لِرَسُلِهِ، وَوَعِيَّدَهُ لِأَعْدَائِهِمْ كَطْعَاهَا مَكَّةَ الَّتِي أَنْزَلَتْهُ هَذِهِ الْآيَاتُ لِإِقْامَةِ حَجَّ اللهِ عَلَيْهِمْ قَبْلَ غَيْرِهِمْ))^(١).

وَلِأَهْمَيَّةِ هَذِهِ الْعَاقِبَةِ الْخَطِّرَةِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا هُؤُلَاءِ الْمُتَغَطِّرِسُونَ، يَعْقِبُهُ اللهُ تَحْذِيرًا لِكُلِّ مَنْ تَسُولُ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَتَعَالَى عَلَى الْحَقِّ، وَيَتَرْفَعَ عَلَى الإِيمَانِ، وَتَعْرِيْضًا مِنْ خَطُورَةِ الْغَفَلَةِ عَنِ ذَلِكَ، فَفَرْعَوْنَ غَفَلُ عَنِ الإِيمَانِ بِمَا عَنْهُ مِنْ قُوَّةٍ وَزِينَةٍ، يَقُولُ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنِ إِيمَانِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يوس: ٩٢].

يَتَبَيَّنُ لَنَا مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ الْخَمْسَةِ خَطُورَةِ الْغَطَرَسَةِ وَالْإِسْقَوَاءِ عَلَى الْحَقِّ، فَكُلُّ ذَلِكَ مَآلُهُ إِلَى الْخَسْرَانِ وَسُوءِ الْعَاقِبَةِ، وَلَنَا فِيمَا حَدَثَ لِفَرْعَوْنَ وَجَنْوَدِهِ مَثَلٌ حَيِّيُّ، وَفِي هَذَا يَقُولُ الْمَرَاغِيُّ : ((أَفَرَدْتَ قَصَّةَ مُوسَى وَهَارُونَ مَعَ فَرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَفَصَلَتْ تَقْصِيَّلًا وَافِيَا لِمَا لَهَا مِنْ شَدِيدِ الْخَطَرِ وَعَظِيمِ الْأَثْرِ، إِذْ فِيهَا مِنَ الْعِبْرَةِ أَنَّ قُوَّةَ الْحَقِّ تَنْتَلِّ الْعَرُوشَ وَتَهَدِّدُ أَرْكَانَ

(١). تَفْسِيرُ الْمَرَاغِيِّ : ١١ / ١٥١ .

الباطل وإن علا أصحابه، فقد كان الفلاح والظفر لموسى على ذلك الطاغية الذي قال أنا ربكم الأعلى، وانتهى أمره بالغرق وصار مثلاً للآخرين)^(١).

ولما كانت هذه القصص متراقبة فيما بينها في بيان عاقبة التكذيب بالوحي، كان ما حدث لفرعون من طمس على قلبه وختم على فؤاده يشبه ما حدث للأقوام الذين كانوا بين موسى ونوح عليهما السلام حيث طبع على قلوبهم أيضاً، فلا غرابة إذن أن تأتي قصة موسى بعد قصة أولئك الأقوام، وفي هذا يقول البقاعي مبيناً هذا التناسب : ﴿ كَذَلِكَ نَطَّعْ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٧٤] في كل زمن لكل من تعمد العدو فيما لا يحل له، وهذا كما أتى موسى عليه السلام إلى فرعون فدعاه إلى الله فكذبه فأخبره أن معه آية تصدقه فقال له : ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِثَابِتٍ فَأَتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٦] ، فلما أتاه بها استمر على تكذيبه، وكان كلما رأى آية ازداد تكذيباً، وكان فرعون قد قوي ملكه وعظم سلطانه وعلا في كبرياته وطال تجبره على الضعفاء، فطممت أمواله وأثاره، وبقيت أحدياته وأخباره، ولهذا أفسح سبحانه بقصته فقال : دالاً على الطبع : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَرُوتَكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِيهِ، إِيَّا يَنْتَنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٥])^(٢).

ومن كل ما سبق يتتأكد لنا كيف تكون عنابة الله لأوليائه المؤمنين وحمايته لهم على الرغم من قتلهم وضعفهم.

و قبل أن يسدل الستار على القصة بأكملها بعد تلك العاقبة المُخْزية لفرعون، يُلْمُ السياق في إيجاز شديد بحال بنى إسرائيل الذين تعمموا بالإقامة الكريمة الآمنة وبالطيبات من الرزق بسبب إيمانهم بالوحي، ولكن ذلك لم يَدُمْ بسبب فسقهم واختلافهم في دينهم ودنياهم، وبعدهم عن هدي الوحي، فالبعد عن تعاليم الوحي مهلكة كما حدث قبل قليل مع فرعون وجنوده، ولكن أين المعتبر؟؟ ﴿ وَلَقَدْ بَوَأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبْوَأً صَدِيقِ وَرَفَقَهُمْ مِنَ الظَّيْكَتِ فَمَا أَخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعَلَمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بِنَهْمَ يومَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس: ٩٣]

(١). تفسير المراغي : ١١ / ١٤٠ - ١٤١ .

(٢). نظم الدرر : ٩ / ١٦٨ .

يقول سعيد حوى معلقاً على تاسب القصص السابقة بمقصود السورة :)) في ذكر قصة موسى وفرعون في هذا المقطع تقرير لكون بعثة الرسل ليست عجباً، وتحذير لمن يعاين الرسل، وتبشير لمن يسير على طريقهم بحسن المال وحسن العاقبة، فإذا تذكرا أنَّ هذا المقطع بدأ بقصة نوح ﷺ، ثم بالإشارة إلى الرسل بعده، ثم بقصة موسى وهارون مع فرعون، يجتمع لنا في هذا المقطع مجموعة معان يتقرر فيها من خلال العرض القصصيّ أن من سنة الله إرسال الرسل، وأن من سنته عقوبة المكذبين، وأن يجعل العاقبة للمؤمنين، وفي ذلك إقامة حجة ودروس لأهل الإيمان))^(١).

٤. قصة قوم يونس ﷺ

وردت قصة يونس ﷺ مع قومه في أربع سور (٢)، وهي في هذا الموضوع من سورة يonus تأتي في سياق زمني مشحون بالهموم، وظرف عصيب على الدعوة كما بينا ذلك في أكثر من موضع لتخفف وتسري عن رسول الله ﷺ الذي يرى إعراض قومه عن الحق، وتبيّن له أن هذا الإعراض كائن من لم يأخذوا بأسباب الهدى، فختم على قلوبهم، ولهذا هم لن يؤمنوا، ولو رأوا ما رأوا من الآيات الباهرة حتى يروا العذاب الأليم، وقد رأينا منذ قليل ما حدث مع فرعون وجنوده ورأينا ما حدث قبلهم للأقوام الذين كانوا قبل موسى ﷺ فكلهم لم يهتدوا بسبب أنهم حقت عليهم كلمة العذاب والهلاك، وفي هذا تأكيد لخطورة البعد عن الوحي، فإن القلب يقسو ويصاب بالرanc الذي يحول دون الاهتداء والاعتبار يقول ﷺ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٦٦] ﴿وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ مَا يَتَوَهَّمُونَ حَقًّا يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [٦٧] [يونس: ٩٦ - ٩٧] ، وفي ذلك يقول سيد قطب : ((فلا ينفعهم الإيمان حينئذ لأنَّه لم يجيءُ عن اختيارٍ ، ولم تعد هنالك فرصة لتحقيق مدلوله في الحياة ، ومنذ هنيهة كان أمامنا مشهد يصدق هذا ، مشهد فرعون حين أدركه الغرق يقول : ﴿إِمَّا مَنْ أَنْهَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِلَّا الَّذِي إِمَّا مَنَّتْ بِهِ بُنُوا إِسْرَائِيلَ وَلَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] ... فيقال له : ﴿إِنَّمَا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ

(١). الأساس في التفسير : ٥ / ٢٥١٠ .

(٢). آيات السور الأربع هي : (يونس (٩٨)، والأنبياء (٨٧ - ٨٨)، والصفات (١٣٩ - ١٤٨)، والقلم (٤٨ - ٥٠)) .

من المؤسدين ﴿٦﴾ ؟ [يونس: ٩١])^(١)، ولكن بارقة الأمل تعلو في سماء من افتتح قلبه للإيمان، وطلب الحق من جديد، كما حدث مع قوم يونس حينما رأوا أمارات العذاب، وعلامات الهاك في الأفق، فتحوا قلوبهم للإيمان، فلامس شغاف أفئتهم، فكشف عنهم العذاب المخزي الذي كان سيحْيِّق بهم، ومتعمهم الله في حياتهم إلى حين وفاتهم، هكذا هي الخاتمة الإيجابية حين يؤمن الإنسان بالوحى، يقول ﷺ : ﴿فَوَلَا كَانَ قَرِيبًا مَأْمَنْتُ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا مَأْمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَزْنِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَعَنَّاهُمْ إِلَى حَيَّنِ﴾ [يونس: ٩٨]، ولعظيم هذا الموقف من قوم يونس ﷺ يستعمل السياق أداة التحضيض (لولا) إهابة بالمكذبين ولا سيما مشركون مكة أن يراجعوا حساباتهم ويتخلقوا بخيوط النجاة، مقددين بقوم يونس في المسارعة إلى التوبة في الوقت المناسب قبل حلول العذاب، ويرى سيد قطب أنَّ هذا هو الغرض المباشر من سياقة القصة هذا المسايق^(٢)، فلا غرابة إذن أن يذكر اسم قوم يونس في القصة، بل لا غرابة أن تسمى السورة باسم نبيهم إكراماً لهم على مسارعتهم في الإيمان، في حين نجد أنَّ أولئك الأقوام الذين كانوا بين نوح وموسى عليهما السلام طويت أسماؤهم بسبب ما هم عليه من اللجاجة والاتفاق على الكفر.

وثمة فرق بين قبول توبة قوم يونس وعدم قبولها من فرعون، ففرعون قالها وقد أحاط به الماء من كل حدب وصوب، ولهذا لم تقبل، مصداقاً لقوله ﷺ : ﴿وَلَيَسْتَأْتِيَ الْتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتَ قَالَ إِنِّي تَبَّأْتُ أَلْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمْنَوْنَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]^(٣)، يقول ابن عاشور : ((وإنما لم ينفعه إيمانه؛ لأنَّه جاء به في وقت حصول الموت، وهو وقت لا يقبل فيه إيمان الكافر ولا توبة العاصي)) بخلاف الحال عند قوم يونس الذين تابوا قبل حلول العذاب عليهم .

(١). في ظلال القرآن : ١٨٢٠ / ٣ .

(٢). في ظلال القرآن : ١٨٢١ / ٣ .

(٣). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٧٧ .

س

الفصل الثاني

تناسب الأسلوب والتشابه اللفظي

وفيه ...

❖ المبحث الأول : تناسب الأسلوب

❖ المبحث الثاني : تناسب المشابه اللفظي

المبحث الأول

تناسب الأسلوب

الأسلوب في اللغة :

حينما نتصفح أسفار اللغة، ومعجماتها، بحثاً عن مفردة (الأسلوب)، نلحظ أن دلالات هذه المفردة تطورت خلال الاستعمال اللغوي، وممّن جمع بين تلك الدلالات ابن منظور بقوله : ((وَيُقَالُ لِلسَّطْرِ مِنَ النَّخِيلِ : (أَسْلُوبٌ) ، وَكُلُّ طَرِيقٍ مُمْتَدٌ ، فَهُوَ أَسْلُوبٌ . قَالَ : وَ (الْأَسْلُوبُ) الْطَّرِيقُ ، وَالوَجْهُ ، وَالْمَذْهَبُ ، يُقَالُ : (أَنْتُمْ فِي أَسْلُوبٍ سُوءٍ) ، وَيُجَمِعُ عَلَى (أَسَالِيبٍ) . وَ (الْأَسْلُوبُ) : الطَّرِيقُ تَأْخُذُ فِيهِ ، وَ (الْأَسْلُوبُ) ، بِالضَّمْنِ : الْفَنُ ، يُقَالُ : (أَخَذَ فَلَانٌ فِي أَسَالِيبٍ مِنَ القُولِ) أَيْ أَفَانِينَ مِنْهُ))^(١).

فمن هذا العرض اللغوي ندرك أن الأسلوب يطلق على :

١. الجانب المادي الحسي الذي يسبق اللفظ؛ كالسطر من النخيل أو الطريق المسلوك أو الممتد.

٢. الجانب الفني المعنوي : صياغة المعاني على طريقة معينة أو فن أو مذهب من المذاهب، كما نقول : سلكت أسلوب فلان؛ طريقته، وكلامه على أساليب حسنة^(٢).

وأما الأسلوب اصطلاحاً فلم يخرج عن المدلول اللغوي، إذ عرّفه الجرجاني بقوله : ((والأسلوب الضرب من النظم والطريقة))^(٣)، فالصياغة الأسلوبية عند الجرجاني قائمة على مراعاة مقتضيات علم النحو من قوانينه وأصوله^(٤)، على وفق رؤيته الآتية : ((لا يتصور أن تعرف لفظاً موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتلوّح في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظمها، وأنك تتلوّح الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقوتها بها آثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتاج إلى أن تستأنف فكرها في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في

(١). لسان العرب : ٣ / ٢٠٥٨، (سلب)، ينظر : الكليات : ٨٣، وтاج العروس : (سلب) : ٧١/٣.

(٢). ينظر : البلاغة والأسلوبية : ١٠، والأسلوب : ٤١ .

(٣). دلائل الإعجاز : ٤٢٨ .

(٤). ينظر : دلائل الإعجاز : ١٢٧ .

النطق))^(١)، فالأسلوب أو النظم ليس عنده هو سبك المفردات أو تتابعها في النطق، بل هو أعمق من ذلك بكثير، فهو قائم على تعانق الدلالات والمعاني حسب ترتيبها في النفس ترتيبا خاضعا لمعنى النحو، ومن ثم كانت الألفاظ عنده أوعية للمعاني، وتابعة لها في مواقعها، وبعبارة أوضح، الأسلوب عند الجرجاني يبدأ بطريقة التفكير ثم بالأداء اللفظي مع توخي معاني النحو الذي يزدان به الأسلوب تألفا^(٢).

و قريب من تعريف الجرجاني ما ذهب إليه ابن خلدون حين عرف الأسلوب :)) عبارة عن المنوال الذي تتسع فيه التراكيب أو القالب الذي ترصن فيه، ... وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص. و تلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب و أشخاصها و يصيرها في الخيال كال قالب أو المنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب و البيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الواافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي))^(٣)، فابن خلدون يرى أن الأسلوب)) الأداء اللفظي المطابق للصورة الذهنية لمفهوم الأسلوب الناجم عن قوة الملكة في اللسان العربي الذي هو ثمرة الاعتماد على الطبع والتمرس بالكلام البليغ))^(٤)، وحقيقة الأمر أنَّ كلا التعريفين السابقين متقارب، فهما يعنيان بالصور الذهنية التي تتحمر في العقل والنفس ليتم سبکها في قوالب لفظية.

ولو أردنا أن نحمل وجهتي نظر هذين العالمين الجرجاني وابن خلدون إلى الأسلوب، فالأسلوب عند الجرجاني يرتكز على الطريقة الخاصة في ترتيب المعاني، بما تحتويه هذه

(١). دلائل الإعجاز : ١٠٥ .

(٢). ينظر : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ٤٢/١ .

(٣). المقدمة: ٣ / ٢٧٩ .

(٤). تاريخ الأدب في عصره الذهبي : ١٠٣ - ١٠٤ ، نقاً عن خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ١ / ٤٣ .

الطريقة من إمكانات نحوية^(١)، بينما الأسلوب عند ابن خلدون هو صورة ذهنية كما تقتضيها التراكيب المنظمة^(٢).

ومن كل ما سبق يتبين أن الأسلوب لا يخرج عن عنصرين مهمين؛ هما الألفاظ، والمعاني، فبهما يتكون الأسلوب، ثم يضاف إليهما طريقة صياغتهما التي يتميز بها كل أديب أو شاعر أو عالم أو باحث من الآخر، وعليه فالأسلوب هو طريقة صياغة الألفاظ المتنقة والتراكيب المنسجمة مع بعضها بعضاً لترجم المعاني المنطبعة في الذهن والنفس، بهدف الإفادة أو التأثير في المتلقى، مع مراعاة مقتضيات الذوق الفني، والتطبيق العملي لقواعد اللغة.

(١). ينظر : الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم : ٤١ .

(٢). ينظر : الأسلوب البلاغي في القرآن الكريم : ١٢٩ .

الأسلوب القرآني

يتميز القرآن الكريم بأسلوبه الذي ينسق بتوزن عجيب بين عناصره : (اللفظ، والمعنى، والإيقاع الموسيقي، والصور والضلal)، وهو ما كان يسعى إليه أساطين اللغة، وأصحاب العرب أن يوجدوا من علاقة توازن بين اللفظ والمعنى في نظمهم وأشعارهم وخطبهم، حتى لا يكون عرضة للانتقاد، فلهذا كان بعضهم ينفع قصidته حولاً كاملاً حتى يكون له ما أراد من التوازن بين اللفظ والمعنى، ولكنهم مع ذلك السعي يخلون بالتوازن المطلوب، ومما يروى في ذلك على خلفية عدم التوازن بين عناصر أسلاليتهم، هو ما أنسدَه حسان بن ثابت - قبلبعثة محمدية - مفترحاً^(١) :

لنا الجفනات الغر يلمعن بالضحي
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابني محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما
ولما سمع النابغة الذبياني إنشاده قال له : إنك لشاعر ، لولا أنك قللت جفانك ،
وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، وقلت : (يلمعن في الضحي) ، ولو قلت : (
يبرقن بالدجى) لكان أبلغ في المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طرفاً ، وقلت : (يقطرن من
نجدة دما) ، فدللت على قلة القتل ، ولو قلت : (يجرين) لكان أكثر لانصباب الدم)^(٢) ،
إذا كانوا ينقدون بعضهم بعضاً في حال انعدام التاسب بين اللفظ والمعنى ، فإن الغرابة ليس
لها مكان في العقول حين نرى عجز العرب دون أن يأتوا بمثل أسلوب القرآن الكريم ،
فأسلوب القرآن - كما يصفه سيد قطب - هو ذلك (التسقى الذي يسمح لكل لفظ بأن يُشَيَّعَ
شحنته من الصور ومن الإيقاع ، والذي يؤلف إيقاعاً متتسقاً بين الألفاظ ، وظللاً متتسقة
فذلك من ظلال الألفاظ)^(٣) .

وهذا التسقى المعجز بين عناصر الأسلوب القرآني يجري على نسق واحد في كل الآيات وال سور مكيها ومدنبيها ، قصيرة كانت أم طويلة ، لا يختلف في قوة النظم ولا في إحكام السبك ، وفي ذلك يقول الجرجاني : (أعجزتم مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص

(١). ينظر : ديوان حسان بن ثابت : ٢١٩ .

(٢). خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ١ / ٥٩ - ٦٠ .

(٣). النقد الأدبي وأصوله ومناهجه : ٥٠ .

صادفها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها، ومجاري الفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتبيه، وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كل حجّة وبرهان، وصفة وتبیان، وبهـرـهم أنـهـمـ تـأـلـوـهـ سـوـرـةـ سـوـرـةـ، وعشراً عشراً، وأيـةـ آـيـةـ، فـلـمـ يـجـدـواـ فـيـ الجـمـيـعـ كـلـمـةـ يـنـبـوـ بـهـاـ مـكـانـهـاـ، وـلـفـظـةـ يـنـكـرـ شـائـنـهـاـ، أـوـ يـرـىـ أـنـ غـيـرـهـاـ أـصـلـحـ هـنـاكـ أـوـ أـشـبـهـ، أـوـ أـخـلـقـ، بـلـ وـجـدـواـ اـتـسـاقـاـ بـهـرـ العـقـولـ، وـأـعـجـزـ الـجـمـهـورـ، وـنـظـامـاـ وـالـتـائـماـ، وـإـتـقـانـاـ وـإـحـكـامـاـ، لـمـ يـدـعـ فـيـ نـفـسـ بـلـيـغـ مـنـهـمـ، وـلـوـ حـلـكـ بـيـافـوخـهـ السـمـاءـ، مـوـضـعـ طـمـعـ، حـتـىـ خـرـسـتـ الـأـلـسـنـ عـنـ أـنـ تـدـعـيـ وـتـقـولـ، وـخـذـيـتـ الـقـرـوـمـ فـلـمـ تـمـلـكـ أـنـ تـصـوـلـ)) (^١ .

وللأسلوب القرآني عدّة مظاهر، تردد تناسب الآيات بما يتوافق مع سياق السورة التي وردت فيها، وهذا ما نراه جلياً في سورة يونس، فقد شاع فيها كثير من الأساليب .

تناسب التوكيد :

يخدم أسلوب التوكيد مقصود السورة في الرد على شبّهات الكفار حول الوحي والقرآن الكريم، في حقبة اشتـدـ فيها الأـذـىـ عـلـىـ الرـسـوـلـ ﷺـ وـصـحـبـهـ رـضـوـانـ اللـهـ عـلـيـهـمـ، فـكـانـواـ بـحـاجـةـ إـلـىـ مـاـ يـُـذـهـبـ عـنـهـ حـزـنـهـمـ وـكـرـبـهـمـ، وـيـشـدـ مـنـ أـزـرـهـمـ .

والتوکید : ((لفظ يتبع الاسم المؤكّد لرفع اللبس وإزالة الاتساع))^(٢) ، وهو ((تمكين معنى القول عند السامع، وهو قسمان : لفظي ومعنوي، ف(اللفظي) : إعادة المؤكّد بلفظه ...، وهذا يكون في الأسماء، والأفعال، والحراف، والمفردات، والجمل، و(المعنوي) : هو إعادة الشيء المؤكّد بما يدلّ على معناه))^(٣) .

فائدة التوكيد : ((وجـدـوـيـ التـأـكـيدـ أـنـكـ إـذـ كـرـرـتـ؛ فـقـدـ قـرـتـ المـؤـكـدـ، وـمـاـ عـلـقـ بـهـ فـيـ نفسـ السـامـعـ، وـمـكـنـتـهـ فـيـ قـلـبـهـ، وـأـمـطـتـ شـبـهـةـ، رـبـمـاـ خـالـجـتـهـ، أـوـ تـوـهـمـتـ غـفـلـةـ وـذـهـابـاـ عـمـاـ أـنـتـ بـصـدـدـهـ، فـأـزلـتـهـ))^(٤) .

(١). دلائل الإعجاز : ٩٤ .

(٢). اللمع في العربية : ٨٤ .

(٣). اللمحـةـ فـيـ شـرـحـ الـمـلـحةـ : ٢ / ٧٠٥ .

(٤). شـرـحـ المـفـصـلـ لـابـنـ يـعـيشـ : ٢ / ٢٢١ .

وللتأكيد صور متعددة يؤتى بها على حسب ما يقتضيه السياق، وبما يراعي حال المخاطب، فإذا كان المُخاطب خالي الذهن، يتقبل ما يلقى عليه من دون إنكار أو شكّ أو تردد، فإنه يلقى إليه الخبر خالياً من التوكيد، وإن كان المُخاطب في نفسه شكّ أو تردد، حسن تأكيد الخبر له؛ لإزالة ما بنفسه من شكّ، وإن كان المُخاطب منكراً جاحداً، فيجب أن يؤكد له الخبر بمقدار نكرانه وجوهه^(١).

وللتأكيد في سورة يونس عدة صور، جاءت بمختلف الطرق بما يتناسب مع السياق في هذه السورة الكريمة، ومن بين هذه الطرق :

١. التوكيد بـ (إنَّ)

(إنَّ) لها معان كثيرة، إلا أن الأصل المتजذر فيها الذي يدور معها حيثما وردت هو (التأكيد)، وفائدتها التوكيد^(٢) : ((لمضمون الجملة، فإنَّ قول القائل : (إنَّ زيداً قائمٌ) ناب مناب تكرير الجملة مرتين، إلا أن قوله : (إنَّ زيداً قائمٌ) أوجز من قوله: (زيداً قائمٌ زيداً قائمٌ)، مع حصول الغرض من التأكيد))^(٣)، فضلاً عن دلالة توكيد النسبة بين جزأي جملتها، ونفي الشك عنهما، يقول خالد الأزهري : ((وهما - إنَّ و أنَّ - لتأكيد النسبة بين الجزأين، ونفي الشك عنها، ونفي الإنكار لها، بحسب العلم بالنسبة والتردد فيها، والإنكار لها، فإنَّ كان المخاطب عالماً بالنسبة، فهما لمجرد توكيد النسبة، وإذا كان متربداً فيها، فهما لنفي الشك عنها وإنَّ كان منكراً لها، فهما لنفي الإنكار لها، فالتأكيد لنفي الشك عنها مستحسن، ولنفي الإنكار واجب، ولغيرهما لا))^(٤).

ومن أمثلة تناسب التوكيد بـ (إنَّ) في سورة يونس، قوله ﷺ : ﴿إِنَّهُ يَبْدُوا لَهُمْ ثُمَّ يُعِيذُهُم﴾ [يونس: ٤]، إذ وردت هذه الجملة القرآنية على إثر إثبات المعاد والمرجع إلى الله بعد الموت، ﴿إِيَّاهُ مَرْجِعُكُمْ جَيْمًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ [يونس: ٤]، وهي قضية كبرى من مقتضيات الوحي الذي يشكون فيها وينكرونها، ولهذا السبب كان تأكيد الجملة بـ (إنَّ) لثبيتها في نفوسهم بأنها حقيقة لا تشوبها شائبة شاكٌ، إلى جانب نفي الإنكار لنسبة الإعادة

(١). ينظر : البلاغة فنونها وأفنانها : ١ / ١١٥ .

(٢). شرح المفصل لابن يعيش : ٤ / ٥٢٦ .

(٣). شرح التصريح على التوضيح : ١ / ٢٩٤ .

إلى الله، ذلك لأن الإعادة أهون من البدء، فمن قدر على البدء يكون أقدر على الإعادة، كما يقول في آية الروم : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهُونُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، يقول ابن عاشور : ((وموقع (إن) تأكيد الخبر نظراً لإنكارهم البعث، فحصل التأكيد من قوله : ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أما كونه بدأ الخلق فلا ينكرونه))^(١).

ومن تناسب التوكيد بـ (إن) ما جاء في معرض اللجاج والعناد الذي يتسم به الطبع البشري على مدار التاريخ إزاء آيات الله الكونية التي كانت تنزل عليهم تترى، ويرونها رأي العين، فيسرون بالمفاجأة الغربية، وهي المكر والاستهزاء والطعن فيها، ومواصلة العصيان، فينسبونها إلى الأسباب المادية جحوداً ونكراناً، في مقام هو أدعى إلى الإيمان والطاعة والشك، وهذا ما كان من مشركي مكة في مقابلة نعمة كشف القحط والجدب الذي ألم بهم، فقد قابلوا هذه النعمة بمكرهم واستهزائهم في الخفاء بالنبوة والوحى، حين نسبوها إلى الأنواء المناخية مكابرة، فقالوا : مطرنا بالأنواء، بعدها كانوا يلحون على الرسول ﷺ أن يدعو ربه ليكشف عنهم ما يجدون، وكان حريًّا بهم أن يشكروا الله هذه النعمة التي يرقُّ لها القلب إجلالاً لكافرها الذي يصرف هذه الآيات الدالة على استحقاقه العبادة، يقول الله تعالى واصفاً هذا الطبع البشري الغريب : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءٍ مَّسْتَهِمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرُرٌ فِي أَيَّاِنَا﴾ [يونس: ٢١]، ولما كانت جريمة المكر بالأيات والتشكيك في الوحي والنبوة، عظيمةً، كان لابد من ردع هؤلاء، فجاء الخطاب مُباشراً، يحمل في طياته التهديد والوعيد، بأن الله قد دبر لهم من قبل عقابهم، وهو مُوقِّعٌ بهم، من قبل أن يدبوا ويمكروا، بل إنَّ مكرهم، إن كان لا يعلم عنه الرسول شيئاً، فهو مكشوف لله، لا يخفى عليه شيء منه، ومسجل عنده بواسطة ملائكته الحفظة ﴿قُلِ اللَّهُ أَشَرُّ مَكْرُرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢١]، ولكي يكون للتهديد وقع في نفوس هؤلاء المنكري المستهزئين أكد بـ (إن) بكل ما تحمله من جرس صوتٍ شديدٍ، ويزداد التوكيد فخامةً بتعانقه مع ضمير العظمة في كلمة ﴿رُسُلَنَا﴾ بما فيه من دلالة الالتفات التي تتسمج مع دلالة الالتفات الأخرى في الفعل ﴿تَمَكَّرُونَ﴾

(١) التحرير والتنوير : ٩١ / ١١ .

بالغة في الإعلام بمكرهم^(١)، إلى جانب دلالة الاستمرار والتجدد في الفعل المضارع ﴿يَكْتُبُونَ﴾، مما يجعل نبرات التهديد تشتّد، فتقعر قلوب هؤلاء المنكرين، يقول ابن عاشور : ((وجملة : ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمَكِّرُونَ﴾ [يونس: ٢١] [استئناف خطاب للمشركين مباشرةً تهديداً من الله، ... وتأكيد الجملة لكون المخاطبين يعتقدون خلاف ذلك، إذ كانوا يحسّبون أنّهم يمكرون بالنبي ﷺ وأنّ مكرهم يتمشى عليه ولا يشعر به فأعلمهم الله بأنّ الملائكة الموكلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك. والمقصود من هذا أنّ ذلك محضي معدود عليهم لا يهمّ، وهو إنذار بالعذاب عليه، وهذا يستلزم علم الله تعالى بذلك، وعبر بالمضارع في يكتبون ويمكرون للدلالة على التكرر، أي : تكرر كتابتهم كلما يتكرر مكرهم))^(٢).

ومن صور تتناسب التوكيد بـ (إن) مجّيئها بعد أدلة التبيه (ألا) في قوله ﷺ : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا يَحْوِفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] ، فالآية الكريمة تعالج ضيقاً نفسياً، وهما عميقاً يعتمل في نفس الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم بسبب ما يعانونه من الأذى والتهديد، في حقبةٍ حرجةٍ كما علمنا سابقاً، وافتلاع هذا الضيق بحاجةٍ إلى التطمئن النفسي الذي يلمس حنايا النفس، فتشتّل من عقالها لمواصلة الدعوة في سبيل الله، مستأنسة بنصره ﷺ، وبالامن من مخافة أعدائهم، ومع هذا السياق المشحون بالأسى يتتناسب مجيء التوكيد بـ (ألا و إن)، بما فيهما من دلالة التبيه والتوكيد، مؤزرتين بالتركيب الإضافي ﴿أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾، لتذهب هذه الأساليب بهذا الأنس الرباني والاطمئنان النفسي كلّ مذهبٍ في هذه النفس المهمومة، يقول ابن عاشور : ((استئناف للتصرّح وبعد المؤمنين وبتسليمة النبي ﷺ على ما يلاقيه من الكفار من أذى وتهديد، إذ أعلن الله للنبي والمؤمنين بالأمن من مخافة أعدائهم، ومن الحزن من جراء ذلك، ولمّح لهم بعاقبة النصر، ووعدهم البشري في الآخرة وعداً لا يقبل التغيير ولا التخلف تطميناً لنفسهم، ...، وافتتاح الكلام بأدلة التبيه إيماء إلى أهمية شأنه، ...، ولذلك أكدت الجملة بـ (إن) بعد أدلة

(١). ينظر : الباب في علوم الكتاب : ١٠ / ٢٩٠ .

(٢). التحرير والتوير : ١١ / ١٣٤ ، وينظر : نظم الدرر : ٩ / ٩٧ .

التبنيه، وفي التعبير بـ ﴿أَوْلَيَاءَ اللَّهِ﴾ دون أن يؤتى بضمير الخطاب ... يؤذن بأن المخاطبين قد حق لهم أنهم من أولياء الله (١). (١).

ومن صور التوكيد بـ (إن) أن يقترن أحد معموليها بـ (اللام) التي تقييد هي الأخرى التوكيد، مما يجعل التوكيد يقوى ويزداد، فتأتي في سياق المبالغة، يقول الدكتور فاضل السامرائي : ((فاجتمع إن واللام يكون عند المبالغة في التوكيد)) (٢).

ومن الأمثلة على صورة تناسب التوكيد بـ (إن) و (اللام)، قوله ﷺ : ﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرْيَةً مِنْ قَوْمِهِ عَلَى حَوْفِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَتِهِمْ أَنْ يَقْتَلُنَّهُمْ فَلَمَّا كَانَ فِرْعَوْنَ لَعَالِمًا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، فلما كان السياق سياق الإخبار عن إيمان الفتى الصغار

بموسى عليه السلام على خوف شديد، في زمن لم يدخل فيها فرعون جهداً للتكيل والتعذيب بكل من يفكر من رعيته في الإيمان (٣)، أكدت الجملة بـ (إن) و (اللام) لتبرز مدى الخوف الذي كان يحيط بهؤلاء الفتى، فضلاً عن تعليها أحقيتهم في هذا الخوف والرعب، كيف لا، والحال أنَّ فرعون قد بالغ في علوه وتكبره وظلمه وفساده بالقتل وسفك الدماء لدرجة الإسراف (٤)، ناهيك عن إفادته (إن) و (اللام) تحقيق مضمون الجملة على أرض الواقع .

ومما ي不准 المبالغة في توكيد هذا المعنى، دلالة التكير في كلمة ﴿لَعَالِ﴾، التي تقييد التكثير، إلى جانب تركيب الجار والمجرور ﴿لِمَنِ الْمُسْرِفِينَ﴾ الذي يدل على تمكن صفة الإسراف في طبع فرعون، وكل ما سبق اكتفته الجملة الاسمية التي بدورها تقييد ثبوت العلو والإسراف في فرعون، يقول ابن عاشور : ((جملة : ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لِمَنِ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣] ، في موضع الحال فهي عطف على قوله : ﴿عَلَى حَوْفِي مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ [يونس: ٨٣] ، وهي تقييد معنى التعليل لخوفهم من فرعون، أي : إنهم محظون في خوفهم الشديد، ...، إذ آمنوا في حال خوفهم من الملك مع قدرته على أذاهم، ومن

(١). التحرير والتنوير : ١١ / ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢). معاني النحو : ١ / ٣٠١ .

(٣). ينظر : في رحاب التفسير : ١١ / ١٧٠٥ .

(٤). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٧٠٠ .

ملئهم، أي : قومهم، وهو خوف شديد، لأن آثاره تنترق المرء في جميع أحواله حتى في خلوته وخوسته لشدة ملابسة قومه إياه في جميع تقلباته بحيث لا يجد مفرأً منهم، ثم اتبعه بيان اتساع مقدرة فرعون بيان تجاوزه الحد في الجور، ومن هذه حالته لا يرّعه عن إلحاده الضر بأضداده وازع . وتأكيد الخبر بـ (إن) للاهتمام بتحقيق بطش فرعون)^(١).

٢. التوكيد بـ (اللام) الواقعية في جواب القسم :

من الأساليب الكثيرة التي يتخدّها التوكيد في تقويته الكلام، أسلوب القسم، يقول سيبويه : ((اعلم أنَّ القَسْمَ تُوكِيدٌ لِكَلَامِكَ))^(٢)، والغرض من هذا الأسلوب هو إزالة الشك عن المخاطب بإثبات الخبر المقسم عليه سواء في الإثبات أم النفي^(٣).
ولأسلوب القسم صورتان، هما :

الصورة الأولى : ظاهراً أو صريحاً : قوله عدة أنواع؛ منها، أن يصرح فيه بحرف القسم، كقوله ﴿وَيَسْتَئْعُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِنِّي وَرِيقٌ إِنَّمَا لَحَقُّ وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزٍ﴾ [يونس: ٥٣]، فلما كان السياق في هذه الآية للرد على أسئلة المكذبين المشككين بعذاب الآخرة الذي طالما حذّرّهم الرسول والوحي ﴿أَنَّهُ سيقع بهم إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾، ﴿وَيَسْتَئْعُونَكَ أَحَقُّ هُوَ﴾، جيء بآداة الجواب (إي) لتدل على تحقق المسؤول عنه (عذاب الآخرة)، ومما يعضّد دلالة هذه الأداة (إي) أنه لا يقع بعدها إلا أسلوب القسم ﴿وَرِيقٌ إِنَّمَا لَحَقُّ﴾، وزيد هذا الرد تحقيقاً وتقريراً بالنفي الثابت المؤكّد بالباء في الجملة الاسمية ﴿وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزٍ﴾، فكان الردّ متناسباً مع شدة إنكارهم وتشكيكهم بعذاب الآخرة، يقول أبو السعود : ((أَكَّدَ الْجَوَابُ بِأَتَمْ وَجْوِهِ التَّأْكِيدِ حَسْبَ شَدَّةِ إِنْكَارِهِمْ وَقُوَّتِهِ وَقَدْ زِيدَ تَقْرِيرًا وَتَحْقِيقًا بِقُولِهِ عَزَّ اسْمُهُ ﴿وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزٍ﴾ [يونس: ٥٣] أي : بفائتين العذاب بالهرب وهو لاحقكم لا محالة))^(٤).

(١). التحرير والتتوير : ١١ / ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٢). الكتاب : ٣ / ١٠٤ .

(٣). ينظر : شرح المفصل لابن عبيش : ٩ / ٩ .

(٤). تفسير أبي السعود : ٤ / ١٥٤ .

الصورة الثانية : مضمراً أو غير صريح : وهو المدلول عليه بجوابه المقربون باللام التي ابتدئ بها الكلام، وقد ورد في سورة يوں نوعان، هما :

أ. إذا دلت عليه اللام الموطئة للقسم ولام جواب القسم : كقوله ﷺ : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسْرِكُ فِي الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلُكِ وَجَرَيْنَ إِلَيْمَ رِيحَ طِينَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمْ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أَحْيَطُ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَمْ يُنْجِيْنَا مِنْ هَذِهِ الْنَّكْوَنَاتِ مِنَ الشَّنَّكِرِينَ ﴾ [يوں: ٢٢] ، لما كان الموقف عصيّاً على أهل السفينة الذين تقطعت بهم سبل النجاة؛ فقد فاجأتهم الريح العاصف، والموج من كل مكان، أخذوا يلحون في الدعاء لله مخلصين له في دعائهم؛ إنّ نجوا من الغرق فإنهم سيكونون من الشاكرين التائبين العابدين، ﴿ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَمْ يُنْجِيْنَا مِنْ هَذِهِ الْنَّكْوَنَاتِ مِنَ الشَّنَّكِرِينَ ﴾ فأكروا دعائهم وشكّرهم بأربعة مؤكّدات هي : اللام الموطئة، ولام القسم، ونون التوكيد، والتعبير بالجار وال مجرور ﴿ مِنَ الشَّنَّكِرِينَ ﴾ ، وفي ذلك يقول الألوسي : ((واللام موطئة لقسم مقدر ولن تكون جوابه، وال المشار إليه بهذه الحال التي هم فيها أي والله لئن أنجيتنا مما نحن فيه من الشدة لنكونن البتة بعد ذلك أبداً شاكرين لنعمك التي من جملتها هذه النعمة المسؤولة والعدول عن (لنشكّر) إلى ما في النظم الجليل للمبالغة في الدلالة على الثبوت في الشكر والمثابرة عليه))^(١).

ب. إذا دلت عليه (اللام) و (قد)، كقوله ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيَتَوَمَّنُوا كَذَلِكَ نَجَزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوں: ١٣] ، تحمل الآية الكريمة في طياتها إشارات الوعيد والتهديد بعذاب الاستصال لمشركي مكة، مقرونة بضرب الأمثال لهم مما حلّ بالأمم السابقة؛ لأنّهم جميعاً مشتركون فيما يقتضي إهلاكهم، وهو الظلم والكفر والغرور بتأخير العذاب، ولأجل تغليظ هذا التهديد في قلوب هؤلاء المنكرين العذاب، خوطبوا خطاباً مباشراً على طريقة أسلوب الالتفات الذي يفيد مزيد التبيه، وتوجيهه أذهان المخاطبين إلى خطورة ما هم عليه من الكفر^(٢)، مؤكداً ذلك

(١). روح المعاني : ١١ / ٩٨ .

(٢). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٧٠ .

بالقسم (باللام) و (قد) التي تقييد التحقيق ، يقول أبو السعود : ((الخطاب لأهل مكة على طريقة الالتفات للمبالغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القسمى))^(١).

ومثاله أيضاً قوله ﷺ : ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلَنَا إِلَيْكَ فَسُئِلُ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَبَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَنَّينَ﴾ [يومنس : ٩٤] ، ظاهر الآية أن الرسول ﷺ وقع في الشك والريب فيما أنزل إليه ، إلا أن الآية هدفت بهذا الخطاب الموجه إلى الرسول على سبيل الفرض والتقدير التعريض بالمرشكين الذين لا ينفكون عن التشكيك في القرآن الكريم ، ومنعاً لذلك اللبس الذي قد يفهم لأول وهلة من قراءة الآية ، عقبت الآية بالتأكيد بـ (اللام و قد) ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [يومنس : ٩٤] ، وما يقوى إزالة هذه الشبهة عن الرسول الأعظم ، دلالة النهي عن أن يكون من جملة الشاكين الذين يضطرون إلى السؤال ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَنَّينَ﴾ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَيْنَتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [يومنس : ٩٥ - ٩٤] ، يقول محمد رشيد رضا : ((وما يؤكّد كون السؤال مفروضاً فرضاً قوله : ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فهذه الشهادة المؤكدة بالقسم من ربه ، تجثّت احتمال إرادة الشك والسؤال بالفعل من أصله ، ويزيدها تأكيداً قوله تعالى : ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَنَّينَ﴾ أي : من فريق الشاكين الذين يحتاجون إلى السؤال ، وهذا النهي والذى بعده يدلان على أن فرض وقوع الشك والسؤال فيما قبلهما عنه تعريض بالشاكين الممترفين والمكذبين له ﷺ من قومه))^(٢).

٣. التوكيد بـ (الحال ، الحال المؤكدة)

من أساليب التوكيد في الكلام ، التوكيد بالحال ، وتسمى : (الحال المؤكدة) ، وهي : ((التي تجيء على إثر جملة ، عقدها من اسمين لا عمل لها ، لتوكيد خبرها وتقرير مؤداه ، ونفي الشك عنه ، وذلك قوله : (زيد أبوك عطوفاً) ، و (هو زيد معروفاً) ، وهو

(١). تفسير أبي السعود : ٤ / ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢). تفسير المنار : ١١ / ٤٠٥ .

الحق بیناً، ألا ترك حققت بالعطوف الأبوة، وبالمعروف والبين أن الرجل زيدٌ ، وأن الأمر حق، وفي التنزيل: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً﴾ [البقرة: ٩١] (١).

وتتقسم الحال المؤكدة على ثلاثة أقسام :

أ. المؤكدة لعاملها : ((وهي كل وصف وافق عامله إما معنى دون لفظ في نحو : (لا تعش في الأرض مفسداً) ، و﴿يُمْ وَلَيَتُمْ مُذَرِّيْنَ﴾ [التوبه: ٢٥] ، أو معنى ولفظاً نحو : ﴿وَأَزَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩])) (٢).

ومثال ذلك في سورة يونس قوله ﷺ: ﴿وَلَكُلُّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧] ، لما كانت مشافة الرسل عليهم السلام الذين يبلغون رسالات ربهم، جرمًا عظيمًا، وخطراً وبيلاً، يستدعي معاقبة المكذبين المعاندين، والفصل بينهم بالعدل والقسط، خيف أن يفهم من فحوى الجملة الكريمة : ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ (٣) بأن القضاء والعقاب سيكون شديداً مبالغًا فيه، مع أن الآية نفسها أشارت إلى قضية العدالة : ﴿بِالْقِسْطِ﴾ ، ولكي ينتفي هذا الفهم تماماً جاء بالحال : ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ، توكيداً لعاملها الذي هو : ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ ، للدلالة على أنّ القضاء هنا قضاء عدْلٌ وفائقاً على قدر الجرم، لا يشوبه ظلم ولا إفراط ولا تفريط، وفي هذا التركيب بأجمعه : ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ إشارة تحذير وإنذار إلى مشركي مكة من مخالفة هدي الرسول ﷺ؛ لأنّه قائم على العدل وعدم الظلم، يقول ابن عاشور : ((ولما أشعر قوله : ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بأن القضاء قضاء زجر لهم على مخالفة رسولهم وأنه عقاب شديد يكاد من يراه أو يسمعه أن يجول بخاطره أنه مبالغ فيه أتي بجملة ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ،

(١). شرح المفصل لابن عييش : ٢ / ٦٤ .

(٢). حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك : ٢ / ٢٧٥ .

(٣). للمفسرين قولان في تفسير القضاء لا يخرجان عن مدلول النجاة والهلاك العادلين؛ فمنهم قالوا : إن المراد به في الدنيا، نجاة الرسول والمؤمنين له ، وإهلاك المكذبين، بعدهما بلغ رسولهم المرسل إليهم رسالته، ومنهم من قال : بأن المراد بالقضاء ما يكون في الآخرة من إدخال الرسول والمؤمنين الجنة، وإدخال المكذبين النار، بعدما يشهد عليهم الرسول. ينظر : البحر المحيط : ٥ / ١٦٤ .

وهي حال مؤكدة لعاملها الذي هو ﴿فُضَّلَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ للإشارة بأن الذنب الذي قضي عليهم بسببه ذنب عظيم ^(١).

بـ. المؤكدة لصاحبها : ((وَهِيَ الَّتِي يُسْتَفَادُ مَعْنَاهَا مِنْ صَرِيحِ لِفْظِ صَاحِبِهَا)) ^(٢)
 كقولك : (جاءَ النَّاسُ قَاطِبَةً أَوْ كَافَّةً أَوْ طَرَا) ، قوله ﷺ : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ إِمَّا تَنْهَىٰ أَذْهَلُوا
 فِي السَّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨] ، فـ ﴿كَافَّةً ﴾ حال مؤكدة للضمير في ﴿أَذْهَلُوا ﴾ .
 ومن تاسب الحال المؤكدة لصاحبها في سورة يونس، قوله ﷺ : ﴿وَإِذَا تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ
إِيَّاَنَا بَيْنَتِي قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَتْ بِقُرْءَانٍ غَيْرَ هَذَا أَوْ بِدَلَّهُ قُلْ مَا يَكُوْنُ لِيْ أَنْ
 أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيْكَ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾]
 يونس: ١٥ [، فالحال هنا ﴿بَيْنَتِي﴾ حال مؤكدة لصاحبها ^(٣) ، وهو : ﴿إِيَّاَنَا﴾ إلى جانب أنها حال لازمة، وفي ذلك دلالة على أن البيان والوضوح ملازم آيات القرآن الكريم، لا ينفك عنها في جميع الأحوال، ومما يقوى هذه الدلالة هو مجيء الفعل المضارع :
 ﴿تُنَزَّل﴾ الذي يفيد الاستمرار والتجدد، مبنياً للمجهول، يشير إلى وضوح هذه الآيات التي لا تحتاج إلى تعبيين تالٍ لها ^(٤) ، مع إضافة هذه الآيات إلى ضمير العظمة، كل ذلك، فيما يبدو لي، يعضد سرّ مجيء الحال مؤكدة لصاحبها، وهو التعجب من حال هؤلاء المنكريين الذين يطرحون طلبات غريبة وعجيبة؛ كطلب الإتيان بقرآن غير هذا القرآن أو تبديله، وهذا ما أشار إليه ابن عاشور بقوله : ((ووصف الآيات بـ ﴿بَيْنَتِي﴾ لزيادة التعجب من طلبهم تبديلاً لا بطلب تبديله إذ لا طمع في خير منه)) ^(٥).

(١). التحرير والتنوير : ١١ / ١٨٨ ، وينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١١٢ .

(٢). شرح شذور الذهب / ٢٧١ .

(٣). يقول أبو حيان في آية سورة مريم التي ورد فيها أيضاً ﴿بَيْنَتِي﴾ حالاً مؤكدة لصاحبها : ((وبيانات حال مؤكدة لأن آياته تعالى لا تكون إلا بهذا الوصف دائماً)) البحر المحيط : ٦ / ١٩٨ ، وهو ما ينطبق على هذه الحال في سورة يونس .

(٤). ينظر : تفسير الوسيط للقرآن الكريم : ٧ / ٤٠ .

(٥). التحرير والتنوير : ١١ / ١١٦ .

ومنه أيضاً قوله ﷺ : ﴿وَأَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَا مَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، فالآلية جاءت في سياق بيان أن الإيمان والافتقار به يدور في فلك المشيئة الربانية؛ فلو أراد الله تعالى أن يجعل الناس مجتمعين على الإيمان به على عمومهم واختلاف مشاربهم، لا يشذ أحد منهم، لما كان لهم الخيار في عدم الإيمان به، ولما كانت دلالة الاسم الموصول ﴿مَن﴾ قد تحتمل العموم العرفي والعموم الحقيقى، جيء بالحال ﴿جَمِيعًا﴾ لتأكيد عموم أفراد صاحبها على وجه الحقيقة^(١) في عدم قدرة أيٍّ منهم على الخروج على هذه المشيئة الربانية في الاجتماع على الإيمان بالله في وقت واحد، ولكن الله تعالى لم يشاً ذلك؛ لأنَّه خلق الإنسان مستعداً للخير والشر، وللهدى والضلال^(٢).

ويبدو لي أن هذه الحال المؤكدة تدلُّ على تخفيف العبء النفسي الناتج عن الرغبة الجامحة لدى الرسول ﷺ في إقناع الناس جميعاً بالرسالة والوحى؛ فإذا كان الله تعالى القادر على إكراههم وجمعهم على دين واحد، لا يود ذلك؛ لأنَّه خلاف حكمته، كما توضحت آية سورة البقرة : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فكيف بك يا محمد تود إكراههم عليه، بدليل ما ختمت به الآية ﴿أَفَأَنَّ تُكَرِّهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]؛ إذ تقديم المسند إليه ﴿أَفَأَنَّ﴾ على المسند الفعلي ﴿تُكَرِّهُ﴾ يوحى بتقوية صدور الإكراه من الرسول ﷺ، وهذه التقوية هي محل الإنكار فقط^(٣)، ولكنه إنكار في صالحه ليخلف عن نفسه همَّ هداية الناس جميعاً، إنكار يحمل في طياته الثناء عليه لما بذله من جهد في الدعوة، يقول ابن عاشور : ((وهذا تعريض بالثناء على النبي ومعذرة له على عدم استجابتهم إياه، ومن بلغ المجهود حقَّ له العذر))^(٤).

ت. الحال المؤكدة لمضمون الجملة : ((هي التي يستقاد معناها من مضمون الجملة قبلها))^(٥)، كقوله ﷺ : ﴿ذَلِكَ الَّذِي كَتَبَ لَأَرَيَّ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، فجملة : ﴿لَا

(١). ينظر : التحرير والتتوير : ١١ / ٢٩٢ .

(٢). ينظر : فتح القدير : ٢ / ٦٦٢ .

(٣). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٩٤ .

(٤). التحرير والتتوير : ١١ / ٢٩٣ .

(٥). معاني النحو : ٢ / ٢٦٨ .

لَأَرِبَّ فِيهِ [البقرة: ٢] حال مؤكدة لمضمون الجملة قبلها^(١)، وشرط الجملة : أن تكون اسمية وجراها معرفتان جامدان^(٢).

ومن أمثلة تتناسب الحال المؤكدة لمضمون الجملة في سورة يونس، قوله ﷺ : **وَمَا** **كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدِيهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبٍّ** **الْعَلَمَيْنَ** [يونس: ٣٧] ، فالحال المؤكدة لمضمون الجملة **لَا رَبَّ فِيهِ** ، إذ لما كانت الآية الكريمة تتفى بأبلغ أسلوب أن يكون هذا القرآن مفترى من غير الله ﷺ جيء بالحال مؤكدة لمضمون هذه الجملة؛ لإزالة أي شائبة شك تثار حول القرآن الكريم في ذاته، ولا سيما أنه من الله ﷺ .

ومن تتناسب التوكيد بالحال المؤكدة قوله ﷺ : **وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ** **جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** [يونس: ٦٥] ، فالحال **جَمِيعًا** مؤكدة لمضمون الجملة : **إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ** لبيان اختصاص الله ﷺ بجميع جنس العزة اختصاصاً حقيقياً لا مبالغة فيه^(٣) ، لا يملك أحد منها شيئاً إلا بمقدار ما يؤتيه الله لمن يشاء، وهذا التوكيد يتتناسب وحال الرسول ﷺ الذي يعتصر قلبه حزناً وأسى بسبب تبجح المشركين بعزتهم وقوتهم، فيقولون : إنما العزة للكاثر ، فيكون هذا التوكيد بمثابة التسلية التي تضفي الأمان والاطمئنان بنصر الله ﷺ على قلبه صلوات الله وسلامه عليه .

٤. التوكيد بـ (المصدر)

المصدر : ((كل اسم دل على حدث وزمان مجهول وهو و فعله من لفظ واحد والفعل مشتق من المصدر فإذا ذكرت المصدر مع فعله فضلاً فهو منصوب تقول قمت قياماً وقعدت قعوداً))^(٤) ، وهذا التعريف ينطبق على صورة واحدة من صور المصدر، ألا وهي

(١). ينظر : شرح التصريح على التوضيح : ١ / ٦١١ .

(٢). شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : ٢ / ٢٧٧ .

(٣). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٢٢٣ .

(٤). اللمع في العربية : ٤٨ .

صورة المفعول المطلق الذي قد يأتي لغرض معنوي؛ لتأكيد عامله أو بيان نوعه أو بيان عدده^(١).

ومن تاسب المفعول المطلق في سورة يونس، قوله ﷺ : ﴿وَمَا يَنْبَغِي أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنَّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلَيْمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦] ، فالآلية الكريمة تأتي في سياق النعي على معتقدات المشركين التي هي من الضعف بمكان؛ لأنها قائمة على الأوهام وليس على البرهان؛ فتجدهم يظنون مثلاً أن الأصنام والأوثان تستحق العبادة، وهي لا تملك القدرة على هداية الضال والحيران بل هي بحاجة إلى من يهديها ، ثم لا يتأكدون من صحة ذلك، ويظنون أن القرآن من صنع محمد ﷺ ثم لا يتحققون من قدرته على ذلك، ويظنون أن الله لا يوحى إلى رجل منهم، ثم لا يبحثون لماذا لا يكون ذلك^(٢)، فهو لاء إذن يتبعون الظنون، ولهذا جاء بالمعنى المطلق ﴿شَيْئًا﴾ مؤكداً لعامله ﴿لَا يُغْنِي﴾ ؛ للتوكيد على اهتراء معتقداتهم وعبادتهم؛ ذلك لأنَّ الظن لا يعني شيئاً من الإغباء، ولو قليلاً، ولن يكون أبداً بديلاً من اليقين في شيء مما يطلب فيه اليقين كالدين والعبادة^(٣)

وقد يأتي المصدر بعد حذف عامله مؤكداً لنفسه^(٤)، إذا كانت قبله جملة مضمونها كمضمونه^(٥)، كما في قوله ﷺ : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَيْعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ [يونس: ٤] ، لما تضمنت الجملة القرآنية إثبات الحشر والرجوع إليه الذي طالما كانوا ينكرونه ويذبحون الرسول ﷺ لأجله، جاء بال المصدر ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ توكيداً لما تضمنته الجملة قبله من معنى الوعد بإرجاعهم، وهو نفسه مضمون وعد الله، يقول ابن عاشور : ((وانتصب وعد الله على المفعولية المطلقة توكيداً لمضمون الجملة المساوية له، ويسمى موكداً لنفسه في اصطلاح النحو لأنَّ مضمونه مرجعكم الوعد بإرجاعهم إليه، وهو مفاد وعد الله))^(٦) بينما

(١). ينظر : شرح الأشموني : ١ / ٢٠٨ .

(٢). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٨٤ .

(٣). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٣٠٩ .

(٤). ينظر : شرح كافية ابن الحاجب : ١ / ٢٨٧ .

(٥). ينظر : النحو العربي، أحكام ومعان : ١ / ٤٦١ .

(٦). التحرير والتنوير : ١١ / ٩٠ - ٩١ .

المصدر ﴿حَقًا﴾ قد يحتمل أن يكون توكيداً للجملة ﴿إِنَّهُ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، وفي ذلك يقول الشوكاني مبيناً فائدة هذا التوكيد : ((وَانتِصَابُ وَعْدَ اللَّهِ عَلَى الْمَصْدَرِ، لِأَنَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٤] مَعْنَى الْوَعْدِ، أَوْ هُوَ مَنْصُوبٌ بِفَعْلٍ مُقْدَرٍ، وَالْمُرَادُ بِالْمَرْجِعِ: الرُّجُوعُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ إِمَّا بِالْمَوْتِ، أَوْ بِالْبَعْثِ، أَوْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ الْوَعْدَ بِقَوْلِهِ: ﴿حَقًا﴾ فَهُوَ تَأْكِيدٌ لِتَأْكِيدٍ، فَيُكَوِّنُ فِي الْكَلَامِ مِنَ الْوَكَادِ مَا هُوَ الْغَايَةُ فِي ذَلِكَ))^(١)، كما يحتمل أن يكون توكيداً للجملة ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾^(٢)، وفي كل ذلك تمكين وتأكيد لعقيدةبعث والنشر في الأذهان، وأنها ليست من الأوهام.

٥. **التوكييد اللغطي** : يكون ((بإعادة اللُّفْظِ الأولَ أو مرادفه، وَهُوَ أَحْسَنُ فِي الضَّمِيرِ الْمُتَّصِلِ وَالْحُرْفِ مُفْرِدًا كَانَ أَوْ مُرَكَّبًا مُضَافًا أَوْ جَمْلَةً أَوْ كَلَامًا نَكْرَةً أَوْ مَعْرِفَةً ظَاهِرًا أَوْ مَضْمُرًا اسْمًا أَوْ فَعْلًا أَوْ حِرْفًا (وَلَوْ ثَلَاثًا) نَحْوَ ﴿كَلَّا إِذَا دَكَّيَ الْأَرْضَ دَكَّادًا﴾^(٣) وَجَاءَ رَبِّكَ وَالْمَالِكَ صَفَّاصَفًا^(٤) [الفجر: ٢١ - ٢٢] ، قوله : (أَنْتَ بِالْخَيْرِ حَقِيقٌ فَمِنْ^(٥) ...)^(٦).

ومن تناسب التوكيد اللغطي في سورة يونس قوله ﷺ : ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شَرَكٌ لِّكُمْ مَّنْ يَبْدُؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَكْبِدُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَإِنَّ تُوقَنُ﴾^(٧) [يونس: ٣٤] ، فتكرار الجملة ﴿يَكْبِدُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾^(٨) [يونس: ٣٤] في السؤال والجواب لأجل توكيد استحقاق الله للريوبية؛ لأنَّه القادر وحده على بدء الخلق ثم إعادةه، فمن كان كذلك فهو الأولى بالريوبية والعبودية، يقول ابن عادل : ((وَإِنَّمَا أَتَى بِالجَوابِ جَمْلَةً اسْمِيَّةً، مُصْرَحًا بِجزَائِهَا، مُعَادًا فِيهَا الْخَبْرُ، مطابِقًا لِخَبْرِ اسْمِ الْاسْتِفْهَامِ؛ لِلتَّأْكِيدِ، وَالتَّثْبِيتِ))^(٩)، ومما يقوِي هذا التوكيد مجيء

(١). فتح القدير : ٢ / ٥٩٧ .

(٢). الكشاف : ٣ / ١١٥ .

(٣). قمن تعني : حقيقة : ينظر : المصباح المنير : ٢ / ٥١٧ ، (قمن) .

(٤). همع الهوامع : ٣ / ١٤٣ .

(٥). الباب في علوم الكتاب : ١٠ / ٣٢٣ .

المسند إليه ﴿الله﴾ مقدماً على المسند ﴿يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه﴾ لأجل دلالة الحصر والقصر^(١).

ومن تناسب التوكيد أيضاً قوله ﴿وَقَالَكَ مُوسَى رَبِّنَا إِنَّكَ أَنْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضْلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبِّنَا أَطْسَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدَّ عَلَى قُوَّتِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، فقد تكرر في هذه الآية الكريمة النداء ﴿رَبَّنَا﴾ ثلاث مرات، مما يفيد التوكيد الذي يتناسب ومقام الدعاء والاستغاثة والتضرع الذي يستدعي التكرار اللفظي^(٢)، ويعكس الحالة النفسية التي تخالج موسى عليه السلام من الضيق والأذى الذي يصيبه وقومه من فرعون وملئه.

٦. التوكيد المعنوي : هو التابع المقرر معنى متبعه في نفس السامع شامل النسبة أو أصل النسبة^(٣)، ويأتي على نوعين كما يفهم ذلك من التعريف السابق، يوضحهما ابن مالك بقوله : ((أحدهما: الذي قصد به رفع توهם السامع أن المتكلم حذف مضافاً وأقام المضاف إليه مقامه، نحو: (قتل العدو زيد نفسه)، فبذكر (النفس) علم السامع أن (زيداً) باشر القتل وحده، ولو لا ذلك لأمكن اعتقاد كونه أمراً لا مباشراً، والثاني : أن يقصد به رفع توهם السامع أن المتكلم وضع العام موضع الخاص، نحو قوله : (جاء بنو فلان كلهم)، لم يرد أن يخص بالمجيء بعضاً دون بعض، ولو لا ذلك لأمكن اعتقاد غير ذلك))^(٤)، ويقول ابن يعيش فيفائدة هذا التوكيد : ((والتأكيد المعنوي إنما هو لتمكين معنى الاسم، وتقرير حقيقته، وتمكين ما لم يثبت في النفس محال))^(٥).

ومن تناسب التوكيد المعنوي في سورة يونس قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفَسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، فالتأكيد المعنوي ﴿أنفسهم﴾ يقرر ويفيد نسبة الظلم إلى الناس وحدهم دون غيرهم من سائر أنواع الحيوان، ذلك لأنهم يوقعون عقاب

(١). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١١٣ .

(٢). البحر المحيط : ٥ / ١٨٥ .

(٣). الحدود في علم النحو : ٤٧٢، ينظر : شرح كافية ابن الحاجب : ٢ / ٣٨٣ .

(٤). شرح التسهيل لابن مالك : ٣ / ٢٨٩ .

(٥). شرح المفصل لابن يعيش : ٢ / ٢٢٧ .

ظلمهم على أنفسهم بالكفر، حين يعطّلون مدارك الهدایة التي وهبّهم إياها ربّهم عَلَى لاتّباع الحقّ والوحي في الاعتقاد والهداية في الأعمال^(١)، فالظالم الحقيقى هو الإنسان نفسه، أما الله عَزَّلَهُ فلم يظلمهم شيئاً من الظلم فيما يخصّ توفيره أسباب الهدایة كالعقل والحواس ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤].

وهذا التركيب يتحمل أيضاً أن تكون ﴿أَنفُسَهُم﴾ مفعولاً به مقدماً للفعل ﴿يَظْلِمُونَ﴾ مما يعطي دلالة قصر المظلومية على أنفسهم دون غيرهم أو دون ربّهم الذي كفروا به، يقول ابن عاشور : ((وتقديم المفعول على عامله؛ لإفاده تغليطهم بأنّهم ما جنوا بکفرهم إلا على أنفسهم وما ظلموا الله ولا رسله فما أضرّوا بعملهم إلا أنفسهم))^(٢)، وهذه الدلالة تتعارق وتناسب مع دلالة التوكيد المعنوي في تركيب جامع مانع .

ومن الأمثلة على تناسب التوكيد المعنوي، قوله عَزَّلَهُ : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَّنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَيِّعاً﴾ [يونس: ٩٩] ، فالتوکيد المعنوي ﴿كُلُّهُمْ﴾ ، للتصيص على الإحاطة والشمول والعموم المستقاد من الاسم الموصول ﴿مَن﴾^(٣) لأجل رفع التوهّم عن إيمان البعض دون الآخر، فيما لو أراد الله فرضاً أن يجبر منْ في الأرض على الإيمان به، فكُلُّهم سيؤمّنون قطعاً، دون أن يشدّ أحدُ منهم .

وبعد كل هذه الأمثلة تبيّن لنا كيف خدم أسلوب التوكيد بمختلف صوره مضامين السورة الكريمة في تناسب يشي بالنظم الرباني الفريد.

(١). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٣٢٦ .

(٢). التحرير والتویر : ١١ / ١٨٠ .

(٣). ينظر : التحرير والتویر : ١١ / ٢٩٣ .

تناسب الإجمال والتفصيل

من ملامح التاسب الداخلي في النص القرآني تفصيل المجمل، مما يجعل النص يخدم بعضه بعضاً في تماسك نصيًّا تامًّا.

فالإجمال في اللغة : يأتي من ((أجملت الشيء إجمالاً)) إذا جمعته عن تفرقه وأكثر ما يستعمل ذلك في الكلام الموجز يُقال: أجمل فلان الجواب ^(١).

وأما التفصيل في اللغة : فهو ((التبيين ^(٢))).

وأما اصطلاحاً فـ((الإجمال : إيراد الكلام على وجه يتحمل أموراً متعددة، و التفصيل)) : تعين بعض تلك المحتملات أو كلها ^(٣).

وتتمثل روعة هذا الأسلوب في أن المعنى يُلقى على مرحلتين مختلفتين؛ الأولى يُلقى فيها مجملًا مُبهمًا على دفعه واحدة، والثانية يُلقى فيها مفصلاً موضحاً بالدرج شيئاً بعد شيء، مما يجعل المعنى يتمكن في النفس خير تمكن، فضلاً عن تشوق النفس إلى معرفة كنه هذا المعنى ^(٤).

جاء أسلوب الإجمال والتفصيل في سورة يونس متعلقاً ببيان موقف المكذبين من القرآن الكريم، فضلاً عن تعلقه بجانب القصص، وقد اتَّخذ هذا الأسلوب في السورة شكلين: شكل المباشرة بدون فصل ما بين التفصيل والإجمال أو شكل التراخي، والفصل بينهما بأيات عديدة.

فمن تاسب الإجمال والتفصيل في سورة يونس، قوله ﷺ : ﴿بَلْ كَذَّبُواٰ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنْقَبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾^(٥) [٣٩] ، فالآلية الكريمة تتبع عن موقف المكذبين إزاء القرآن الكريم، فقد سارعوا إلى التكذيب به بالظن بدون روبة وتأمل وإحاطة به من جميع وجوهه ونواحيه ﴿بَلْ كَذَّبُواٰ بِمَا لَمْ

(١). جمهرة اللغة : ١ / ٤٩١ ، (جمل).

(٢). شمس العلوم : ٨ / ٥١٩٩ ، (التفصيل)، ينظر : الصاحح : ٥ / ١٧٩١ ، (فصل).

(٣). التعريفات : ٩ ، الكليات : ٤٢.

(٤). ينظر : البلاغة فنونها وأفاناتها : ٥٠٠.

يُحيطُوا بِعِلْمِهِ، ﴿٤﴾، والتعبير بعدم الإحاطة بعلم هذا الكتاب العزيز تستدعي أن يكون تكذيب هؤلاء على درجات متفاوتة في الإنكار والتكذيب، فجاءت الآية : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٤٠]، لتفصل ما أجمل في الآية السابقة من بيان تفاوت إنكار المشركين بهذا الكتاب؛ فمنهم من يؤمن به بقلبه، ولكنه يكذبه في الظاهر عناداً واستكباراً، ومنهم من لا يؤمن به جهلاً وتبعيةً وتقليداً^(١)، والغاية من هذا التفصيل بعد الإجمال، هو تصوير مدى سذاجة المشركين وتخبطهم حين كذبوا بالقرآن الكريم، ولم يكونوا على رأي واحد في ذلك، وفي ذلك يقول ابن عاشور : ((عطف على جملة : ﴿بَلْ كَذَبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩] ، لأن الإخبار عن تكذيبهم بأنه دون الإحاطة بعلم ما كذبوا به يقتضي أن تكذيبهم به ليس عن بصيرة وتأمل، وما كان بهاته المثابة كان حال المكذبين فيه متفاوتاً حتى يبلغ إلى أن يكون تكذيباً مع اعتقاد نفي الكذب عنه، ولذلك جاء موقع هذه الآية عقب الأخرى موقع ... البيان للمجمل من عدم الإحاطة بعلمه))^(٢).

ومن تاسب التفصيل بعد الإجمال ما كان في قصص هذه السورة؛ فقد كانت قصة نوح عليه السلام وما بعدها من قصص، تفصيلاً لما أجمل في قوله ﷺ : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجَزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [١٣] ثم ﴿جَعَلْنَاكُمْ خَلَّيْفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [١٤] [يونس: ١٣ - ١٤]^(٣)، من حيث بيان عاقبة الإيمان بالوحى، وعاقبة التكذيب به .

وقد جاء هذا التفصيل ليشد النص القرآني بعضه ببعضًا على الرغم من التراخي بينه وبين موضع الإجمال؛ إذ فصلت بينهما آيات، وما ذلك إلا لتمكين العبرة في النفس من خلال تفصيل قصص الأقوام الغابرة الذين حلّ بهم العذاب بسبب تكذيبهم بالوحى، والإهابة والتخويف لكل من يسلك مسلكهم من مشركي مكة، وغيرهم إلى يومنا هذا.

(١). تفسير المنار : ١١ / ٣٢٣ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ١٧٤ .

(٣). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٣٥ .

تناسب الاستئناف البصري :

يُعدُّ أسلوب الاستئناف البصري سبباً من أسباب التناسب داخل النص القرآني، لما يمثله من أهمية كبيرة في الترابط الدلالي بين الآيات أو في الآية الواحدة .

فالاستئناف لغة : مشتق من (أنف)، قال ابن فارس : ((الهمزة والنون والفاء أصلان منها يتفرع مسائل الباب كلها: أحدهما أخذ الشيء من أوله، والثاني أنف كل ذي أنف). وقياسه التحديد فأما الأصل الأول فقال الخليل: (استأنفت كذا)، أي: رجعت إلى أوله، وائتنت ائتلافاً، ومؤتنت الأمر: ما يبتداً فيه. ومن هذا الباب قولهم: فعل كذا آنفاً، كأنه ابتدأه. وقال الله ﷺ: ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ مَانِفًا﴾ [محمد: ١٦]، والأصل الثاني (الأنف)، معروض، والعدد (أنف)، والجمع (أنوف) ^(١).

وقد أجاد أبو البقاء الكفووي حين ربط مفردة الاستئناف بالأصلين اللغويين اللذين أشار إليهما ابن فارس، فقال : ((الاستئناف : هُوَ مِنَ الْأَنفِ، لِأَنَّ الْجَوابَ دُوِّ شَرْفٍ وَارْتِفَاعٍ، أَوْ مِنَ أَنْفِ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ أَوْلَهُ، أَوْ مِنَ أَنْفِ الْبَابِ وَهُوَ طَرْفُهُ، لِأَنَّ الْجَوابَ كَلَامٌ مُبْتَدِأً مُسْتَقْلٌ وَطَرْفُهُ مِنْ سُؤَالٍ)) ^(٢).

وأما الاستئناف اصطلاحاً عند أهل المعاني فهو : ((ما وقع جواباً لسؤال مقدر معنى كما قال المتكلم : (جاعني القوم)، فكأن قائلاً قال : (ما فعلت بهم ؟) فقال المتكلم محبياً عنه : (أما زيد فأكرمه، وأما بشر فأهنته، وأما بكر فقد أعرضت عنه)) ^(٣).

فالاستئناف البصري يقوم على ربط أوصال الكلام بعضها ببعض ربطاً داخلياً قائماً على الصلة المعنوية، من خلال ما ينبعث من سؤال تشي به الجملة الأولى، فتقع الجملة الثانية جواباً له، وتسمى الجملة المستأنفة، وبهذا يتحقق التنساب بين الجملتين، فالجملة الثانية مرتبطة بالجملة الأولى، ارتباطاً السؤال بالجواب، وليس ارتباطاً لفظياً ظاهرياً كما في

(١). مقاييس اللغة : ١ / ١٤٦، (أنف) .

(٢). الكليات : ١٠٦ .

(٣). التعريفات : ١٨ .

الاستئناف بالفاء أو الواو^(١)، وليس ارتباطاً إعرابياً؛ إذ كلتا الجملتين مستقلة ب نفسها إعرابياً، وبهذا يمتاز الاستئناف البياني من الاستئناف الابتدائي الذي تكون فيه الجملة المستأنفة مستقلة عن الجملة التي قبلها إعرابياً ومعنوياً^(٢).

والاستئناف البياني علم لطيف خفي يكتفه الغموض، لأنه واحد من أبواب علم الفصل والوصل في البلاغة، فهو يحتاج إلى إنعام النظر، وتدقيق البصر حتى تكتشف موضعه، وتسبّر أغواره، فقد قال عبد القاهر الجرجاني فيه : ((واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه : (إنه خفي غامض، ودقيق صعب) إلا وعلم هذا الباب، يعني : الفصل والوصل، أغمض وأخفى وأدقّ وأصعب ... وممّا هو أصل في هذا الباب أنك قد ترى الجملة وحالها مع التي قبلها حال ما يعطف ويقرن إلى ما قبله، ثم تراها قد وجب فيها ترك العطف، لأمر عرض فيها صارت به أجنبية مما قبلها))^(٣).

وللاستئناف البياني أسرارٌ بلاغيةٌ في حذف السؤال المقدر؛ كتبيه السامع على موقعه، أو أنه لإغفاء السامع عن السؤال، أو سماع شيء منه، فضلاً عن الاحتراز عن انقطاع الكلام، ناهيّاك عن فائدته في تكثير المعاني بتقليل الألفاظ، وذلك بتقدير السؤال وترك العاطف.^(٤).

أقسام الاستئناف البياني :

يقسم الاستئناف البياني على قسمين رئисين، هما :

القسم الأول : يكون بإعادة الاسم المتحدث عنه، كقولك : (أكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ، رسول الله الرحمة المهدأة)، فهنا نلحظ أن الجملة الأولى : (أكثر من الصلاة على رسول الله) منفصلة عن الجملة الثانية : (رسول الله الرحمة المهدأة)؛ انفصاً لفظياً لعدم وجود العاطف، وانفصاً إعرابياً، إذ كل من (رسول الله) له موقعه الإعرابي الخاص به، ولكنهما متصلتان معنوياً؛ لما تحمله الجملة الأولى من سؤال مقدر،

(١). ينظر : علم المعاني : ٣٧٩ .

(٢). ينظر : النحو الوافي : ٤ / ٣٩٠ .

(٣). دلائل الإعجاز : ٢٤٥ .

(٤). الإيضاح في علوم البلاغة : ١٥٩ .

تقديره (لماذا نكثر الصلاة على الرسول ؟)، فتكون الجملة الثانية جواباً له : (لأنه رسول الله الرحمة المهداة) .

القسم الثاني : يكون بإعادة صفة المتحدث عنه : مثال ذلك قوله ﷺ : ﴿ هُدَىٰ لِتَّقْتِيْنَ الَّذِينَ يَقْرِئُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٢ - ٣] ، أعيدت الصفة دون الاسم : ﴿ الَّذِينَ يَقْرِئُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ جواباً على السؤال : (ما بالهم خصوا بذلك ؟) الذي تشي به الجملة السابقة ﴿ هُدَىٰ لِتَّقْتِيْنَ ﴾ ، وهذا النوع أبلغ وأفضل من الأول؛ لانطوائه على بيان الموجب لخصوصهم بالذكر^(١).

ويقع الاستئناف البياني كثيراً في الآيات القرآنية المبدوءة بالفعل (قال)، مفصولاً غير معطوف عليه بعاطف^(٢)، ولا سيما في القصص لما ينطوي عليه من حكاية الحوار بين شخص القصة؛ إذ كل طرف منهم يستأنف كلامه بكلمة (قال)، وكان السامع يسأل : ماذا قال الآخر ؟ فيجاب بالاستئناف (قال)^(٣)، كما أنه قد يقع في آية واحدة أو بعد عدة آيات.

ومن أمثلة تاسب الاستئناف البياني في سورة يونس، قوله ﷺ : ﴿ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ﴾ [يونس: ٧٠]، فقد جاء الاستئناف البياني بعد الآية السابقة ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذَبَ لَا يُقْلِحُونَ ﴾ [يونس: ٦٩]، التي قررت أن المفترين على الله كذباً بادعائهم أن الله ولداً، لا يفلحون ولا يفوزون بتحقق مطلوبهم من الافتراء والكذب، ولا ينجون من مكروه ينتظرون في الدنيا والآخرة، فيجيء الاستئناف البياني ليرد على سؤال قد ينشأ مما يتراءى لل المسلمين من حياة رغيدة يعيشها هؤلاء المفترون، كأنه قيل : كيف لا يفلحون، وهم في بحبوحة من النعيم ؟ فيقال لهم : هو متاع حقير في الدنيا^(٤)، لا يعبأ به، ولا يُعد شيئاً أمام ما ينتظرون من العذاب الشديد في الآخرة بسبب كفرهم^(٥)، وهناك تظهر حقيقة عدم الفلاح،

(١). ينظر : الجامع الكبير : ١٣٨ .

(٢). دلائل الإعجاز : ٢٥٢ - ٢٥١ .

(٣). ينظر : علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم : ٧٤ .

(٤). ينظر : البحر المحيط : ٥ / ١٧٥ .

(٥). ينظر : فتح القدير : ٢ / ٦٤٥ - ٦٤٦ .

وممّا يؤكد على ذلك مجيء كلمة **﴿مَتَّع﴾** منكرةً لتفليله، كما أن تقييده **﴿فِي الدُّنْيَا﴾** مؤكّد بزوال هذا المتع^(١)، فضلاً عن ذلك الترقي والتصعيد في تهديد هؤلاء المفترين بواسطة حرف العطف **﴿ثُمَّ﴾** الذي يفيد التراخي الرتبوي، يقول ابن عاشور : ((**﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُم﴾** للتراخي الرتبوي لأن مضمونه هو محقق أنهم لا يفلحون فهو أهم مرتبة من مضمون لا يفلحون، ... وجملة : **﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾**) [يونس: ٧٠] بيان لجملة : **﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُم﴾** [يونس: ٧٠] ، وحرف (ث) هذا مؤكّد لنظيره الذي في الجملة المبينة على أن المراد بالمرجع الحصول في نفاذ حكم الله^(٢) .

والغاية من هذا الاستئناف البصري هو طمأنة المسلمين بنصره لهم، وهزيمة الكفر وأهله، ولا سيما أن هذه الآية وردت بعد آيات تحمل البشري، وتسلّ الأكدار والأحزان من قلوب المؤمنين، يقول ﷺ : **﴿أَلَا إِنَّ أُولَئِكَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٥﴾** **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٦٦﴾** **﴿لَهُمُ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلٌ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ٦٧﴾** **﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٦٨﴾** **﴿وَلَا يَحْزُنْكُ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦٩﴾** [يونس: ٦٢ - ٦٥] .

ومن أمثلة الاستئناف البصري في القصص مبدوعاً بالفعل (قال) ، قوله ﷺ : **﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسْخِرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُونَ ٧٧﴾** [يونس: ٧٧] ، جاءت هذه الآية بعد استكبار فرعون ومثله على الآيات التي أيدّ بها موسى عليه السلام، وبعد إعراضهم عن الإيمان، وتقول لهم على الحق والوحى لما جاءهم من الله، بأنه سحر مبين، يقول الله ﷺ : **﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ ۖ إِنَّا يَأْتِنَا فَلَأْسْتَكْبِرُوا وَكَانُوا فَوْمًا مُجْرِمِينَ ٧٨﴾** **﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسُحْرٍ مُّبِينٌ ٧٩﴾** [يونس: ٧٥ - ٧٦] ، وفي مقابل هذه الفرية العظيمة ينبعث سؤال مقدر، كأنه قيل، فماذا قال لهم موسى عليه السلام لما قالوا ؟ فقيل : قال لهم على سبيل الاستفهام الإنكارى التوبىخي مدافعاً عن الحق الذي هو أبعد ما يكون

(١). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ٢٣٣ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٣٣ - ٢٣٤ .

عن أباطيل السحر : ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ كَمَا جَاءَكُمْ أَسْخَرُهُنَا﴾^(١)، ولأجل الإمعان في توبیخ هؤلاء على مقالتهم العظيمة التي يکررونها في شأن الحق، أردف باستئناف بياني^(٢) آخر من قبیل موسى عليه السلام على سبيل الاستفهام الإنکاری التوبیخي أيضاً : ﴿أَسْخَرُهُنَا وَلَا يُفْلِحُ الْسَّنَحُورُونَ﴾، متبعاً بجملة حالية؛ لبيان مدى التناقض بين ما جاء به موسى عليه السلام من الحق الذي فيه فلاح كل من اتبعه، وبين عدم فلاح الساحر بسحره في تحقق مطلوبه، وفي هذه الآية الكريمة قال أبو السعود : ((والحال أنه لا يُفْلِح فاعله أي لا يظفر بمطلوب ولا ينجو من مکروه، فكيف يمكن صدوره من متى من المؤيدين من عند الله العزيز الحکیم الفائزین بكل مطلب الناجین من كل محذور))^(٣)، كما أن تقديم الخبر الذي هو مصب الإنکار^(٤) ﴿أَسْخَرُهُ﴾ على المبتدأ ﴿هُنَا﴾ فيه ما فيه من النعي الشدید على فرعون ومئنه لاجترائهم على الحق بدون رویة ونظر .

ومن الأمثلة أيضاً أنه لما لم يتمكن فرعون وملئه من رد الحجۃ بالحجۃ على موسى عليه السلام في أن هذا الحق والآيات التي أیدّ بها موسى ليس سحرا، يتبارد إلى ذهن السامع سؤال، كأنه قيل : فماذا قالوا لموسى عليه السلام حين رد عليهم بالحجۃ؟ فقيل : قالوا، وهم عاجزون عن المحاجة^(٥) : ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِتَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَيْنَهُ مَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبِيرَيْهِ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] ، والغاية من هذا الاستئناف هو بيان إفلات فرعون وملئه من الحجة، وعجزهم عن المحاجة حين لجوءا إلى ما يلجمأ إليه أهل الجهل والتقلید من التشبت بما كان عليه آباءهم من الكفر والضلال بهدف تأليب الرعیة على دعوة موسى عليه السلام، إلى جانب خوفهم على مراكزهم الدنيوية.

(١). ينظر : روح المعانی : ١١ / ١٦٤ .

(٢). ينظر : التحریر والتویر : ١١ / ٢٥٠

(٣). تفسیر أبي السعود : ٢ / ٦٩٧ .

(٤). ينظر : تفسیر أبي السعود : ٢ / ٦٩٧ .

(٥). ينظر : فتح القدير : ٢ / ٦٥٠ .

ومن تاسب الاستئناف البيني في الآية الواحدة، قوله ﷺ : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٥٢] ، فإن هذه الجملة القرآنية قد استوتفت استئنافاً بيانيًا، على إثر الجملة السابقة ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخَلْدِ ﴾ [يونس: ٥٢] التي تتطوي على التcriيع والوعيد الشديد بعذاب الخلد الدائم للذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالوحى والوعد والوعيد^(١)، فيتبارد سؤال في نفوس هؤلاء المهددين، فكأنهم قالوا : ما مقدار ذلك العذاب ؟، فيقال لهم : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٥٢] ، أي : على قدر فظاعة ما كسبوه من الأعمال^(٢).

والغاية من هذا الاستئناف بيان العدالة الربانية، فلا جور ولا حيف على الكفار في العقاب، فضلاً عن تعليل تسلیط العذاب عليهم^(٣)، وفي هذه الآية قال الفخر الرازي : ((أنه تعالى أينما ذكر العقاب والعذاب ذكر هذه العلة، كان سائلاً يسأل ويقول : يا رب العزة أنت الغني عن الكل فكيف يليق برحمتك هذا التشديد والوعيد، فكأنه تعالى يقول : (أنا ما عاملته بهذه المعاملة ابتداءً بل هذا وصل إليه جزاءً على عمله الباطل)، وذلك يدل على أن جانب الرحمة راجح غالب، وجانب العذاب مرجوح مغلوب))^(٤).

ومن الاستئناف أيضاً قوله ﷺ : ﴿ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنَتَّظِرِينَ ﴾ [يونس: ١٠٢] ، فقد جاءت هذه الجملة القرآنية في سياق عدم انتفاع الكفار بالتأمل في الآيات الكونية التي بثها الله في سمائه وأرضه؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون بالله أصلاً^(٥)، وكأنهم بعدم تأثرهم بهذه الآيات الكونية ينتظرون أن يحل بهم ما حل بالأقوام الغابرة من العذاب الشديد؛ لأنه لم يَعُدْ هنالك شيء آخر يُنْتَظَر^(٦) ﴿ قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْأَيَّنُتْ وَأَنْذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ

(١). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٣٣٤ .

(٢). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ١٩٥ .

(٣). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ١٩٥ .

(٤). مفاتيح الغيب : ١٧ / ١١٥ .

(٥). ينظر : البحر المحيط : ٥ / ١٩٣ .

(٦). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٤١٠ .

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠١ - ١٠٢]، إذن : ﴿فَأَنْظُرُوهُمْ﴾، وهذا الأمر فيه ما فيه من الوعيد الشديد والتهذيد البليغ بما ستكون عليه عاقبتهم، وهنا يتولد سؤال في أذهان هؤلاء المخاطبين المهددين، كأن سائلا منهم يسأل : ها نحن هؤلاء ننتظر ما تعلّمنا به، وأنت ماذا تفعل؟ فيقال لهم : ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنَتَّظِرِينَ﴾ .

وسُرُّ هذا الاستئناف البياني هو أنه يعكس الخوف الذي يعتمل في نفوس هؤلاء الكفار بعد ذلك التهذيد، في مقابل اطمئنان الرسول ﷺ بالوعد المؤكد الصادق بالنصر المنتظر؛ إذ يستحيل عقلاً أن ينتظر العذاب، والمعية في الآية هي في أصل الانتظار، لا في الحاصل بالانتظار^(١)، والتوكيد بـ(إن) يزيل أي احتمال للشك قد ينتاب الرسول ﷺ في حصول هذا النصر، فضلاً عن ذلك الوعيد بتوجيهة الرسول ﷺ صراحة ﴿ ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًا عَلَيْنَا نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣] .

(١). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٢٩٩ .

المبحث الثاني

تناسب المتشابه اللفظي

المتشابه في اللغة : مشتق من الجذر اللغوي (شبه)، بمعنى : المِثْل، قال ابن فارس : ((الشين والباء والهاء : أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لوناً ووصفاً . يقال : (شبه وشبه وشبيه)))^(١)، ومنه : (المشتبه) بمعنى المُلْتَبِس أو المُشْكُل، قال ابن منظور : (((والمُشْتَبِهُاتُ مِنَ الْأَمْوَرِ) : المُشْكِلَاتُ، و (المُتَشَابِهُاتُ) : المُتَمَاثِلَاتُ))^(٢).

والاصل في المتشابه هو : اتفاق الأشياء في الظاهر، واختلافها في الباطن؛ كقوله تعالى في وصف ثمر الجنة : ﴿وَأَنْوَأْنَا بِهِ مُتَشَبِّهًا﴾ [البقرة: ٢٥] ، أي : مُتَقْفًا من الثمار في اللون والمرأى، ومختلفاً في الطعم^(٣)، قال ابن قتيبة : ((وأصل (التشابه) : أن يشبه اللفظ في الظاهر، والمعنيان مختلفان ... ومنه يقال : (اشتبه على الأمر) ، إذا أشبه غيره فلم تكن تفرق بينهما ، ... ثم قد يقال لكل ما غمض ودقّ متشابه، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشّبه بغيره ، ... ومثل المتشابه (المشكل) . وسمي (مشكلاً) : لأنّه أشكّل ، أي : دخل في شكل غيره فأشبّهه وشاكله))^(٤).

ونلخص من كل ما سبق إلى أن المتشابه عند أهل اللغة يطلق على :

١. ما تماثل من الأشياء، وشابه بعضها بعضاً . (التشابه الخفيف).
٢. ما غمض ودقّ من الأمور^(٥) . (التشابه الشديد).

(١). مقاييس اللغة : ٣ / ٢٤٣ ، (شبه) .

(٢). لسان العرب : ٤ / ٢١٨٩ ، (شبه) .

(٣). ينظر : فتح الديرين : ١ / ١٤٤ .

(٤). تأويل مشكل القرآن : ٦٨، ينظر : أساس البلاغة : ١ / ٤٩٣ ، (شكل) .

(٥). ينظر : بلاغة المتشابه اللفظي في تفسير البحر المحيط لأبي حيان : ١١.

وأما المتشابه في الاصطلاح فقد عرفه الزركشي بقوله : ((وهو إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء))^(١).

وممّا يجدر الانتباه له أن الزركشي ما قصد بالقصة المعنى المعروف للقصة القرآنية، قصة موسى عليه السلام بل المراد بالقصة^(٢) الأمر والموضوع مطلقاً، سواء ورد في أثناء قصة قرآنية أم غيرها، بدليل أن الزركشي لم يقصر المتشابه على القصص في تعريفه السابق الذكر، بل صرح بأنه يكثر في القصص أكثر من أي موضع آخر بدليل قوله في تعريفه السابق ذكره : (يكثر في إيراد القصص والأنباء)^(٣).

وعرّفه الدكتور عبد الجود خلف بقوله : ((هو أن يتكرر مجيء الآيات في القصة الواحدة من قصص القرآن، أو موضوعاته في ألفاظ متشابهة، وصور متعددة، وفواصل شتى، وأساليب متنوعة، تقدّيماً وتأخيراً، وزيادة ونقصاً، وذكراً وحذفاً، وتعريفاً وتتكيراً، وإفراداً وجمعأً، وإيجازاً وإطناباً، وإبدال حرف بحرف آخر، أو كلمة بكلمة أخرى، ونحو ذلك، مع اتحاد المعنى لغرض بلاغي، أو لمعنى دقيق يراد تقريره، لا يدركه إلا جهابذة العلماء وأساطين البيان))^(٤).

أهمية المتشابه اللفظي :

المتشابه اللفظي علم جليل الشأن، يُعدُّ من علوم لطائف التفسير، وله علاقة وثيقة بعلم المناسبة، فكلاهما يدرس ظاهرة أسلوبية في القرآن الكريم، هي ظاهرة التشابه والتناسب الحاصلين بين الآيات، ببيان السياق الذي يكتتفها، والفرق اللفظية والمعنوية بينها، ومن ثم يتجلّى الإعجاز البلاغي والبياني في أدقّ صوره، ولأهمية علم المتشابه اللفظي اندفع كثير من العلماء والباحثين للكتابة فيه لفوائد الجمّة، منها على سبيل المثال لا الحصر :

(١). البرهان في علوم القرآن : ١ / ١١٢ .

(٢). الصحاح : ٣ / ١٠٥١ ، (قصص) : (والقصة: الأمر والحديث) .

(٣). ينظر : مقدمة تحقيق كشف المعاني لابن جماعة : ٤٥ .

(٤). درة التنزيل (مقدمة المحقق) : ١ / ٥٥ - ٥٦ ، ينظر : مقدمة تحقيق كشف المعاني لابن جماعة : ٤٥ - ٤٦ .

١. إبراز دقة إعجاز الأسلوب البیانی وروعته في اختيار ألفاظه وتراكيبه للتعبير عن المراد، فضلاً عن بيان أوجه التاسب بين الآيات المتشابهات مع تنوع أساليب ورودهن تكراراً، وإيجاراً وإطناباً، وتقديماً وتأخيراً، وحذفاً وزيادة، وتعريفاً وتكييراً، في قضية واحدة موضوع واحد^(١).

٢. الرد على الملاحدة المشككين في القرآن الكريم الذين يدعون زوراً وبهتاناً أنَّ ما به من ألفاظ متشابهة تُعد تكراراً غير هادف، ومتشابهاً لفظياً غير مفهوم، وهذا ما قاله الخطيب الإسکافي في مقدمة كتابه : ((وصار لمبهم المتشابه، وتكرار المكرر تبياناً، ولطعن الجاحدين ردًا، ولمسلك الملحدين سداً))^(٢).

٣. الإعانة على حفظ القرآن الكريم حفظاً متقدناً من خلال ضبط مواضع الآيات المتشابهة، مما يجعل الحافظ يركز في حفظه على الموضع الذي يخشى أن يلتبس عليه بموضع آخر .

وقد اختلفت منهجية دراسة المتشابه اللفظي قديماً وحديثاً، فالمؤلفون القدامى درسوا آيات المتشابه سورةً سورةً مع موازنة آيات السورة المدرستة بمثيلاتها في السور الأخرى^(٣)، أما الباحثون المحدثون فدرسوا الآيات المتشابهة على وفق منهجية قائمةٍ على تقسيمها إلى موضوعات كالتقديم والتأخير، والحذف والزيادة، والتعريف والتكيير^(٤).

وسورة يونس تضم كثيراً من أمثلة المتشابه اللفظي التي سنقسمها في هذا المبحث على النحو الآتي :

(١). ينظر : درة التنزيل (مقدمة المحقق) : ١ / ٦٢ - ٦٣ .

(٢). درة التنزيل : ١ / ٢١٨ - ٢١٩ ، ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٥٤ .

(٣). ينظر على سبيل المثال : (درة التنزيل وغرة التأويل) ، و(البرهان في متشابه القرآن) ، و (ملاك التأويل) .

(٤). ينظر على سبيل المثال : (المتشابه اللفظي في القرآن الكريم - دراسة نقدية بلاغية) د. مشهور موسى مشهور ، و (كتاب المتشابه اللفظي في القرآن الكريم) د. محمد محمود القاضي ، وقد سلكت هذا المنهج في هذا المبحث، لأنه أقرب إلى منهجية العلمية القائمة على التنظيم والتقييم والشمولية .

❖ المتشابه في التركيب

ومن أمثلة المتشابه قوله ﷺ : ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]، وقوله ﷺ : ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٦]، ومركز المتشابه في الآيتين قوله ﷺ : ﴿فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في سورة يونس، وقوله ﷺ : ﴿كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ في سورة غافر.

وببيان الفرق بين التركيبين أجمله في الآتي :

- الفرق بين ﴿فَسَقُوا﴾، و﴿كَفَرُوا﴾ .
- ختمت آية يونس بـ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، في حين ختمت آية غافر بـ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ .

أما الفعلان : ﴿فَسَقُوا﴾، و﴿كَفَرُوا﴾ فهما ليسا على مدلول لغوي واحد؛ إذ (الفسق) يختلف عن (الكفر)، وبالرجوع إلى أصلي هذين الفعلين في المعجمات يظهر لنا الفرق بينهما بشكل جليّ، قال ابن فارس في أصل الفعل (فسق) : ((الفاء والسين والكاف كلمة واحدة، وهي الفسق، وهو الخروج عن الطاعة))^(١)، وقال الجوهري : ((فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ، إِذَا خَرَجَتْ عَنْ قَشْرِهَا، وَفَسَقَ الرَّجُلُ يَفْسُقُ وَيَفْسِقُ أَيْضًا، يَقَالُ فَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَيْ : خَرَجَ))^(٢).

وقال ابن فارس أيضًا عن أصل الفعل (كفر) : ((الكاف والفاء والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الستر والتغطية ... والكفر : ضد الإيمان، سمي لأنه تغطية الحق))^(٣) .

وبعد هذا العرض اللغوي يتضح سر اختيار هذين الفعلين بما ينسجم مع السياق الذي وردًا فيه، فقد ورد الفعل ﴿فَسَقُوا﴾ بعد جملة من الأسئلة تقود المخاطبين بها إلى الاعتراف

(١). مقاييس اللغة : ٤ / ٥٠٢، (فسق) .

(٢). الصحاح : ٤ / ١٥٤٣، (فسق) .

(٣). مقاييس اللغة : ٥ / ١٩١، (كفر) .

باستحقاق الله للعبودية وال神性، بل لا يجدون مفرًا عن إسنادها إليه ﷺ^(١) ، ولا سيما أن هذه الأسئلة عن نعمٍ تمثل قوام حياتهم؛ كنعمة الرزق والحواس والتکاثر والتوالد، يقول الله ﷺ :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمَاءَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيْتِ وَيُخْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ الْحَيَّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ ﴾ [يونس: ٣٢ - ٣١] ، وفعلاً قادهم ذلك إلى الاعتراف : **﴿ فَقُلْ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾** [يونس: ٣١] ، فقيل لهم على سبيل الاستفهام التعجبي من حالهم : **﴿ أَفَلَا تَنَّوْنَ ﴾** [يونس: ٣١] ؛ إذ إنَّ من يعترف بالله ربِّا يسارع إلى التقوى وعبادته ^{عليه السلام}^(٢) ، ولكنهم نكروا عن ذلك الاعتراف الذي نطق به لسانهم إلى الجحود والنكران، والتعبير القرآني يصور لنا في غاية التصوير نكوص هؤلاء وهروبهم عن الحقيقة التي أقرروا بها، مستعملًا الاستفهام المكاني والفعل المضارع، **﴿ فَأَنَّ تَصْرُفُونَ ﴾** [يونس: ٣٢] ، يصورهم بعدما وصلوا إلى الحقيقة ثم يحاولون التملص منها إلى أي مكان آخر بكل ما أوتوا من جهد، قال محمد رشيد رضا : ((فكيف تصرفون وتتحولون عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال، بعد العلم والإقرار بما كان به الله هو الربُّ الحق))^(٣) ، وبهذا يتبيَّن لنا ملامة الفعل **﴿ فَسَقُوا ﴾** لحال هؤلاء في هذا السياق؛ سياق الاعتراف ثم الخروج عليه إلى الإنكار، وقد ربط البقاعي هذا الفعل **﴿ فَسَقُوا ﴾** بالآية **﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَجَدَةً فَلَخَّكَلَفُوا ﴾** [يونس: ١٩] ، فقال في ذلك : ((وعبر بالفسق المراد به الكفر؛ لأنَّ السياق للخروج عن دائرة الدين الحق في قوله : **﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَجَدَةً فَلَخَّكَلَفُوا ﴾**)، وهذا المعنى أحقُّ بالتعبير للفسق الذي أصله الخروج عن محيطِ في قولهم : فسقت الرطبة عن قشرها - أي خرجت))^(٤) ، وهذا الربط الذي ساقه البقاعي يؤكِّد على أنَّ النص في السورة متماسٍ حول قضية الإيمان بالوحي ومقتضياته، فمن خرج عليها، خرج إلى الكفر والاختلاف والتشتت .

(١). ينظر : ملَك التأویل : ١ / ٦١٥ .

(٢). ينظر : ملَك التأویل : ١ / ٦١٥ - ٦١٦ .

(٣). تفسير المنار : ١١ / ٣٠٥ .

(٤). نظم الدرر : ٩ / ١١٥ .

وأما التعبير بالمصدر المؤول ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فذلك أمر يتماشى مع السياق الذي رأيناه، فمن عرف أحقيـة الله بالعبادة والألوهـية من خلال التأمل في النعم التي يشاهـدـها في الحياة، وأقرـ بالحقـ، ثم تراجع عنه مـعرضـا منكـرا، فلا شكـ أنه مـصـروفـ عن الإيمـانـ، ولـنـ يـؤـمنـ بماـ يـدـعـوـ إـلـيـهـ الرـسـلـ منـ التـوـحـيدـ وـالـعـبـادـةـ الـخـالـصـةـ لـهـ مـهـماـ كـانـتـ الحـجـجـ سـاطـعـةـ، الآـيـاتـ بـيـنـةـ، وـلـهـذـاـ السـبـبـ حـقـتـ عـلـيـهـ كـلـمـةـ اللـهـ وـعـذـابـهـ وـوـعـيـدـهـ^(١)، كـماـ قـالـ اللـهـ يـسـعـكـ فيـ هـذـهـ السـوـرـةـ نـفـسـهـاـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ٦٦﴾ وـلـأـجـاءـهـمـ كـلـمـةـ آيـةـ حـتـىـ يـرـوـاـ العـذـابـ الـأـلـيمـ^(٢) [يونس: ٩٦ - ٩٧] .

وفي مقابل ذلك عـبـرـ فيـ سـوـرـةـ غـافـرـ بـالـفـعـلـ ﴿كـفـرـوـاـ﴾ لـتـنـاسـبـهـ مـعـ السـيـاـقـ الـذـيـ وـرـدـ فـيـهـ، فـقـدـ جـرـىـ قـبـلـ هـذـهـ الـآـيـةـ اـكـتـفـتـ هـذـاـ الفـعـلـ الـحـدـيـثـ عـنـ الـكـافـرـيـنـ فـيـ عـصـرـ الرـسـوـلـ : ﴿الـذـينـ يـجـادـلـوـنـ فـيـ آـيـاتـ اللـهـ وـمـشـابـهـتـهـ الـأـقـوـامـ السـابـقـيـنـ فـيـ فـعـلـهـمـ الشـنـيـعـ^(٣)، قـالـ اللـهـ : ﴿مـاـ يـجـدـلـ فـيـ ءـاـيـتـ اللـهـ إـلـاـ الـذـينـ كـفـرـوـاـ فـلـاـ يـغـرـرـكـ تـقـلـيـمـ فـيـ الـلـيـلـ ٤﴾ كـذـبـتـ قـلـبـهـمـ قـوـمـ نـوـحـ وـالـأـخـرـابـ مـنـ بـعـدـهـمـ وـهـمـ كـلـمـةـ بـرـسـوـلـهـمـ لـيـاخـذـوـهـ وـجـدـلـوـاـ بـالـبـطـلـ لـيـدـحـصـوـاـ بـهـ الـحـقـ فـلـاخـذـهـمـ فـكـيـفـ كـانـ عـقـابـ^(٤)﴾ [غـافـرـ: ٤ - ٥] ، وـلـاـ سـيـماـ أـنـ المـرـادـ بـ ﴿الـذـينـ كـفـرـوـاـ﴾ فـيـ الـآـيـةـ (٦) هـمـ أـنـفـسـهـمـ الـمـقـصـودـونـ فـيـ الـآـيـةـ (٤)^(٥)، وـهـذـاـ يـؤـكـدـ اـنـسـجـامـ هـذـاـ الفـعـلـ فـنـيـاـ مـعـ سـيـاـقـهـ وـسـبـاقـهـ، قـالـ الـخـطـيـبـ الـإـسـكـافـيـ : ((فـلـمـ أـرـادـ الـذـينـ كـفـرـوـاـ قـدـمـ ذـكـرـهـمـ مـنـ أـوـلـ الـقـصـةـ، وـهـوـ الـذـينـ أـخـبـرـ عـنـهـمـ بـقـولـهـ : ﴿مـاـ يـجـدـلـ فـيـ ءـاـيـتـ اللـهـ إـلـاـ الـذـينـ كـفـرـوـاـ فـلـاـ يـغـرـرـكـ تـقـلـيـمـ فـيـ الـلـيـلـ ٤﴾)) [غـافـرـ: ٤]، كـانـ أـنـ يـصـفـهـمـ بـمـاـ وـصـفـهـمـ بـهـ قـبـلـ مـنـ الـكـفـرـ أـولـىـ وـأـدـلـ عـلـىـ أـنـ الـمـعـنـيـنـ بـوجـوبـ النـارـ لـهـمـ، هـمـ الـذـينـ قـدـمـ ذـكـرـهـمـ))^(٦)، وـمـنـ جـانـبـ آـخـرـ ثـمـةـ مـلـاعـمـةـ دـلـالـيـةـ بـيـنـ السـيـاـقـ وـالـفـعـلـ ﴿كـفـرـوـاـ﴾ فـيـ الدـلـالـةـ عـلـىـ التـغـطـيـةـ وـالـسـتـرـ، ذـلـكـ لـأـنـ هـؤـلـاءـ بـجـدـالـهـمـ فـيـ آـيـاتـ اللـهـ يـحاـولـوـنـ تـغـطـيـةـ الـحـقـ بـالـامـتـرـاءـ وـالـجـدـالـ وـالـتـمـويـهـ فـتـارـةـ يـنـعـتوـنـ هـذـهـ الـآـيـاتـ بـالـسـحـرـ

(١). يـنـظـرـ : الـبـحـرـ الـمـحيـطـ : ٥ / ١٥٦ .

(٢). يـنـظـرـ : درـةـ التـنـزـيلـ : ٢ / ٧٤٠ ، وـ كـشـفـ الـمعـانـيـ : ٢٠٤ .

(٣). يـنـظـرـ : التـحـرـيرـ وـالـتـوـيـرـ : ٢٤ / ٨٨ .

(٤). درـةـ التـنـزـيلـ : ٢ / ٧٤٠ .

وتارة بالشعر وتارة أخرى بالأساطير، قال البقاعي موضحاً ذلك : ((ولما كان السياق للمجادلة بالباطل وهي فتل الخصم من اعتقاده الحق، وذلك تغطية للدليل الحق وتلبيس، كان الحال أحق بالتعبير بالكفر الذي معناه التغطية، فلذا قال ﷺ : ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾))^(١)

وأما وصف هؤلاء بالمصدر المؤول ﴿أَنْتُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، فذلك بسبب كفرهم^(٢) وجدهم في آيات القرآن الكريم، والكافر مصيره النار، وهو من أصحابها قطعاً، ويبدو لي أن هذا التغليظ في بيان مصير هؤلاء بـ ﴿أَنْتُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يتوافق مع ما وصف الله به نفسه من شدة العقاب في بداية السورة ﴿غَافِرُ الذَّئْبِ وَقَاتِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعَقَابِ ذِي الْطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، وما يؤكد التوافق بينهما هو تكير ﴿شَدِيدُ الْعَقَابِ﴾، قال الزمخشري في ذلك : ((قد تعمد تكيره، وإيهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار))^(٣).

ومثال ذلك أيضاً قوله ﷺ : ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥].

وقوله ﷺ : ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلَمُونَ﴾ [يس: ٧٦]. فمدار المتشابه في السورتين قوله ﷺ : ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ في سورة يونس، وقوله : ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلَمُونَ﴾ في سورة يس، فالآية في سورة يونس جاءت بعد قوله ﷺ : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤) **الَّذِينَ إِمَانُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلْمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤ - ٦٢]، بل إن هذه الآية معطوفة على قوله ﷺ : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٣]

(١). نظم الدرر : ١٧ / ١٠ - ١١.

(٢). ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٦١٨.

(٣). الكشاف : ٥ / ٣٢٨.

[٦٢] ^(١)، وهذا يدلّ على أنها جاءت في سياق تسلية الرسول ﷺ وأصحابه بأنهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الآخرة ^(٢)، وأن لهم البشري في الدنيا بالنصر وحسن العاقبة والاستخلاف في الأرض ^(٣) وفي الآخرة بأن لا تخيفهم أهوال يوم القيمة، كما أن الملائكة تتلقاهم بالبشرى والفرح والحفاوة، كما في قوله ﷺ : ﴿لَا يَخْزُنُهُمْ الْفَنَعُ الْأَكْنَبُرُ وَنَلَقَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمَكُمُ اللَّهُ كَثُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ، وكلّ هذه التسلية والبشرى للتخفيف من إيذاء المشركين للرسول وأصحابه بتهديدهم وأقوالهم البذيئة، ويردف النص القرآني كلّ ما سبق بتقطفين آخر بأعلى درجات التطمئن مستعملًا أساليب التوكيد المختلفة : ﴿إِنَّ جَمِيعًا ضَمِيرَ الشَّأْنِ : هُوَ﴾ ^(٤) بأنّ الله سينصركم ويعزكم؛ لأن العزة الحقيقة له ﷺ ^(٥) ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وأمّا ما ترونـه من عـزة للمـشرـكـينـ، فـهيـ إلى زـوالـ وـلاـ تـعدـ شـيـئـاـ، فـالـلـهـ مـالـكـ العـزـةـ سـيـسـلـبـهاـ مـنـهـ، وـلـهـذاـ ثـئـيـ الرـسـولـ ^(٦) عنـ أـنـ يـشـتـغلـ بـمـاـ قـدـ يـؤـديـ بـهـ إـلـىـ الحـزـنـ ^(٧) ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ﴾، وـخـتـمـ الآـيـةـ بـ^(٨) ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يـزيدـ مـنـ ذـلـكـ الإـيـنـاسـ، فـهـوـ ^(٩) مـعـ رـسـولـهـ يـحـفـهـ بـرـعـاـيـتـهـ وـيـكـلـوـهـ بـعـنـايـتـهـ، كـيـفـ لـاـ، وـهـوـ سـمـيعـ مـاـ يـقـولـونـهـ مـنـ تـهـديـدـاتـ وـأـقـوـالـ وـاستـهـزـاءـ وـتـكـذـيبـ، وـعـلـيـمـ بـمـاـ يـحـيـكـونـهـ مـنـ مـؤـامـرـاتـ، وـهـوـ سـيـكـافـئـهـ بـذـلـكـ ^(١٠)، وـبـهـذـاـ يـتـضـحـ تـنـاسـبـ خـتـامـ الآـيـةـ ^(١١) ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ مـعـ السـيـاقـ الـتـيـ وـرـدـتـ فـيـهـ، وـقـدـ قـالـ الـأـلوـسـيـ فـيـ ذـلـكـ : ((والـذـيـ عـلـيـهـ الـجـمـهـورـ أـنـهـ اـسـتـنـافـ سـيـقـ تـسـلـيـةـ لـلـرـسـولـ ^(١٢) عـماـ كـانـ يـلـقـاهـ مـنـ جـهـةـ الـأـعـدـاءـ مـنـ الـأـذـيـةـ النـاشـئـةـ مـنـ مـقـالـاتـهـ الرـدـيـةـ الـوـحـشـيـةـ وـتـبـشـرـاـ لـهـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ بـالـنـصـرـ وـالـعـزـ إـثـرـ بـيـانـ أـنـ لـهـ وـلـأـتـبـاعـهـ أـمـنـاـ مـنـ كـلـ مـحـذـورـ وـفـوـزـاـ بـكـلـ مـطـلـوبـ، فـهـوـ مـتـّصـلـ بـقـوـلـهـ سـبـحـانـهـ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلَيَاءَ اللَّهِ﴾ إـلـخـ مـعـنـىـ ((١٢)).

(١). ينظر : التحرير والتتوير : ١١ / ٢٢٠ .

(٢). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٣٦ .

(٣). تفسير المراغي : ١١ / ١٣٠ .

(٤). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٣٧ ، وملك التأويل : ١ / ٦٢١ .

(٥). روح المعاني : ١١ / ١٥٢ .

وأماماً آية سورة يس ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُشَرِّفُونَ وَمَا يُعْلَمُونَ﴾ فهي الأخرى متناسبة مع سياقها الذي وردت فيه، فقد ارتبطت بالآية التي قبلها ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونَ اللَّهِ أَلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنَصَّرُونَ﴾ [يس: ٧٤]، التي توضح جرأة المشركين على اتخاذ آلهة من دون الله، ولهذا جاء في الآية بلفظ الجلاله ﴿اللَّهُ﴾ في مقام الإضمار تعظيمًا له ﴿يَعْلَمُ﴾؛ لاستحقاقه الألوهية في مقابل عبادة هؤلاء العجيبة لمن لا يستحق العبادة، فهي لا تستطيع نصرهم ودفع الضر عنهم، فكانت هذه الآية توطئة^(١) للآية ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُشَرِّفُونَ وَمَا يُعْلَمُونَ﴾ يس: ٧٦، حتى لا يحزن الرسول ﷺ بإعراضهم عن الحق، ولهذا جاء الخطاب صراحة بالنهي عن الاستغلال بأمرهم وأقوالهم وشركهم تسلية^(٢) له ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾، معللاً بما يؤكّد ذلك التسلية، وبما يهدد ويتوعد أولئك الكفرة ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُشَرِّفُونَ وَمَا يُعْلَمُونَ﴾، وإن كان هذا التهديد عاماً بأن الله يعلم ما يخفون من العقائد الزائفة، وما يظهرون من كلمات الإشراك، مما يقتضي معاقبتهم على فعلهم هذا^(٣). إلا أنه مرتبط كلّ الارتباط بما أعلنوه وأظهروه من شركهم بالله، واتخاذهم آلهة من دونه.

ومن كلّ ما سبق يتبيّن سرّ الاختلاف بين الآيتين بسبب ارتباطهما الوثيق بالسياق الذي وردتا فيه.

ومثال آخر على المتشابه قوله ﷺ : ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلُلُ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨]، وقوله ﷺ : ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢].

فقد ختمت آية يونس بقوله : ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ في مقابل ختم آية النمل بقوله : ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، فأما خاتمة آية يونس فمرتبطة بما قبلها من الآية نفسها ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ

(١). ينظر : التحرير والتوير : ٢٣ / ٧٠.

(٢). ينظر : روح المعاني : ٢٣ / ٥٢.

ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلُلُ عَلَيْهَا ﴿١﴾، إذ في مبدأ الآية الكريمة تقرير لحرية الناس في اتّباع الحق الواضح البين من الله، فمن اختار الهدىي فمنفعة هدايته تعود له، ومن فضل الضلال فوبالضلال يرتد عليه، قال الزمخشري : ((فمن اختار الهدى واتّباع الحق فما نفع باختياره إلا نفسه، ومن آثر الضلال فما ضر إلا نفسه، ... وكل إليهم الأمر بعد إبانة الحق وإزاحة العلل))^(١)، وهذا يفهم منه أنّ منتهى مهمة الرسول ﷺ مقتصرة على التبليغ فقط، وليس هو بوكييل عليهم يجبرهم على الهدىي، أو يسعى بهم إلى أن ينالوا الثواب العظيم أو يقيهم العذاب الأليم^(٢)، ومن ثمّ كان ختام الآية ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ مناسباً للسياق الذي وردت فيه^(٣).

وثمة ارتباط آخر لخاتمة آية يونس بقوله ﷺ فيما تقدم : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَّنَ مَنِ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَيِّعاً أَفَأَنْتَ تُكَرِّهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] ، فالخطاب في الآية للرسول ﷺ بأن إكراه الناس كلهم على الإيمان لا يتوافق وحكمه الله في خلقه الجنس البشري مستعداً بفطرته للإيمان والكفر، والخير والشرّ، وهذا ما فهمه الرسول وصرح به، فناسب أن يقول لهم الرسول ﷺ : ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾^(٤) .

وأما خاتمة آية النمل، فلها علاقة بقوله ﷺ : ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾^(٥) إنَّكَ لَا تُشْعِيْ المَوْقَعَ وَلَا تُشْعِيْ الصَّمَدَ إِذَا وَلَوْا مُدَبِّرِينَ^(٦) وَمَا أَنْتَ بِهِدِيِّ الْعُمَّى عَنْ ضَلَالِتِهِمْ إِنْ تُشْعِيْ إِلَّا مَنِ يُؤْمِنُ بِعَائِنَتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ^(٧) [النمل: ٨١ - ٧٩] ، وفي هذه الآيات توجيه للرسول ﷺ بالتوكل على الله، والاستمرار في الدعوة والعبادة، غير مبال بالكافر الضالين؛ لأنهم لن يؤمنوا، فهم أشبه ما يكونون بالموتى والصمّ والعمى في عدم قبولهم الحق، أما من علم الله

(١). الكشاف : ١٧٩ / ٣ .

(٢). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٨٣ ، وروح المعاني : ١١ / ٢٠١ .

(٣). ينظر : درة التنزيل : ٢ / ٧٥٠ .

(٤). ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٦٣٦ .

(٥). ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٦٣٦ - ٦٣٧ ، أشار أبو جعفر الغناطي إلى ارتباط خاتمة آية النمل بالآيات (٨١-٧٩) دون أن يوضح ذلك دلائلاً ومعنوياً .

أنهم سيؤمنون بآياته فهم الذين يقبلون الحق^(١)، ومن هذا المعنى يفهم أن مهمة الرسول ﷺ مع هؤلاء الصالحين مقتصرة على الإنذار فحسب، وهذا ما فهمه الرسول فعلاً، فناسب أن يقول لهم : ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، قال ابن عاشور : ((ومن ضلّ فما أنا قادر على اهتدائه، ولكنني منذر))^(٢).

ويبدو لي أن الاستجابة لما جاء في الآيات السابقة (٧٩ - ٨١) أوسع من ذلك، فالله أمر نبيه المصطفى بالتوكل الذي يفهم منه الاستمرار في العبادة : ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾^(٣)، فكانت الاستجابة : ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّكَ هَذِهِ الْبَلْدَةُ الَّتِي حَرَمَهَا وَلَمْ يَكُلُّ شَيْءٌ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٤) [النمل: ٩١ - ٩٢]، وأمّا قبول المهددين للحق واستجابتهم له : ﴿إِنْ تُشْمِعَ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِعَيْنِنَا فَهُمُ الْمُسْلِمُونَ﴾^(٥) [النمل: ٨١]، فيقابله في الآية الأخرى بيان استقادتهم من الهدى : ﴿فَمَنْ أَهْتَدَنِي فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾^(٦) [النمل: ٩٢]، وبهذا يتبيّن التلاوّم والتناسب بين هذه الآيات بأوضح صوره، وأقوى وشائجه وروابطه .

❖ المتشابه في إبدال كلمة

١. الإبدال بين اسمين مختلفين

أ. (المؤمنين ، المسلمين)

قال ﷺ : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يوں: ٧٢] .

وقال ﷺ : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يوں: ١٠٤] .

وقال ﷺ : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١] .

نلحظ أن الآيات قد اختلفت في الخاتمة، إذ ختمت كل آية بما يناسبها، فاختتم آخر آية سورة يوں بـ ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ مناسب للسياق الذي وردت فيه، فيما يبدو لي، فنوح عليه السلام يعلن لقومه أنه مستمر في دعوته، غير خائف ولا مبالٍ بما يهددونه به من إلحاق الأذى به

(١). ينظر : الكشاف : ٤ / ٤٧٢ .

(٢). التحرير والتنوير : ٢٠ / ٥٥ .

جسدياً أو قطع المنافع عنه : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ بَأْنُوْجٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقُولُ إِنْ كَانَ كَبُرُّ عَلَيْكُمْ مَقَامٌ وَتَذَكِّرِي بِثَائِبَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَاجْمَعُوا أَنْتُمْ وَشَرَكَاءُكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَنْتُمْ عَيَّكُمْ غَمَّةً ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيْهِ وَلَا تُنْظَرُونَ ﴾^(٦) [إِنَّمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنَّ أَجْرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ] [يونس: ٧١ - ٧٢] ، قال الفخر الرازي مبيناً رأيه في مفهوم الآية : ((وعندني فيه وجه آخر ، وهو أن يقال : إنه - العنكبوت - بين أنه لا يخاف منهم بوجه من الوجه ، وذلك لأن الخوف إنما يحصل بأحد شيئين إما بإيصال الشر أو بقطع المنافع ، وبين فيما تقدم أنه لا يخاف شرهم وبين بهذه الآية أنه لا يخاف منهم بسبب أن يقطعوا عنه خيراً ، لأنه ما أخذ منهم شيئاً فكان يخاف أن يقطعوا منه خيراً))^(١) ، وفي هذا دليل استسلامه وانقياده للعنكبوت لكل ما يأتيه من الله لأجل الاستمرار في الدعاوة ولو على حساب حياته^(٢) ، فناسب أن يقول : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

بينما اختتمت الآية الأخرى من سورة يونس بـ ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، بما ينسجم مع ما ورد قبلها من الآيات التي تتحدث عن المؤمنين قوله ﷺ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكَرِّهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾^(٣) [وَمَا كَانَ لِغَيْرِهِ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ] وَيَعْلَمُ الْجِنَّاتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٤) [يونس: ٩٩ - ١٠٠] ، قوله ﷺ : ﴿ ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًا عَلَيْنَا نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٥) [يونس: ١٠٣] ، فناسب كل ذلك قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وللبقاعي مناسبة أخرى للتعبير بـ ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بدلاً من ﴿ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، بالنظر إلى أن مدلول مفردة ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بالباطن ، فقال : ((ولما كان السياق لما يتحمل الشك من الأمر الباطن ، عبر بالإيمان الذي هو للقلب فقال : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾))^(٦) .

(١). مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٤٥ .

(٢). ينظر : نظم الدرر : ٩ / ١٦٥ ، وتقسيم أبي السعود : ٢ / ٦٩٣ .

(٣). نظم الدرر : ٩ / ٢١٧ .

أما اختتام آية سورة النمل بـ ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾، فمناسب كل المناسبة لما ورد قبلها، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرَتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَمْ يُكُلْ شَيْءٌ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١] ، فالآلية كلها تتضح بمعاني الاستسلام لله عَزَّوجَلَّ، ولاسيما قوله : ﴿وَلَمْ يُكُلْ شَيْءٌ﴾ ، قال أبو جعفر الغناطي : ((وقوله : ﴿وَلَمْ يُكُلْ شَيْءٌ﴾ يقتضى تسليم كل شيء له، والتبرّي من توهם شريك أو نظير، فناسب هذا قوله : ﴿وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾))^(١).

ب. (الظالمين، المجرمين)

قال تعالى : ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْقَبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَيْقَبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩] .

اختتمت آية يونس بما يناسب أصلها اللغوي؛ إذ لمفردة ﴿الظَّالِمِينَ﴾ معناها الخاص الذي يناسب وسياقها الذي وردت فيه ، فحينما نرجع إلى المعجمات لنسطين الأصل اللغوي لهذه المفردة، نجد ابن فارس قد قال فيه : ((الظاء واللام والميم أصلان صحيحان، ... وضع الشيء غير موضعه تعدّاً، ... والأصل الآخر : ظلمه يظلمه ظلماً، والأصل : وضع الشيء في غير موضعه))^(٢)، وبهذا يتضح أنّ من معاني الظلم وضع الشيء في غير موضعه بالتعدي على الطرف الآخر صاحب الحقّ، وهو الذي يتتسق مع سياق الآية الكريمة، فالمشركون يقولون ظلماً وكذباً : إِنَّ الرَّسُولَ قَدْ افْتَرَى هَذَا الْقُرْآنَ، وجاء به من عنده ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَا﴾ [يونس: ٣٨] ، وفي ذلك تَعَدُّ على الله الذي أنزل هذا القرآن حين ينسبونه إلى نبيه، ولا ينسبونه إليه عَزَّوجَلَّ، ومما يؤكّد على عظم ظلمهم وتعديهم على الله ورسوله أنه لم يكن تكذيبهم وقولهم هذا مبنياً على أساس متين من الاختبار والتمحيص لما في هذا الكتاب من بلاغة ودقة في النظم، وما فيه من أخبار غريبة متوقعة الحصول، وإلا عرفوا أن هذا القرآن من لدن الله عَزَّوجَلَّ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٤٦٨] .

(١). ملak التأويل : ١ / ٦٣٥ - ٦٣٦ .

(٢). مقاييس اللغة : ٣ / ٤٦٨ ، (ظلم) .

ومن جهة أخرى يبدو لي أن هؤلاء بكتابهم هذا قد ظلموا أنفسهم بحرمانها من هداية هذا الكتاب العزيز، وبتعريضها العقاب الأليم المتوقع حصوله إن لم يؤمنوا، فنتيجة لكلٌ ما سبق ناسب أن يُنعت هؤلاء المكذبون في بيان عاقبتهم بـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ سواء قصد بهذه العاقبة هؤلاء المحكى عنهم أم من كانوا قبلهم^(١)، قال محمد رشيد رضا : ((فانظر أيها الرسول أو العاقل المعتبر كيف كان عاقبة الظالمين لأنفسهم بتكذيب رسليهم، وهو تأويل وعيدهم لهم، لتعلم مصير الظالمين من بعدهم))^(٢)، ويشير أبو السعود إلى سبب اختيار التعبير بـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ بدلاً من الضمير بقوله : ((وإنما وضع المظہر موضع المضمر ل لإيذان بكون التكذيب ظلماً أو بعلیته لإصابة ما أصابهم من سوء العاقبة ودخول هؤلاء الظالمين في زمرة جرمًا ووعيدها دخولاً أولياً))^(٣).

أما قوله : ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ في سورة النمل، فمناسب لما انطوى عليه سياق الآيات قبله، فقد تعرضت لمظاهر قدرة الله ووحدانيته التي هي ماثلة أمام أعينهم، مما يدركون أن آهتهم عاجزة عن فعل شيء منها، فكان عصيانهم بعد كل ذلك يُعد إجراماً، قال أبو جفر الغناطي : ((فذكروا بما يشاهدونه ويعلمون أن آهتهم لا تفعل ذلك، فكان مرتكبهم بعد هذا إجراماً وتعامياً عن الاعتبار بما ذكروا به، فقيل لهم : سيروا في الأرض فانظروا عوائق أمثالكم من المتعامين عن النظر ... فورد التعقيب هنا بوسمهم بالإجرام، فقيل : ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقْبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ مناسب لما تقدم من اجترامهم مع الوضوح ومتابعة التذكير وإرادة البراهين))^(٤).

٢. الإبدال بين فعلين مختلفين لفظاً

أ. (يقضي، يحكم)

قال ﷺ : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

(١). ينظر : البحر المحيط : ٥ / ١٦١ .

(٢). تفسير المنار : ١١ / ٣١٩ .

(٣). تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٦٧ .

(٤). ملak التأويل : ١ / ٤٢١ - ٤٢٢ .

قال ﷺ : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لِيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْلِفُونَ ﴾ ﴿١٢٤﴾
النحل: ١٢٤ .

يشترك الفعلان (يقضي ، يحكم) في الدلالة العامة على الفصل بين الخصمين ، فـ (قضى) يدل على الحكم ، يقال : ((قضى ، أي : حكم))^(١) .
ولكن ثمة فرق جوهري بين الفعلين في الدلالة الخاصة ، قال ابن فارس : ((القاف
والضاد والحرف المعتل أصل صحيح يدل على إحكام أمر وإنقاذه وإنفاذه لجهته ، قال الله تعالى : ﴿فَقَضَيْنَاهُنَّ سَبَعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنَ ﴾ [فصلت: ١٢] ، أي : أحكم خلقهن ... والقضاء :
الحكم ، قال الله سبحانه في ذكر من قال : ﴿فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٌ ﴾ [طه: ٧٢] ، أي : اصنع
واحكم ، ولذلك سُمي القاضي قاضياً ، لأنه يحكم الأحكام وينفذها ، وسميت المنيّة قضاءً لأنه
أمر ينفذ في ابن آدم وغيره من الخلق))^(٢) .

وبعد هذا التحديد اللغوي يبدو لي أن التعبير بالفعل ﴿يَقْضِي﴾ الذي يدل على
الإحكام والإتقان والإنفاذ يناسب جوّ وسياق آية يونس ، إذ ورد في معرض الحديث عن
تمكين الله لبني إسرائيل في الأرض ، وإنفاذ حكمه في أمر حياتهم فاستقررت بما فتح عليهم
من بلاد فلسطين ، وما فيها من الخصب والثراء ، وإحكام أمر دينهم فأطاعوا الله واستمسكوا
بإيمانهم ، بعدما أنفذ الله حكمه في فرعون فغرق^(٣) ، كما في قوله ﷺ : ﴿وَأَوْرَثَنَا الْقَوْمَ
الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَأْسِفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغَرِبَهَا أَلَّى بَنْرَكَنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلْمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى
عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾
الأعراف: ١٣٧] ، وحينما نتأمل في تعبير الآية نلمح دلالات الإحكام والإتقان ، فالتركيب
الإضافي ﴿مُبَاً صَدِيق﴾ الذي هو من إضافة الموصوف إلى الصفة يشير إلى أعلى درجات
الاستقرار والتمكن في المسكن لخلوصه من المكريات ، إلى جانب تنوع المقومات التي تجعل
الحياة مستمرة ، وهذا يفهم من دلالة حرف الجر ﴿مِن﴾ في قوله : ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾

(١). الصحاح : ٦ / ٢٤٦٣ ، (قضى) .

(٢). مقاييس اللغة : ٥ / ٩٩ ، (قضى) .

(٣). ينظر : التحرير والتتوير : ١١ / ٢٨٢ ، وملاك التأويل : ١ / ٦٣٠ - ٦٣١ .

أضف إلى ذلك الاستمرار في الطاعة والعبادة كنتيجة لما سبق من الاستقرار بإحكام مقومات الحياة وتوفرها ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ .

ولكنّ بني إسرائيل لم يستمروا على اتفاقهم على الطاعة والشكرا على النعم، فاختلفوا بعدما جاءهم العلم بقراءة التوراة وعلمهم بأحكامها إلى فريقين، فريق عصى ربّه وانحرف عن جادّة الصواب، وفريق آخر بقي على عهده مؤمناً مستمسكاً بدينه، وهذا يستدعي القضاء بينهم في أمرهم، وإنفاذ حكمه ﴿بَيْنَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [يوحنا: ٩٣]، وهنا نلحظ انسجام الفعل ﴿يَقْضِي﴾ مع السياق، كما أن هذه الآية نفسها تشي بالوعيد لكل من يقرأ هذه الآية أو يسمعها ليربّ بنفسه عن الواقع في المؤاخذة يوم القيمة، وذلك بإحكام أمره بالطاعة لله وإنقاذ عبادته والتفكير الجاد في وسائل الخلاص من الضلال^(١).

وأما الأصل اللغوي للفعل ﴿لَيَحْكُمُ﴾ فقد قال فيه ابن فارس : ((الحاء والكاف والميم أصل واحد، وهو المنع، وأول ذلك الحكم، وهو المنع من الظلم، وسميت حكمة الدابة لأنها تمنعها، يقال حكمت الدابة وأحكمتها، ويقال: حكمت السفيه وأحكمته، إذا أخذت على يديه ... والحكمة هذا قياسها، لأنها تمنع من الجهل. وتقول : حكمت فلاناً تحكيمًا منعه عمما يريد))^(٢).

وقال الراغب الأصفهاني أيضاً : ((حَكَمَ أَصْلَهُ : مَنْعَهُ مِنْ إِصْلَاحٍ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ اللِّجَامُ : حَكَمَةُ الدَّابَّةِ ، فَقِيلَ : حَكَمْتَهُ وَحَكَمْتُ الدَّابَّةَ : مَنْعَهَا بِالْحَكْمَةِ ، وَحَكَمْتُهَا : جَعَلْتُ لَهَا حَكْمَةً ، وَكَذَلِكَ : حَكَمْتَ السَّفِيهَ وَأَحْكَمْتَهُ))^(٣).

ومن خلال هذا الاستعراض اللغوي يتبيّن أن الفعل ﴿لَيَحْكُمُ﴾ تدور معانيه حول المنع لأجل الإصلاح، وهو الذي يتاسب مع جوّ آية النحل، فالآية تأتي في سياق ذكر مخالفة بني إسرائيل لأحكام يوم السبت التي فرضها الله عليهم؛ لأجل مقاصد إصلاحية؛ كالمحافظة على العبادة، والتفرغ لها، وتقدير هذا اليوم، ولأجل منعهم عن الفساد فيه، ولذلك

(١). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٢٨٣ .

(٢). مقاييس اللغة : ٢ / ٩١، (حكم) .

(٣). المفردات في غريب القرآن : ١ / ١٦٧، (حكم) .

حُرِّمَ عليهم الصيد، واستخدام الخدم والدواب^(١)، قال أبو السعود : ((أي : فرض تعظيمه والتخلِّي فيه للعبادة وتركُ الصيد))^(٢)، فكان نتْجَةً ذلك أن اخْتَلَفَ بَنُو إِسْرَائِيلَ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ التزم بأحكام يوم السبت، ومقاصده، فلم يصطادوا، وَمِنْهُمْ مَنْ تَحَايَلَ عَلَى أَحْكَامِهِ، فاصطادوا، فَأَنْجَى اللَّهُ الْمُلْتَزِمِينَ بِأَحْكَامِهِ، وَعَاقَبَ الْمُخَالِفِينَ بِالْمَسْخِ فَجَعَلَهُمْ قَرْدَةً خَاسِئِينَ كَمَا نَفَهُمْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، قَالَ ﷺ : ﴿ وَسَلَّهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَخْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَاعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِيُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلُوْهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ ﴾ ١١٣ ﴿ وَإِذْ قَاتَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْظُّونَ قَوْمًا أَلَّا هُمْ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَاتَلُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَيْكُمْ وَلَعَاهُمْ يَنْتَقُونَ ﴾ ١١٤ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَا عَنِ السُّوءِ وَأَخْذَنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَيْسِ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ ﴾ ١١٥ ﴿ فَلَمَّا عَنَوا عَنْ مَا نَهَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُمْ كَوْنًا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ ١١٦ ﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٦] ، إلى جانب ما ينتظرون من حكم الله فيهم يوم القيمة، فيجازى كل فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب^(٣) ، وفي هذه العقوبات الدنيوية والأخروية منعٌ وجزرٌ لكل من تسول له نفسه من بنى إسرائيل والمشركيَّن^(٤) على عهد رسول ومن كان على شاكلتهم إلى يومنا هذا، في مخالفة أحكام الله، فيكون له ذلك مانعاً عن المعصية وداعياً له للصلاح والصلاح، وبهذا يتبيَّن مناسبة الفعل ﴿ لَيَحُكُمُ ﴾ مع سياق الآية التي تحمل معاني المنع والإصلاح من فرضية يوم السبت عليهم .

❖ الإبدال بين الاسم والفعل المتشابهين لفظاً

أ. قال ﷺ : ﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمَنْ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقْلَ أَفَلَا يَنْقُونَ ﴾ ٣١ ﴾ [يونس: ٣١] .

(١). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٣٢٢ .

(٢). تفسير أبي السعود : ٣ / ٤١٤ .

(٣). ينظر : تفسير أبي السعود : ٣ / ٤١٥ .

(٤). ينظر : تفسير أبي السعود : ٣ / ٤١٥ .

قال ﷺ : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَيَّ وَالنَّوْءَ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَإِنَّ تُؤْفِكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥] .

فالمتشابه والمختلف في الآية الكريمة يكمن حول التعبير بالفعل المضارع ﴿يُخْرِج﴾

في آية يونس، واسم الفاعل ﴿وَمُخْرِج﴾ في آية الأنعام .

وكلتا المفردتين تناسب موضعهما من وجهين :

الأول : التناسب اللفظي : فقد جاء الفعل ﴿يُخْرِج﴾ في آية يونس ضمن جملة من الأفعال المضارعة : ﴿يَرْزُقُكُمْ - يَمْلِكُ - يُخْرِجُ - يُدِيرُ - فَسَيَقُولُونَ - ثَنَقُونَ﴾، فتناسب التعبير بالفعل المضارع، وفي المقابل جاء اسم الفاعل ﴿وَمُخْرِج﴾ في آية الأنعام متناسباً مع الأسماء قبله وبعده : ﴿فَالِقُ الْحَيَّ وَالنَّوْءَ﴾، و﴿فَالِقُ الْأَضْبَاح﴾^(١).

الثاني : التناسب الدلالي : فالسياق في آية يونس في التغيير والتجدد والحدوث يتنااسب معه استعمال الفعل ﴿يُخْرِج﴾ الذي يدل على التجدد والحركة، قال الله ﷺ : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمَعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمَنْ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقْلَ أَفَلَا ثَنَقُونَ﴾ [يونس: ٣١] ، وفي ذلك قال الدكتور محمد فاضل السامرائي : ((فعملية الرزق من السماء والأرض، وإخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي، وتدمير الأمر ، كل هذا يتكرر، ويحدث بصورة مستمرة، ولهذا جاء بالصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد))^(٢)، ومثله ما جاء في قوله ﷺ : ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَسِدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣) تُولِّي أَيْلَمَ فِي الْأَنَهَارِ وَتُولِّي أَنَهَارَ فِي أَيَّلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٤) [آل عمران: ٢٦ - ٢٧] ، فقد جاءت هي الأخرى في سياق التغيير والحدوث؛ فالله ﷺ يغير أحوال العباد فتارة يؤتي ملكه من يشاء، وتارة أخرى

(١). ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٢٩٥ ، وكشف المعاني : ١٦٣ .

(٢). دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل : ٧٦ .

ينزعه منه، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي ويغير أحوال اليوم والزمن ما بين ليل ونهار^(١).

وأما سياق آية الأنعام ف مختلف؛ إذ هو في الثبوت والدوم الذي يناسبه الاسم، ولا سيما أنَّ اسم الفاعل **﴿وَمُتْجِعٌ﴾** جاء في الآية مقترباً بـ **﴿الْمَيِّت﴾** الذي يكون في حال سكون وهمود وثبات^(٢).

ب. قال ﷺ : **﴿وَإِنَّا نُرِينَكُمْ بَعْضَ الَّذِي نَعْلَمُ أَوْ نَوْفِقُنَّكُمْ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾** [يونس: ٤٦].

قال ﷺ : **﴿فَإِنَّا نُرِينَكُمْ بَعْضَ الَّذِي نَعْلَمُ أَوْ نَوْفِقُنَّكُمْ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾** [غافر: ٧٧].

جاءت المفردتان مناسبتين لسياقهما؛ فقد جاءت آية سورة يونس، على ما يبدو لي، في سياق إثبات الرجوع إلى الله، وبيان حالهم في الآخرة، وهم في أرض المحشر، قد خسروا السعادة الأبدية بسبب تكذيبهم بلقاء الله وإيثارهم الحياة الدنيا القصيرة الزائلة على الحياة الآخرة ، قال ﷺ : **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَانُوا لَرَبِّيْلَتُهُمْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ الْأَنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ يَنْهَا قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءَ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾** [يونس: ٤٥]، فضلاً عن ذلك فإنَّ هذه الآية جيء بها لتدفع

ما قد يفهم من استبقاء المشركين، وإمهال العذاب عنهم في الدنيا مما جاء في قوله ﷺ : **﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ أَسْتَعْجَلُهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضَى إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي مُطْفَئِنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾** [يونس: ١١]، فكان لابد من البيان والإيضاح للمشركين بصيغة التوكيد والإثبات بأنهم إن أمهلوا في الدنيا، ولم يعذبوا، فإنهم غير مفلتين من الرجوع إلى عقاب الآخرة، حيث يكون الأمر كله في تصرفه ﷺ^(٣)، فناسب ذلك التوكيد والإثبات في الآية التعبير بالاسم **﴿مَرْجِعُهُمْ﴾** للدلالة على أن أمر الرجوع إليه للحساب حتمي لا مفر منه، وهو ثابت لا يقبل الشك، فضلاً عن ذلك فإنَّ الآية ختمت بالتهديد **﴿اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾** [يونس: ٤٦] أي : إن الله شهيد على ما يفعله الفريقيان اللذان تحدث عنهما السياق من قبل **﴿وَمَنْ هُمْ مِنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكُمْ أَفَأَنَّتُ شَمِيعَ الْأُصْمَمْ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقُلُونَ﴾**^(٤) **﴿وَمَنْ هُمْ مِنْ يَنْظُرُونَ﴾**

(١). ينظر : التعبير القرآني : ٢٣ .

(٢). ينظر : التعبير القرآني : ٢٣ .

(٣). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ١٨٣ .

إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَّى وَلَوْ كَانُوا لَا يَصْرُونَ ﴿٤٣﴾ [يونس: ٤٢ - ٤٣] ، وكل ذلك
بناسبه الاسمية في بيان ثبات مصيرهم ورجوعهم إلى الله^(١).

وأما سياق آية غافر فهو ليس في سياق إثبات المرجع إليه ﷺ، بل في تسلية الرسول
في مقابل ما يلقاه من أذى المشركين وإعراضهم، كما في قوله ﷺ: ﴿مَا يُجَنِّدُ فِيَاءِ اِنْتَ
اللَّهُ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغُرُّكَ تَقْلِيمُ فِي الْلَّبَدِ﴾ [غافر: ٤] ، قوله : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَيْقَةً الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَلَأَخْذُهُمُ اللَّهُ
يُدْنُو بِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍِ﴾ [غافر: ٢١] ، ثم يؤكد الله وعده لنبيه بالنصر في قوله :
﴿إِنَّا لَنَصْرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُولُونَ أَلَا شَهَدُ﴾ [غافر: ٥١] ، ولكن هذا
ال وعد قد يحتاج وقتاً، لهذا طلب الله من نبيه الاشتغال بالذكر والتسبيح فقال له : ﴿فَاصْرِ
إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهَ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَيِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبَكَرِ﴾ [غافر: ٥٥]
[] ، فأدى ذلك إلى أن استبطأ الرسول ﷺ والمؤمنون النصر ، فلهذا قال الله لنبيه : ﴿فَاصْرِبْ إِنَّ
وَعَدَ اللَّهَ حَقًّا فَكِإِمَّا نُرِيَنَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْلَمُهُ أَوْ تُنَوَّفِنَكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧] ، وكل
الذي سبق يوضح لنا بشكل جليٌ أن السياق هنا سياق تسلية وتصبير بالوعد بالنصر^(٢) ، لا
يتناول قضية إثبات المرجع إلى الله بالدرجة الأولى ، كما هو حال سياق آية يونس ، فناسب
أن يعبر بالفعل ﴿يُرْجَعُونَ﴾ الذي هو أقل درجة من الاسم ، فضلاً عن مناسبته فوائل
الآيات التي قبله وبعده في الانتهاء بحرف نون ، وهي : ﴿الْكَفَرِينَ﴾ ، و﴿تَمَرَّحُونَ﴾ ، و﴿
الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ، و﴿الْمُبْطَلُونَ﴾ ، و﴿تَأْكُلُونَ﴾^(٣).

❖ إبدال الاسم الظاهر بالضمير

قال ﷺ: ﴿إِنَّكَ اللَّهَ لَذُو فَضْلِ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠].

(١). ينظر : التحرير والتوير : ٢٤ / ٢٠٩ .

(٢). ينظر : التحرير والتوير : ٢٤ / ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٣). ينظر : سورة غافر ، الآيات (٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٩) .

قال ﷺ : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [٦١] .
[غافر: ٦١].

وسُرُّ التعبير في الآيتين الكريمتين بالضمير ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ في آية يونس، وبالاسم الظاهر ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ في آية غافر، راجع إلى الملاعنة والمشاكلة^(١) : فقد بنيت آية سورة يونس على الإضمار فيما تقدمها من آيات، وهي على النحو الآتي :

- ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخَلْدِ هَلْ تُبَخِّرُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [٥٢] .
[يونس: ٥٢].
- ﴿ وَيَسْتَبِينُوكُمْ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِنِّي وَرِيقٌ إِنَّمَا لَحْقٌ وَمَا أَنْشَرِي مُعَجِّزِينَ ﴾ [٥٣] .
[يونس: ٥٣].
- ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٥٥] .
[يونس: ٥٥].

وأما آية سورة غافر فقد بنيت على إظهار الاسم ﴿النَّاسِ﴾ فيما تقدمها من آيات، وهي على النحو الآتي :

- ﴿ لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْثَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٥٧] .
[غافر: ٥٧].
- ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيهَا لَأَرِبَّ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [٥٩] .
[غافر: ٥٩].

وهكذا نلاحظ بناء الآيتين على ما يلائمها مما سبقهما من الإضمار أو الإظهار، فكان الاختلاف بينهما.

❖ إبدال حرف مكان حرف

أ. (الواو ، الباء)

قال ﷺ : ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ [يونس: ٩٠].

قال ﷺ : ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ [طه: ٧٨].

(١). ينظر : درة التنزيل : ٣ / ١١٢٨ - ١١٣١ ، وكشف المعاني : ٣٢٣ .

عُبَّر في آية سورة يونس بحرف العطف (الواو)، بينما في آية سورة طه بحرف الجر (الباء)، وكل له موضعه المناسب في التعبير تبعاً لاختلاف سياقهما، فالسياق في سورة يونس يدل على أن فرعون بنفسه كان مع جنوده متبعاً لموسى وقومه، مما يدل على اهتمام فرعون وغضبه على موسى وقومه حتى اضطر للخروج بنفسه، والمؤشرات السياقية تؤكد ذلك، وهي على النحو الآتي :

- من شدة بطش فرعون ببني إسرائيل أنه لم يؤمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون ولائهم أن يردوهم مرة أخرى إلى الكفر، قال ﷺ : ﴿فَمَا أَءَانَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى حَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِيْهِمْ أَنْ يَقْتَلُنَّهُمْ﴾ [يونس: ٨٣] ، والتعبير بحرف الجر ﴿عَلَى﴾ يدل تمكّن الخوف منهم^(١).
- وصف فرعون بصفتين العلو والإسراف المؤكدين بـ (إن، و اللام)، مما يدل على أن هذه الذريّة مُحَقَّة في خوفها الشديد من فرعون، وما كان يفعله بالمؤمنين لموسى عليه السلام^(٢)، فقال ﷺ : ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لِمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [٨٣] يonus: ٨٣ .
- طلب موسى عليه السلام من قومه التوكل على الله والاستسلام التام لأمره، والدعاء بأن لا يجعلهم الله فتنة لفرعون وقومه^(٣) : ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقُولُ إِنْ كُنْتُمْ مَا أَمْنَنْتُ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكُّلُّا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِيْنَ﴾ [٨٤] فقلوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين^(٤) [٨٥] يonus: ٨٤ - ٨٥ .
- دعاء موسى عليه السلام بنفسه على فرعون، فقال : ﴿وَقَالَكَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ أَتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِيَّةً وَأَمَّا لِنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُنْصِلُّنَا عَنْ سَيِّلِكَ رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] .

(١). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٢٥٩ .

(٢). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٥١ .

(٣). ينظر : فتح القدير : ٢ / ٦٥٣ .

- وصف فرعون بـ ﴿بَغِيَا وَعَدْوَا﴾ في قوله ﷺ : ﴿فَاتَّبَعُهُمْ فَرَعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغِيَا وَعَدْوَا﴾ [يونس: ٩٠] ، للدلالة على رغبة فرعون في القضاء على موسى وقومه قضاء لا رحمة فيه . ومن كلّ ما سبق يتبيّن أن فرعون غاضب وجبار مسرف في تعذيبه المؤمنين لموسى العظيم، فناسب أن يكون هو في مقدمة جيشه للقضاء على موسى ومن آمن له، ﴿فَاتَّبَعُهُمْ فَرَعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ .
- أما الجملة القرآنية في سورة طه ﴿فَاتَّبَعُهُمْ فَرَعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾، فتعطي احتمالين اثنين، أولهما : أن فرعون مع جنوده اتبع موسى ومن معه، وثانيهما : أن فرعون لم يكن مع جنوده، وإنما اكتفى بإرسال جنوده لتعقب موسى ومن معه، ويظهر من خلال السياق غلبة الاحتمال الثاني، أي : إن فرعون أمر وليس مع جنده، وهو ما تؤكده مؤشرات السياق على النحو الآتي :

 - في سورة طه أوحى الله إلى نبيه موسى ﷺ أن يسري بقومه، ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَّا مُؤْسَنَ أَنَّ أَسْرِي بِعِبَادِي﴾ [طه: ٧٧] ، في حين أنسد الله إلى نفسه مجاوزةبني إسرائيل البحر، لإنجاء بنى إسرائيل، وإهلاك فرعون، ﴿وَجَوَزْنَا بِنَبْيٍ إِنْرَكِيلَ الْبَحْرَ﴾ [يونس: ٩٠] .
 - في طه ذكر غرق الجنود، ولم يأت على ذكر غرق فرعون، ﴿فَغَشِّيَهُمْ مِنَ الظِّلَّمِ مَا غَشِّيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] ، بينما في سورة يونس ذكر غرق فرعون صراحة، دون ذكر غرق جنوده، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ مَا مَنَّتْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِلَّا الَّذِي مَانَتْ يُهُ بَنُوا إِنْرَكِيلَ وَإِنَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] . فناسب التصريح على اتباع فرعون مع جنوده لموسى، ذكر غرق فرعون صراحة، وفي المقابل ناسب الاحتمال في اتباع فرعون مع جنوده لموسى، عدم التصريح بذكر غرق فرعون^(١).

(١). ينظر : من أسرار البيان القرآني : ١٤٣ - ١٤٥ .

ب. (ما، لا)

قال ﷺ : ﴿وَمَا يَعْزِبُ عَنْ رَّيْكَ مِنْ مِثْقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

قال ﷺ : ﴿لَا يَعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالٌ ذَرَّةٌ فِي السَّمَاءِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

اختلاف حرف النفي في الآيتين مناسب للسياق، ففي آية سورة يونس استعمل حرف النفي ﴿مَا﴾ الذي هو للحال لسبعين :

أولاً : لأن السياق في الآية في اطلاع الله على شؤون الرسول ﷺ في قراءته القرآن وتبلیغه الرسالة، وعلى أحوال المسلمين في أعمالهم^(١)، قال ﷺ : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَنْتَلُوْ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُوْنَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفْيِضُوْنَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، بينما النفي في آية سبأ - ﴿لَا﴾ الذي هو للمستقبل؛ لأن السياق في الحديث عن الساعة التي هي من الأمور الحادثة في المستقبل، قال ﷺ : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٣]^(٢).

ثانياً : ملامعة النفي في آية يونس بـ ﴿مَا﴾ لما سبقه من تكرار النفي بالحرف ذاته في قوله ﷺ : ﴿وَمَا ظَلَّنَ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [يونس: ٦]، قوله : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَنْتَلُوْ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُوْنَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفْيِضُوْنَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، في حين إن النفي في آية سبأ - ﴿لَا﴾ يلائم تكرار النفي بالحرف ذاته في الآية نفسها، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّنَا لَتَأْتِنَّا كُمْ عَلِمَ الْغَيْبُ لَا يَعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالٌ ذَرَّةٌ فِي السَّمَاءِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

(١). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٢٧ / ١٢٨ .

(٢). ينظر : التعبير القرآني : ٢٥٧ - ٢٥٨ .

❖ المتشابه في أحوال الاسم

١. التقديم والتأخير

قال ﷺ : ﴿ قُلْ لَاَأَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [يونس: ٤٩] .

قال ﷺ : ﴿ قُلْ لَاَأَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] .

نلحظ في مفردتي الآيتين ﴿ نَفْعًا ﴾ و﴿ ضَرًّا ﴾ تقديماً وتأخيراً، وذلك راجع إلى الأهمية والعناية^(١) وإلى دلالة سياقهما، اعتماداً على قاعدة أنه متى قدم النفع على الضر فلتقدم ما يتضمن النفع، والعكس صحيح^(٢).

فأما تقديم ﴿ ضَرًّا ﴾ على ﴿ نَفْعًا ﴾ في آية يونس، فلتتسق مع السياق؛ إذ الآية وردت في معرض الرد والجواب للمشركين عن ميعاد العذاب الذي أنذروا به في قوله ﷺ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَقْدَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ [يونس: ٤٨] ، فكان تقديم ﴿ ضَرًّا ﴾ في هذا الموضع مناسباً^(٣)، وفي ذلك قال أبو جعفر الغرناطي : ((فقدم الضر فلتقدم قبله من قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ مَقْدَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ فطلبوا تعجيل العذاب استهانةً وتكذيباً، ولم يعلموا ما في مطالبهم من المحنـة والمضرـة العاجلة، فقال لهم ﷺ بأمر الله تعالى : إنـي لا أملك الضر ولا النـفع لنـفسي ولا لكمـ فلا تستعجلـوني ذلك فليس بيـدي، فـقدم الـضر لأـجل ما تـقدم من طـلبـهم إـيـاه))^(٤).

وأما تقديم ﴿ نَفْعًا ﴾ على ﴿ ضَرًّا ﴾ في آية الأعراف، فلتقدم ما يتضمن معنى النـفع، وهو ما يوضحـه أبو جعـفر الغـرنـاطـي : ((أنهـ لما تـقدم سـؤـالـهم عنـ السـاعـةـ وـتـكرـرـ فيـ قولـهـ : ﴿ يَسْتَعْلَمُونَكَ عَنِ الْسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلَهَا ... يَسْتَعْلَمُونَكَ كَانَكَ حَفِيْظٌ عَنْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أيـ : عـالمـ بهاـ ... ولاـشكـ أنـ الـعلمـ بـالـشـيءـ نـفعـ لـصـاحـبـهـ، فـعـرـفـهـ أـنهـ لاـ يـمـلـكـ لـنـفـسـهـ نـفعـاـ وـلاـ ضـرـاـ، وـتـقـدـمـ ذـكـرـ النـفعـ لـأـنـهـ مشـيرـ إـلـىـ ماـ ظـنـوهـ أـنـهـ عـنـهـ مـنـ عـلـمـهـ فـأـعـلـمـهـ))^(٥) ، وقد ذـهـبـ هـذـاـ

(١). ينظر : الكتاب : ١ / ٣٤ .

(٢). ينظر : البرهان في متشابه القرآن : ٢٠٢ ، والتعبير القرآني : ٥٩ .

(٣). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٣٣١ .

(٤). ملـاكـ التـأـوـيلـ : ١ / ٥٧٨ ، وـيـنـظـرـ : كـشـفـ الـمعـانـيـ : ١٨٨ .

(٥). يـنـظـرـ : مـلـاكـ التـأـوـيلـ : ١ / ٥٧٧ .

المذهب ابن جماعة فقال : ((أن آية الأعراف تقدمها ذكر الساعة، فناسب في حقه تقديم النفع الذي هو ثواب الآخرة، وأخر الضر الذي هو عقابها))^(١)، وذكر الكرماني والزركشي وغيرهما سبباً آخر لهذا التقديم، وذلك لأنه تقدم هذه الآية ذكر الهدایة على الضلال في قوله ﷺ : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِيٌّ وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَسِيرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨] ، فناسب تقديم ﴿نَفْعًا﴾ على ﴿ضَرًّا﴾^(٢)، وكل هذه القرائن السياقية تؤكد سر التقديم في آية الأعراف، ولكنني أميل إلى ما ذهب إليه أبو جعفر الغرناطي؛ لأن التقديم كان بالأساس في الجواب والرد على تساؤلات المشركين المستمرة عن الساعة والغيب الذي يكتنفها، أمّا ما ذكره الكرماني والزركشي، فهي قرينة ثانوية يستأنس بها في توجيه هذا التقديم .

٢. التعريف والتنكير

قال ﷺ : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَبَ بِشَيْءٍ تَهْمِه إِنَّهُ لَا يُنْتَلِجُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧] .

قال ﷺ : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهِدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧] .

ورد قوله : ﴿كَذِبًا﴾ بالتنكير تارةً وبالتعريف تارةً أخرى بحسب ما يقتضيه السياق في الآيتين، فالتنكير في آية يونس مرجعه إلى عموم الكذب وتتنوع الافتراء على الله في أمور متعددة، بدليل افترائهم على الله كذباً باتخاذهم شركاء لله في قوله ﷺ : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكَ كَثِيرًا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَفَرُوا بِمِنْ نَحْنُ نَهْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣] ، وبدليل ما اقترحوه على الرسول ﷺ من الإتيان بقرآن غير هذا القرآن أو تبديله، قال ﷺ : ﴿وَإِذَا تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ إِيمَانُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الظَّالِمُونَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَتِ بِشَرَرِهِنَّ عَيْرَ هَذَا أَوْ بَدَلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِهِ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهَ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْعُ لِأَلَا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي لَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥] ، وفي ذلك قال ابن عاشور

(١). كشف المعاني : ١٨٨ .

(٢). ينظر : البرهان في مشابه القرآن : ٢٠٢ ، والبرهان في علوم القرآن : ١ / ١٢٢ ، والتعبير القرآني :

معلقاً على التفريع في آية يونس : ((والتفريع صالح للمعنيين ، وهو تفريع على ما تقدم قبله مما تضمن أنهم أشركوا بالله وكذبوا بالقرآن)).^(١)

فكـل ذلك يؤكـد على تنوع الافتـراء والكـذب عـلى الله، بـخلاف حال السـيـاق فـي سـورـة الصـفـ، فقد جاءـت المـفـرـدة ﴿الـكـذـب﴾ بـالتـعرـيف؛ لأنـ الكـذـب هـنـا معـين مـحدـد، فـهـو مـتـعلـق بـتكـذـيب اليـهـود لـآيـات اللهـ، وـصـفـة النـبـيـ والتـبـشـير بـهـ، وـهـذـا ما توـضـحـه الآيـة قـبـلـها : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْعَثُ إِلَيْهِ رَسُولًا إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ النُّورَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَمْهُمْ أَحَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ أَفْتَرَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يَدْعُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهِيدُ الْقَوْمَ أَفَلَا لَمِنَّ﴾ [الـصـفـ: ٦ - ٧].^(٢)

❖ المـتشـابـهـ فـي أحـوالـ الفـعـلـ

تنـوعـ الصـيـغـةـ

قال ﷺ : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلُكِ﴾ [يونس: ٧٣].

قال ﷺ : ﴿فَأَنْجَيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْقُلُكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الـشـعـراءـ: ١١٩].

كـثـيرـاً ما يـرـدـ الفـعـلـ فـي آيـةـ القرآنـ الـكـرـيمـ بصـيـغـ متـوـعـةـ، عـلـى وـفـقـ ما يـقتـضـيـهـ المـقامـ وـالـسـيـاقـ، وـمـنـ تـلـكـ الأـفـعـالـ : ﴿فَنَجَّيْتَهُ - فَأَنْجَيْتَهُ﴾.

وـقـدـ أـحـكـمـ القـوـلـ فـيـ بـيـانـ الفـرـقـ بـيـنـ الصـيـغـتـيـنـ الـأـسـتـاذـ الدـكـتـورـ فـاضـلـ السـامـرـائـيـ بـقـوـلـهـ : ((فـإـنـ الـمـلـاحـظـ أـنـ القرآنـ الـكـرـيمـ كـثـيرـاـ ما يـسـتـعـملـ (نجـىـ) لـلتـلـبـثـ وـالـتـمـهـلـ فـيـ التـجـيـةـ، وـيـسـتـعـملـ (أنـجـىـ) لـلـإـسـرـاعـ فـيـهاـ، فـإـنـ (أنـجـىـ) أـسـرـعـ مـنـ (نجـىـ) فـيـ التـخـلـصـ مـنـ الشـدـةـ وـالـكـربـ)).^(٣)

وسـرـ التـنـوعـ فـيـ صـيـغـةـ الفـعـلـ بـيـنـ الـآـيـتـيـنـ رـاجـعـ إـلـىـ ثـلـاثـةـ أـمـورـ، هـيـ :

(١). يـنـظـرـ : التـحرـيرـ وـالـتـوـيـرـ : ١٢٤ / ١١.

(٢). يـنـظـرـ : درـةـ التـنـزـيلـ : ١ / ١٢٧٣، وـ مـلـاـكـ التـأـوـيلـ : ١ / ٤٣٥، وـ كـشـفـ الـمعـانـيـ : ٣٥٦، وـ عـلـىـ طـرـيقـ التـقـسـيـرـ الـبـيـانـيـ : ١ / ٢١٧.

(٣). بـلاـغـةـ الـكـلـمـةـ فـيـ التـعـبـيرـ الـقـرـانـيـ : ٧٠.

الأول : مناسبة التعبير بالصيغة ﴿فَنَجَّيْتُهُ﴾ في سورة يونس، بسبب ما اتسمت به قصة نوح عليه السلام من الإيجاز، فضلاً عن أنها لم تذكر من المحاجة بينه وبين قومه إلا أنهم كذبوا^(١)، وهذا مما لا يستدعي الإسراع في الإنجاء، أضف إلى ذلك أن نوح عليه السلام مأمور بالاستسلام لأمر الله والصبر على الأذى^(٢)، وكل ما يصل إليه من أمر الدعوة^(٣)، وهذا فيه ما فيه من الانتظار، ﴿فَإِنْ تَوَلَّنُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢] ، ومن ثم كان التعبير بالصيغة ﴿فَنَجَّيْتُهُ﴾ مناسباً لمقام التثبت والتمهل .

وأما التعبير ﴿فَأَنْجَيْتَهُ﴾ في سورة الشعرا، فمرده إلى ما اتسمت به القصة في سورة الشعرا من التفصيل في ذكر الأحداث، والمحاجة الشديدة، والتهديد العنيف بين نوح عليه السلام وقومه، والقرائن تؤكد ذلك، ومنها :

١. وصفهم المؤمنين لنوح عليه السلام بالأرذل والخسة والحقارة، كما في قوله ﷺ : ﴿قَالُوا

أَنْتُمْ نُنَمُّ لَكَ وَأَتَبْعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [١١١] .

٢. طلبهم طرد المؤمنين، فقال لهم نوح عليه السلام : ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١١٦] .
الشعرا: ١١٤ .

٣. تهديدهم نبيهم نوح عليه السلام بالرجم، في حال عدم التوقف عن دعوتهم : ﴿قَالُوا لَئِنْ لَّهُ أَرْتَنَا هَذِهِ الْأُذُنُونَ لَنَنْجُحَنَّ مِنَ الْمَرْجُوبِينَ﴾ [١١٦] .
الشعرا: ١١٦ .

٤. شكوى نوح عليه السلام إلى ربه من تكذيب قومه له : ﴿قَالَ رَبِّي إِنَّ قَوْمِي كَذَّابُونَ﴾ [١١٧] .
الشعرا: ١١٧ .

٥. دعاء نوح عليه السلام بالنجاة له وللمؤمنين معه : ﴿فَاقْفَعْ بَيْنَ وَيْنَهُمْ فَتَحَّا وَنَجَّيْ فَوْمَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١١٨] .
الشعرا: ١١٨ .

(١). ينظر : دراسة المتشابهة اللغطي من آي التنزيل في كتاب ملوك التأويل : ١٠٤ .

(٢). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٩٣ .

(٣). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ : ١٤٦ .

فاقتضت شدة تلك الأحداث الإسراع في إنجاء نوح عليه السلام ومن آمن معه، وعدم الاستبطاء، فناسب استعمال الصيغة ﴿فَأَبْجَحَنَّهُ﴾ لمقام التهديد والمحاجة الشديدين^(١).

الثاني : نبرة الصوت التي خاطب بها نوح عليه السلام قومه شديدة، تنسجم مع الشدة في الصيغة ﴿فَنَجَحَنَّهُ﴾، بدليل كثرة حروف الشدة^(٢)، كالكاف والتاء والهمزة والجيم وبالأخص حرف الكاف التي تكاد تتولى من كثرتها كما في الآية (٧١) : ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ بِأَمْْرِكُمْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقُولُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِشَائِتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْْرَكُمْ وَشَرَكَاهُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَّةً ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيْهِ وَلَا تُنْظِرُونَ﴾ [يوس: ٧١] ، بخلاف نبرة صوته في سورة الشعراة التي كانت أقلّ نسباً مما ورد في سورة يومنس.

الثالث : طول آيات القصة في سورة يومنس، يعطي إشارة التمهل والمكث وعدم الاستعجال الذي يناسبه الصيغة ﴿فَأَبْجَحَنَّهُ﴾ الدالة على المكث والتمهل، في حين نجد الآيات في سورة الشعراة قصيرة، توحى بالاستعجال والسرعة في جريان الأحداث وصولاً إلى النجاة، الذي يناسبه الصيغة ﴿فَأَبْجَحَنَّهُ﴾ .

❖ المتشابه في الذكر والمحذف

١. الذكر والمحذف في الاسم

قال عليه السلام : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يوس: ٤] .

قال عليه السلام : ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [هود: ٤] .

ذكرت في آية سورة يومنس مفردة ﴿جَمِيعًا﴾، في حين حذفت المفردة ذاتها في آية سورة هود، وذلك لسببين :

أولاً : السياق :

(١). ينظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : ٧٤ - ٧٥ .

(٢). تجمع حروف الشدة في : (أَجَدْتْ طبْقَكْ، أو أَجَدْكْ طبْقَتْ) : ينظر : سرّ صناعة الإعراب : ١ . ٦١

متى ما تضمن السياق ذكر جهات متعددة مختلفة، وعقائد متباعدة، فإنه يجري ذكر مفردة **{جِيَعًا}**، وهذا ما يؤكد السياق في سورة يونس، فقد قال ﷺ قبل هذه الآية : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَابًا أَنْ أُوحِيَنَا إِلَيْ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنَّ أَنْذِرَ النَّاسَ وَبَشِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمًا صِدْقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا سَحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٢] ، فالآية الكريمة تضمنت ذكر فئتين من الناس :

الفئة الأولى : هم المؤمنون المبشرون بالمنزلة الرفيعة .

الفئة الثانية : هم الكافرون القاتلون : إن الرسول ﷺ ساحر مبين^(١).

ف nanopas ذلك التنوّع والتعدد في ذكر الفئات المختلفة ذكر مفردة **{جِيَعًا}** في الآية بعدها التي هي الأخرى تضمنت ذكرًا لتلك الفئات التي سبق ذكرها في الآية (٢)، قال ﷺ : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَيْعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًا إِنَّمَا يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ لِجَرِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيرٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٤] ، بخلاف آية سورة هود؛ إذ لم يأت سياقها على ذكر فئاتٍ مختلفة، بل اكتفى على ذكر فئة واحدة، وهم من استهدفتهم الآية في قوله ﷺ : **﴿ الرُّكْبَتُ أَحْكَمَتْ إِيمَانَهُمْ فَعِيلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴾** (١) **﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِّيرٌ ﴾** (٢) **﴿ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْتَنِعُكُمْ مَنْعًا حَسَنَا إِلَى أَجَلٍ مُّسَيَّ وَيُؤْتَ كُلَّ ذِي فَضْلَةٍ وَإِنْ تَوَلُّوا فَإِنِّي أَخَافُ عَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٌ كَبِيرٌ ﴾** (٣) **﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَوِيرٌ ﴾** [هود: ١ - ٤] ، فكان المناسب عدم ذكر مفردة **{جِيَعًا}** لانعدام التعدد والتنوع في ذكر الفئات^(٢).

ثانياً : السمة اللفظية :

مما ناسب ذكر مفردة **{جِيَعًا}** في سورة يونس، هو تكرارها أربع مرات، وهي على النحو الآتي :

⊕ قال ﷺ : **﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَيْعًا ﴾** [يونس: ٤] .

(١). ينظر : تفسير البيضاوي : ٣ / ١٠٤ .

(٢). ينظر : البرهان في متشابه القرآن : ٢١٣ ، وعلى طريق التفسير البياني : ٣ / ١٥ - ١٦ .

⊕ قال ﷺ : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٢٨] .

⊕ قال ﷺ : ﴿ وَلَا يَخْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعَزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يونس: ٦٥] .

⊕ قال ﷺ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩] .

بينما وردت هذه المفردة في سورة هود مرة واحدة، قال ﷺ : ﴿ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا نَظِرُونَ ﴾ [هود: ٥٥] ، فناسب حذفها.

٢. الذكر والمحذف في الحرف :

أ. قال ﷺ : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةٌ وَيَحْدَدُهُ ﴾ [يونس: ١٩] .

قال ﷺ : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَيَحْدَدُهُ ﴾ [البقرة: ٢١٣] .

اختفت الآياتان بين ذكر ومحذف أداة الاستثناء ﴿ إِلَّا ﴾، والحكم في كل ذلك للسياق، فآية سورة يونس جاءت في معرض مجادلة الذين غيروا معالم الدين الحق، والرد على ضلالات المشركين؛ كعبادتهم غير الله، واتخاذهم هذه المعبودات شفعاء عند الله، كما في قوله ﷺ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُمُّنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشَرِّكُونَ ﴾ [يونس: ١٨] ، فناسب ذلك ذكر أداة الاستثناء؛ لأجل الحصر والتوكيد في الرد على المشركين، بأن ما أنتم عليه من المعتقدات هو خلاف ما عليه الناس سابقاً من التوحيد والإسلام^(١)، وفي ذلك قال ابن عاشور : ((وحسن القصر هنا وقوعه عقب الجدال مع الذين غيروا الدين الحق وروجوا نحلتهم بالمعاذير الباطلة كقولهم : ﴿ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُمُّنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨] ، قوله : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُرِبُّوْنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣])^(٢) .

(١). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٤٦ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ١٢٧ .

وأما حذف أداة الاستثناء من آية سورة البقرة، فلأن سياقها يقتضي ذلك، إذ هي في مجادلة بني إسرائيل الذين لم يكونوا ينكرون أن الناس كانوا أمة واحدة^(١).

ب. قال ﷺ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَنَّكُمْ عَذَابًا بَيْنًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ٥٠].

قال ﷺ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُكُمْ إِنْ أَتَنَّكُمْ عَذَابًا اللَّهُ أَوْ أَنَّكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٠].

فمدار التشابه والاختلاف في الآيتين حول ذكر أو حذف حرف الخطاب (الكاف) في الفعل ﴿ أَرَءَيْتُكُمْ ﴾^(٢)، وفائدة جيء الكاف في هذا الفعل هو توكيده الخطاب^(٣)، إذا كان المخاطب غافلاً، أو كان الأمر يوجب زيادة التنبيه^(٤).

فحذف حرف الخطاب في آية سورة يونس راجع إلى أن السياق لم يشتمل على ما يستوجب التوكيد وزيادة التنبيه؛ كذكر مثلاً أن المخاطبين صُمُّ أو بُكُمْ، وإنما كان السياق في معرض الرد على مستعجل العذاب كما توضحه الآية قبلها ﴿ وَيَقُولُونَ مَنْ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٥) ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَقْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَهُمْ فَلَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾^(٦) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَنَّكُمْ عَذَابًا بَيْنًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٨ - ٥٠]، ولهذا اكتفى فيها بذكرهم بالعذاب.

وأما ذكر الكاف في آية سورة الأنعام، فراجع إلى ما انطوى عليه سياقها مما يستدعي توكيده الخطاب وزيادة التنبيه، فالمخاطبون في الآية قد استحکمت بهم الغفلة؛ إذ هم في قمة الضلال مُتعطلة حواسهم، كما وصفهم الله ﷺ بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَيْنِنَا

(١). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ١٢٧ .

(٢). ينظر : حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك : ١ / ٢٠٥ .

(٣). ينظر : الكتاب : ١ / ٢٤٥ .

(٤). ينظر : معاني النحو : ٢ / ١٦ .

صَدَقَ وَبَكُّمْ فِي الظُّلْمَكُتْ مَن يَشِئُ اللَّهُ يُضْلِلُهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ [الأنعام: ٣٩]
فناسب كل ذلك زيادة الكاف^(١).

(١). ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٤٥٣ - ٤٥٤ ، والتعبير القرآني : ٩٧ - ٩٩ .

الفصل الثالث

تناسب النظم

و فيه ...

❖ ت المناسب التشكيل الصوتي والبنية الصرفية

❖ ت المناسب التركيب النحوي والمفردة اللغوية

الفصل الثالث

مدخل

يرد النظم في المعاجم اللغوية بمعنى التأليف، قال ابن فارس : ((النون والظاء والميم: أصل بدلٌ على تأليف شيء وتأليفه))^(١)، ويقال : ((نَظَمَه يَنْظُمُه نَظِمًا ونِظَامًا ونَظَمَه فَانْتَظَمَ وَتَنَظَّمَ)، أي : جمعته في السِّلَكِ، ومنه : (نَظَمْتُ الشِّعْرَ وَنَظَمْتُه)، (وَكُلُّ شَيْءٍ قَرِنْتُه بِآخَرَ أَوْ ضَمَّنْتُ بَعْضَه إِلَى بَعْضٍ، فَقَدْ نَظَمْتُه)^(٢).

من هذا العرض اللغوي نستخلص أنَّ النظم هو تأليف أو جمع أو ضم الأشياء بعضها إلى بعض في نمط أو نسق معين، بطريقة تعطي ارتياحاً ورضى في النفس، كنظم المؤلو، والخرز، والكلام والشعر^(٣).

وفي الاصطلاح هو : ((تأليف الكلمات والجمل متربة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل : الألفاظ المتربة المسورة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل))^(٤).

والنظم في حقيقته قائم على التوفيق بين ثلاثة عناصر مجتمعةٌ، وهي كما حددها الخطابي بقوله : ((وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم))^(٥)، فلو اخْتَلَ واحد من هذه العناصر الثلاثة لفقد النظم قيمته ورونقه.

ثم كان للشيخ عبد القاهر الجرجاني فضل تفصيل ما قاله الخطابي، وبيانه، وشرحه،

فكان النظم عنده قائماً على حسن الترتيب الذي يمر بمرحلتين، هما :

المرحلة الأولى : ترتيب المعاني في النفس والعقل والذهن.

المرحلة الثانية : ترتيب الألفاظ على حذو ترتيب معانيها في العقل .

(١). مقاييس اللغة : ٥ / ٤٤٣ ، (نظم) .

(٢). لسان العرب : ٦ / ٤٤٦٩ ، (نظم) .

(٣). ينظر : مقدمة تحقيق دلائل الإعجاز : ٢٧ .

(٤). التعريفات : ٢٤٢ .

(٥). ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٢٧ .

وهذا ما يوضحه الشيخ عبد القاهر الجرجاني بقوله : ((فلو أَنْ وَاضَعَ اللُّغَةَ كَانَ قَدْ قَالَ : (رِبْضٌ) مَكَانٌ (صَرَبٌ) ، لَمَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَا يُؤْدِي إِلَى فَسَادٍ ، وَأَمَّا نَظَمُ الْكَلْمَ ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ فِيهِ كَذَلِكَ ، لَأَنَّكَ تَقْتَضِي فِي نَظَمِهَا آثَارُ الْمَعْانِي ، وَتَرْتَبُهَا عَلَى حَسْبِ تَرْتِيبِ الْمَعْانِي فِي النَّفْسِ ، فَهُوَ إِذْنُ نَظَمٍ يَعْتَبِرُ فِيهِ حَالُ الْمَنْظُومِ بَعْضَهُ مَعَ بَعْضٍ ، وَلَيْسَ هُوَ النَّظَمُ الَّذِي مَعْنَاهُ ضَمُّ الشَّيْءِ إِلَى الشَّيْءِ كَيْفَ جَاءَ وَاتَّقَ))^(١).

وفوق كُلِّ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ تَرْتِيبُ الْأَلْفَاظِ وَالْجَمْلِ مُنْسَبًاً عَلَى وَفْقِ مُقْتَضَياتِ عِلْمِ النَّحْوِ وَأَصْوَلِهِ ، قَالَ الشَّيْخُ الْجَرجَانِيُّ : ((اعْلَمُ أَنْ لَيْسَ النَّظَمُ إِلَّا أَنْ تَضَعَ كَلَامَكَ الْوَضْعُ الَّذِي يَقْتَضِيهِ عِلْمُ النَّحْوِ ، وَتَعْمَلُ عَلَى قَوَاعِدِهِ وَأَصْوَلِهِ ، وَتَعْرُفُ مَنَاهِجَهُ الَّتِي نَهَجَتْ فَلَا تَزَيَّغُ عَنْهَا ، وَتَحْفَظُ الرَّسُومَ الَّتِي رَسَمْتَ لَكَ ، فَلَا تَخْلُّ بِشَيْءٍ مِنْهَا))^(٢).

وَتَكْمِنُ رُوعَةُ النَّظَمِ عِنْدَ الْجَرجَانِيِّ فِي حُسْنِ مَلَائِمَةِ مَعْانِي الْأَلْفَاظِ لِمَعْانِي جَارَاتِهَا ، وَفَضْلُ مَوَانِسَتِهَا لِأَخْوَاتِهَا ، وَهَذَا يَقْتَضِي وَضْعَ الْلَّفْظَةِ أَوِ التَّرْكِيبِ فِي مَوْقِعِهِ الْمُنَاسِبِ حَتَّى تَكُونَ مُتَمَكِّنةً وَمُقْبُلَةً لَا قَلْفَةً وَمُسْتَكْرَهَةً^(٣) ، وَهَذَا لَا يَتَأْتِي إِلَّا لِلنَّظَمِ الْقُرْآنِيِّ الَّذِي هُوَ : ((طَرِيقَةُ تَأْلِيفِ حِرْفَهُ وَكَلْمَاتِهِ وَجَمْلَهُ ، وَسَبَكَهَا مَعَ أَخْوَاتِهَا فِي قَالِبِ مُحَكَّمٍ ، ثُمَّ طَرِيقَةُ اسْتِعْمَالِ هَذِهِ التَّرَكِيبَاتِ فِي الْأَغْرِيَضِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ عَنْهَا ، لِلدلَّةِ عَلَى الْمَعْانِي بِأَوْضَعِ عَبَارَةٍ فِي أَعْذَبِ سِيَاقٍ وَأَجْمَلِ نَظَمٍ))^(٤).

وَمِنَ الْمُحَدِّثِينَ الْمُشْتَغِلِينَ بِالْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ سِيدُ قَطْبِ الْذِي زَادَ عَلَى الْعِنَاصِرِ السَّابِقَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْخَطَابِيُّ عَنْصَرَيْنِ آخَرَيْنِ؛ لِيَقُرَرَ أَنَّ عِنَاصِرَ الْبِلَاغَةِ فِي الْعَمَلِ الْأَدْبَرِ خَمْسَةً بِقَوْلِهِ : ((وَتَسْتَمِدُ الْعَبَارَةُ دَلَالَتَهَا - فِي الْعَمَلِ الْأَدْبَرِ - مِنْ :

١. مَفَرَّدَاتُ الدَّلَالَاتِ الْلِّغُوِيَّةِ لِلْأَلْفَاظِ .

٢. الدَّلَالَةُ الْمَعْنُوِيَّةُ : النَّاشِئَةُ عَنِ اجْتِمَاعِ الْأَلْفَاظِ وَتَرْتِيبِهَا فِي نَسْقٍ مُعَيْنٍ .

٣. الدَّلَالَةُ الْمَعْنُوِيَّةُ : النَّاشِئَةُ عَنِ اجْتِمَاعِ الْأَلْفَاظِ وَتَرْتِيبِهَا فِي نَسْقٍ مُعَيْنٍ .

(١). دَلَائِلُ الْإِعْجَازِ : ١٠٢ .

(٢). دَلَائِلُ الْإِعْجَازِ : ١٢٧ .

(٣). دَلَائِلُ الْإِعْجَازِ : ٩٨ .

(٤). مَبَاحِثُ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ : ١٣٣ .

٤. الإيقاع الموسيقي : الناشئ من مجموعة إيقاعات الألفاظ متاغماً بعضها مع بعض .

٥. الصور والظلال : التي تشعُّها الألفاظ متاسقة في العبارة .

٦. التنسيق الذي يسمح لكل لفظ بأن يشع شحنته من الصور ومن الإيقاع، والذي يؤلف إيقاعاً متاسقاً بين الألفاظ، وظلاً متاسقة كذلك من ظلال الألفاظ)١(.

وهكذا تبدو عظمة النظم القرآني من خلال تنسيقه بتوارزٍ تامٌ بين هذه العناصر الأنفة الذكر، فترى روعة اختيار مفردات تراكيبه، وجمال انتقاء جمله، وعذوبة سبك مبانيه، على وفق متطلبات السياق داخل كل سورة منه، ويبقى لعلم المناسبة فضل استخراج الأسرار الكامنة وراء هذه التعبيرات القرآنية في اختلاف تراكيب الجمل.

(١). النقد الأدبي أصوله ومناهجه : ٤٩ - ٥٠ .

المبحث الأول

تناسب التشكيل الصوتي والبنية الصرفية

تناسب التشكيل الصوتي

يمثل التشكيل الصوتي جانباً مهماً في النظم القرآني؛ لأنه يهتم بالحرف وما يطأ عليه من صفات ومخارج، وبالكلمات وما تحدثه من نغم وجرس، وبالجمل وما بينها من تلاؤم، وبهذا كله تتشكل الموسيقى الداخلية التي تجعل للنَّص القرآني طراوة وحلابة، تشنف بسماعه الآذن، وتطيب لإيقاعاته النفوس، وتخشع بجرس آياته القلوب، ولا تمل منه الإعادة، وكل ذلك يؤكِّد روعة النظم الموسيقي في القرآن الكريم، وهو ما ذهب إليه الرافعي بقوله : ((ولا نرى جهة تعليله ولا نصح منه تقسيراً إلا ما قدمنا من إعجاز النظم بخصائصه الموسيقية، وتساوق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النغم، بالهمس والجهر والقلقة والصفير والمد والغنة ونحوها، ثم اختلف ذلك في الآيات بسطاً وإيجازاً وابتداء وردًا، وإفراداً وتكريراً))^(١).

يراعي النظم القرآني في اختيار الأصوات وتوزيع المقاطع وتأليفها ما ينسجم مع المعاني التي يريد إيصالها إلى المخاطبين، ونوع التأثير الذي يريد إثارته في نفوس المتألقين^(٢)، إلى جانب مراعاته في ذلك الوظيفة الجمالية في جعل الصورة السمعية متكاملة الأجزاء، معتدلة التركيب^(٣)، وهذا ما نجده مثلاً في اختياره الحرف المشدد في المفردة ﴿أَتَأْفَلْتُم﴾ في معرض النعي على المؤمنين القاعدين عن الجهاد، ﴿يَتَأَبَّهَا الَّذِينَ أَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفَرُوا فِي سَيِّلٍ اللَّهُ أَتَأْفَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الْدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ﴾

(١). إعجاز القرآن، والبلاغة النبوية : ٢١٨.

(٢). التناسب البياني في القرآن : ٣٠٧ .

(٣). التناسب البياني في القرآن : ٣٢١ .

فَمَا مَتَّعَ الْحَكِيمُ الَّذِي نَّادَى فِي الْأَخْرَقِ إِلَّا قَيْلُ ﴿٣٨﴾ [النوبية: ٣٨] ، إذ إن حرف الثاء اللثوي المشدّ يجعل اللسان عالقاً بأطراف الأسنان بشكل قوي، إلى جانب الدلالة على المبالغة، وهذا المقطع الصوتي يصور مدى حب هؤلاء للقعود عن الجهاد، وانعدام حركتهم تماماً^(١)، في حين لو أبدل الفعل (تناقلتم) بـ **﴿أَثَاقْلَتُمْ﴾** لضاع المعنى الذي أريد من وراء اختيار هذا الحرف المشدّ، وفي هذا قال سيد قطب : ((ولو أنك قلت : تناقلتم، لخفّ الجرس، وضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسماها اللفظُ واستقلَّ برسمها))^(٢).

والمتأمل في ألفاظ القرآن الكريم يجدها متاجسة تجانساً لا مثيل له في دقة انسجام أصواتها، وروعة اختيار حروفها، وخفة سلاسة حركاتها، قال الرافعي : ((ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيه بعضها لبعض، ويساند بعضًا، ولن تجدها إلا مؤلفة مع أصوات الحروف، مُساوقةً لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب التقل أليها كان ...، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهنت لها طريقاً في اللسان، واكتفتها بضرورب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعناب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لها هذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة))^(٣).

تتّخذ دراسة التشكيل الصوتي مناحي عدة، وطرائق كثيرة، إلا أنني سأكتفي في دراسته على الظواهر الصوتية مثل الفاصلة، ودلالة الصوت المفرد ، ودلالة تركيب الأصوات ؛ لما لهما من صلة وثيقة بعلم المناسبة، وجاءت الدراسة على النحو الآتي :

(١). ينظر : جماليات المفردة القرآنية : ١٥٩ .

(٢). التصوير الفني في القرآن : ٩١ - ٩٢ .

(٣). إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٢٢٧ .

• الفاصلة

تعدّ الفاصلة من ألوان المناسبة الصوتية في القرآن الكريم، لما تؤديه من بлагة وحكمة في حسن إفهام معاني الآية وإبراز المقصود بها^(١)، إلى جانب ما تتحققه من توازن صوتي وتناغم إيقاعي بين آيات السورة^(٢).

وللفاصلة تعريفات كثيرة، ومن بينها تعريف الباقلاني الذي عرّفها بقوله : ((حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني))^(٣)، بينما عرّفها أبو عمرو الداني بأنها : ((كلمة آخر الجملة))^(٤)، وعرفها الزركشي بأنها : ((هي كلمة آخر الآية كافية الشعر وقرينة السجع))^(٥).

وأنسب هذه التعريفات الآنفة الذكر تعريف الزركشي الذي ينصّ على أنّ الفاصلة هي الكلمة الأخيرة من الآية، وبسببها تفصل الآية عن الآية التي بعدها، وقد نفر العلماء من تسمية هذه الفواصل ب (الأسجاع)؛ لأنها مأخوذة من سجع الطير، قال البقاعي : ((وأمّا تجنّب أسجاع فلأنّ أصله من سجع الطير، فشرّفَ القرآن الكريم أن يُستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر ...، ولأنّ القرآن من صفات الله تعالى، فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد بها، وإن صحَّ المعنى، ثم فرقوا بينهما فقالوا : (السجع) هو الذي يقصد في نفسه ثم يحيط المعنى عليه، والفاصل التي تتبع المعاني، ولا تكون مقصودة في نفسها))^(٦). وللفاصلة دور مهم في تحقيق الإحكام المعنوي بالدرجة الأولى^(٧)، بسبب ما بينها وبين أول الآية من مناسبة وارتباط قوي، قال الزركشي : ((اعلم أنّ من الموضع التي يتأكّد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله، فلا بدّ أن

(١). ينظر : النكت في إعجاز القرآن : ٩٨ .

(٢). ينظر : التعبير القرآني والدلالة النفسية : ١٨٧ .

(٣). إعجاز القرآن : ١٨٩ .

(٤). البرهان في علوم القرآن : ١ / ٥٣ .

(٥). البرهان في علوم القرآن : ١ / ٥٣ .

(٦). البرهان في علوم القرآن : ١ / ٥٤ .

(٧). ينظر : إعجاز القرآن البصري، ودلائل مصدره الرباني : ٣٢٠ .

تكون مناسبة للمعنى المذكور أولاً، وإلا خرج بعض الكلام عن بعض، وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك، لكن منه ما يظهر، ومنه ما يُستخرج بالتأمل للبيب)^(١)، وقد أطلق العلماء القدماء على هذه العلاقة مصطلح : (ائتلاف الفواصل مع ما يدلّ عليه الكلام)^(٢).

وبحسب ائتلاف الفاصلة وارتباطها معنويًا بمضمون الآية، فقد قسمت على أربعة أنواع، لها كبير ارتباط بعلم المناسبة، وهي : (التمكين، والتصدير، والتوصيح، والإيغال) .

١. التمكين : وهو : ((أَنْ ثُمِّهَدْ قَبْلَهَا تَمْهِيدًا تَأْتِي بِهِ الْفَاصِلَةُ مَمْكَنَةً فِي مَكَانِهَا مَسْتَقِرَّةً فِي قَرَارِهَا مَطْمَئِنَةً فِي مَوْضِعِهَا غَيْرَ نَافِذَةٍ، وَلَا قَلْقَةً مَتَعَلِّقًا مَعْنَاهَا بِمَعْنَى الْكَلَامِ كُلِّهِ تَعْلِقًا تَامًا؛ بِحِيثُ لَوْ طُرِحَتْ أَخْتِلَّ الْمَعْنَى وَاضْطَرَبَ الْفَهْمُ))^(٣).

ومن أمثلة ذلك ﴿يُشْرِكُونَ﴾ في قوله ﷺ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضْرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَوْنَ أَعْنَدَ اللَّهَ قُلْ أَتُنَبِّئُكُمْ أَلَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(٤) [يومن : ١٨].

فالفاصلة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ جاءت مناسبةً لما تقدم من التمهيد الذي تمثل بعبادتهم ما لا يملك لهم ضرًا، ولا نفعًا في الدنيا والآخرة، وزعمهم أنّ هذه المعبودات تشفع لهم عند الله، وتقريرهم إلى الله زلفى، فيدفع بسببيها عنهم البلاء، ويعطيهم من أنواع النعماء، وكأنّ الله، بقولهم وزعمهم هذا، لا يعلم شيئاً عن أمر هؤلاء الشفعاء^(٤).

فك كل ذلك التمهيد الذي ورد في الآية، يدلّ على مظاهر الشرك، لذلك جاءت الفاصلة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ مناسبةً أتمّ مناسبةً لآلية، ولا سيما أنها جاءت في سياق تزييه الله ﷺ عن شركهم وكفرهم، وممّا يجعل هذه الفاصلة متمكنةً في مكانها، غير قلقةٍ في قرارها، مجيبةً بالفعل المضارع الذي يتاسب مع الأفعال المضارعة الواردة في مضمونها : ﴿ وَيَعْبُدُونَ﴾ ، و﴿ لَا يَضْرُهُمْ﴾ ، و﴿ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ ، و﴿ وَيَقُولُونَ﴾ للدلالة على

(١). البرهان في علوم القرآن : ١ / ٧٨ .

(٢). الفاصلة في القرآن : ٢٨٥ .

(٣). البرهان في علوم القرآن : ١ / ٧٩ .

(٤). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٧٧ - ٢٧٩ .

استحضار حالتهم العجيبة من استمرارهم على معتقدهم الفاسد في العبادة^(١)، فضلاً عما تنهض به هذه الأفعال من انسجامٍ وتناسقٍ فنيٍّ داخل الآية .

٢. التصدير : وهو ((أن تتقدم لفظة الفاصلة بماتتها في أول صدر الآية أو أثنائه أو آخره، وقد سمي البلاغيون هذا الصنف (رد الأعجاز على الصدور)^(٢) .

فمن أمثله هذا النوع : الفاصلة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ المتقدمة بـ ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ في قوله ﷺ : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلٍ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٣) يومن: ٥ .

فالفاصلة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ مناسبة لمضمون الآية التي تناولت النظام الكوني القائم على جعل الشمس ضياء، والقمر نوراً، وجعله منازل، لكي نعلم عدد السنين وحساب الأوقات في ضبط العبادة من صلاة وصيام وحجّ وزكاة وضبط المعاملات الدينية أو المالية أو المدنية^(٤)، فضلاً عن ذلك فائدته في تحديد الأوقات المناسبة للزراعة والحراثة، والاستعداد لمتطلبات الشتاء والصيف^(٥)، وهذا العلم، أعني علم حساب السنين والأوقات، لا يتوصل إليه إلا بالتأمل والمشاهدة للذين بدورهما يقودان إلى اكتشاف أسرار هذا العلم، بالإضافة إلى الوقوف على عظيم تدبير الله في كونه، وحسن تصريفه مصالح الناس، ومن ثم يدرك ذو العلم أنَّ الله من خلال ما بثه من تفاصيل آياته في كونه، هو المستحق للعبودية والألوهية، لذا تكررت مادة (العلم) لمناسبتها لأمرين اثنين :

أولاً : التتويه بأهمية العلم في كشف أسرار الآيات الكونية الدالة على قدرة الله .

(١). ينظر : التحرير والتؤير : ١١ / ١٢٥ .

(٢). علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه : ٧٩ ، وينظر : الفاصلة في القرآن : ٢٨٩ .

(٣). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٦١ ، وينظر : التحرير والتؤير : ١١ / ٩٦ .

(٤). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ٣٥ .

ثانياً : التنويع بأهمية العلماء الذين يعلمون وجوه الدلالة للاستدلال على وحدانية الله، والفرق بين الحق والباطل، وكلا الأمرين يدلان على أن الإسلام دين يهتم بالجانب العلمي^(١).

٣. التوسيع : هو ((أن يرد في الآية معنى يشير إلى الفاصلة حتى تعرف منه قبل قراءتها))^(٢)، وثمة تشابه بين التوسيع والتصدير في أنهما يقعان في صدر الآية، إلا أن دلالة التوسيع معنوية، ودلالة التصدير لفظية^(٣).

ومن أمثلته، الفاصلة ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ في قوله ﷺ : ﴿فَمَا أَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَتِهِ أَنْ يَقْتِلُهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لِمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [٨٣] يونس : ٨٣ .

جاءت الفاصلة ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ منسجمةً مع ما يصوّره صدر الآية من إجرام فرعون ومن ماله من أشراف بني إسرائيل الجبناء، في حقّ من يفكّر في الإيمان لموسى عليه السلام، وهذا ما كان فعلاً؛ إذ لم يؤمن له أحد إلا ذريّة من قومه عليه السلام، وهم فئة الشباب الذي آمنوا على خوف عظيم من أنْ تطالهم في أي لحظة من اللحظات يدُّ البطش والتكميل على الرّغم من قوتهم وعنفوانهم^(٤)، وحرف الجر ﴿عَلَى﴾ يبيّن مدى الخوف المستكِن والمتمكن من نفوس هؤلاء الشبان^(٥)، ولا شكّ أنّ مَنْ يقرأ صدر هذه الآية، فيتصور هذه الصورة التي تبلورت مشاهدها في ذهنه، سيندفع بنفسه إلى تَعْتِ فرعون بالمسرف المبالغ المتزاوج حدود الرحمة في القتل والتعذيب، ولا سيما أنَّ الفاصلة ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ أنت مؤكدةً لمضمون الآية^(٦) .

(١). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٦٢ .

(٢). علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه : ٧٩ .

(٣). ينظر : البرهان في علوم القرآن : ١ / ٧٩ .

(٤). ينظر : تفسير القرآن العظيم : ٤ / ٢٥٠ .

(٥). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٢٥٩ .

(٦). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٦٩ .

٤. الإيغال : هو ((أن ترد الآية بمعنى عام، وتأتي فاصلتها بزيادة في ذلك المعنى على الحد الذي بلغته الآية .))

ومن أمثلة هذا النوع، الفاصلة : ﴿يَسْمَعُونَ﴾ في قوله ﷺ : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَلْئَلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَأَنْهَارَ مُبِصِّرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَائِقَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧] (١).

فمعنى الآية قد تم بقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَىٰتٍ﴾ الذي يدل على أنَّ الله أراد بتأليل الليل والنهار أنواعاً كثيرة من الدلائل على قدرة الله ووحدانيته، لا تتحصر فيما ذكر في الآية الكريمة من جعل الليل سكناً للراحة، والنهار مبصراً للحركة فيه للمعاش^(٢)، وجيء بالفاصلة ﴿يَسْمَعُونَ﴾ زيادة في المعنى بأن هذه الآيات تنهض دلالاتها لمن يسمعونها سماع تدبر، ويُعلمون فكرهم فيها، فيعتبرون بها ويتعظون^(٣)، قال ابن عاشور : ((ووصف (قوم) بأنهم (يسمعون) إشارة إلى أن تلك الآيات والدلائل تنهض دلالتها للعقل بالتأمل فيها، وأنَّ توجه التفكير إلى دلالتها غير محتاج إلا إلى التتبّيه عليها ولفته إليها، فلما كان سماع تذكير الله بها هو الأصل الأصيل في استخراج دلالتها وتقرير مدلولاتها على تفاوت الأذهان في الفطنة وترتيب الأدلة جعل آيات دلالتها حاصلة للذين يسمعون))^(٤)، ومن جانب آخر أتت الفاصلة ﴿يَسْمَعُونَ﴾ مشقة مع صدر الآية التي استهل الحديث فيه بالليل الذي يناسبه آلة السمع .

(١). ذكر محمد الحسناوي مثلاً قريباً من هذا المثال لهذا النوع من الفواصل، وهو قوله ﷺ : ﴿أَفَحُكْمُ الْجَنِّيَّةِ يَعْلَمُونَ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقَنُونَ﴾ المائدة: ٥٠ ، فالكلام قد تم بقوله : ﴿وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ ، فاحتاج إلى فاصلة تتناسب مع القرينة الأولى؛ فلما أتى بها أفاد معنى زائداً . ينظر : الفاصلة في القرآن : ٢٩١ .

(٢). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٣٨ ، تقسيم أبي السعود : ٢ / ٦٨٩ .

(٣). ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن : ١٢ / ٢٢٨ .

(٤). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٢٨ .

الدلالة الصوتية

لقد كانت الدلالة الصوتية من صميم اهتمامات النظم القرآني، فينتهي من الألفاظ ما تتميز بخصائص صوتية معينة تنسجم مع السياقات المختلفة، ويعمد إلى الأصوات التي تتسم بإيحاءات دلالية تقتضيها المقامات المتعددة؛ مثل مقام التفخيم والتعظيم والتهليل والتحفير، قال الدكتور مصطفى شعبان المصري : ((وإذا نظرنا في القرآن الكريم نجد أنه يراعي تمام المراعاة ما للفظ من خصائص صوتية تتفق مع السياق الوارد فيه، فإذا كان السياق للتfxيم أو للتهليل كان في ألفاظه من المقاطع الصوتية ما يدل على ذلك كزيادة صوت أو تفخيمه، أو كان يدل على التردد والحيرة كان في ألفاظه تكرار الصوت، أو كان يدل على التمهل والصبر أو التباطؤ كانت الألفاظ فيه تتواли فيها السواكن والحركات، بحيث يعقب كل متحرك ساكن))^(١).

وتستمد الدلالة الصوتية من الصوت الواحد البسيط أو الصوت المركب الثنائي، أو الثنائي الملحق بحرف أو أكثر، أو الثلاثي المجرد والمزيد، أو الرباعي، أو الخماسي، أو السادس^(٢)، فتوحي هذه الأصوات بمدلولات متميزة في مجالات عدّة؛ كالألم، والبهجة، واليأس، والرجاء، والرغبة، والرهبة، والوعيد، والانذار، والتوقع، والترصد، والتثبت ... إلخ^(٣)، وسألناول دراسة الدلالة الصوتية في سورة يونس من مستويين :

الأول : دلالة الصوت المفرد

ويقصد بهذه الدلالة ما كان من : ((مناسبة بين الصوت والمعنى، أي : إن كل صوت من الأصوات الهجائية يناسب حالة من الحالات لا يكاد يخالفها في شيء))^(٤).

فمن دلالة الصوت المفرد :

(١). المناسبة في القرآن : ١١٤ .

(٢). ينظر : دراسات في فقه اللغة : ١٤٢ .

(٣). ينظر : الصوت اللغوي في القرآن : ١٦٤ .

(٤). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٤ .

أ. دلالة صوت (السين) : فمخرج السين : ((ما بين طرف اللسان وفوق الثايا))^(١)، وهو صوت رخو مهمس^(٢)، وله إيحاءات دلالية، وهي أنه يدل على الليونة والسهولة والنقص في أكثر أحواله، والنعومة والملasse^(٣).

ويظهر تناسب صوت (السين) في المفردة ﴿مس﴾ التي وردت في قوله ﷺ : ﴿وَإِذَا مَسَ الْإِنْسَنَ الْضُّرُّ دَعَانَا لِجَنِيَّةٍ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضَرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّيَّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُرِّيَّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢] ، من خلال أن (السين) تدل على الليونة والضعف، وهو ما يتواافق مع مدلول المفردة ﴿مس﴾ المأخوذة من (المس) الذي : ((يدل على جس الشيء باليد))^(٤)، ويدل أيضا على : ((ما ينال الإنسان من أذى))^(٥)، وهذا يفهم منه أنه مس وأذى يسير وليس شديداً، إذ الجس لا يكون إلا برفق ولين. وهذا الصوت (السين) يلقي بظلاله وإيحاءاته على الآية في تشكيل صورة الإنسان الضعيف في مواجهة الأذى والبلاء أو في مواجهة الشهوات؛ فعندما يصبه مس وأذى يسير^(٦)، تجده كيف يضرع إلى ربه بالدعاء مضطجعاً لجنبه أو قاعداً أو قائماً، مبدياً مسكنته وضعفه وعجزه عن تحمل ما أصابه، فإذا ما كشف عنه الأذى، كان في مواجهة شهوته ضعيفاً، فينقاد لها، معرضًا عن الشكر، وكأنه لم يحدث له شيء من الأذى، يقول الفخر الرازي : ((المقصود من هذه الآية، بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء، قليل الشكر عند وجдан النعماء والآلاء، فإذا مسه الضر قبل على التضرع والدعاء مضطجعاً أو قائماً أو قاعداً مجتهداً في ذلك الدعاء طالباً من الله تعالى إزالة تلك المحن، وتبدلها بالنعمة والمحنة، فإذا كشف تعالى عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر، ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الإنعام، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره، وذلك

(١). الكتاب : ٤ / ٤٣٣ ، وسر صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

(٢). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٣ .

(٣). ينظر : الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٥٠ ، خصائص الحروف العربية ومعانيها : ١٠٩ .

(٤). مقاييس اللغة : ٥ / ٢٧١ ، (مس) .

(٥). المفردات في غريب القرآن : ٢ / ٦٠٤ ، (مس) .

(٦). ينظر : روح المعاني : ١١ / ٧٩ .

يد على ضعف طبيعة الإنسان وشدة استيلاء الغلة والشهوة عليه))^(١)، وبهذا يتبيّن كيف ناسبت قيمة (السين) الصوتية مدلول الكلمة **مسَ** في الآية الكريمة .

بـ. دلالة صوت (الشين) : فأمّا مخرج الشين فهو من ((وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى))^(٢)، وأما صفتـه فهو ((صوت رخوًّا مهـمـوسـاً، عند النطق به يندفع الهواء من الرئتين مـارـاً بالحنـجـرةـ، فلا يـحـركـ الـوـتـرـيـنـ الصـوـتـيـيـنـ))^(٣).

ويدلّ صوت (الشين) على ((التقسييّ بغير نظام))^(٤)، ولعل مردّ ذلك إلى ما يُصْحِب عملية النطق به من ((بعثرة النفس أثناء خروج صوت هذا الحرف يماثل الأحداث التي تتم فيها البعثرة والانتشار والتخليط ... أمّا صوته فهو يوحى بإحساس لمسيّ بين الجفاف والتقبّض))^(٥).

ودلالة صوت (الشين) على التفشي تظهر ملامح مناسبته فيما ورد من مفردات في سورة يونس، وهذا ما نجده في مفردة **البشرى** المأخوذة من ((**البَشَرَةُ**)) : ظاهر الجد ...، وجمعها : (**بَشَرٌ وَبَشَارٌ**)، وعَبَر عن الإنسان بـ (**البَشَرُ**) اعتبارا بظهور جلده من الشعر، بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الور ...، وأبْشَرَتُ الرجل وبَشَرَتُهُ وبَشَرَتُهُ : أخبرته بساز بشرة وجهه، وذلك أنّ النفس إذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر ...، ويقال للخبر السار : **البِشَارَةُ وَالبُشْرَى** ، قال **نَجَّالٌ** : **لَهُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** [يومن : ٦٤] [١].

(١). مفاتيح الغيب : ١٧ / ٥٢ .

(٢). الكتاب : ٤ / ٤٣٣، وسرّ صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

(٣). الأصوات اللغوية : ٦٩ ، الحرف المهموس هو الذي لا يهتز معه الوتران الصوتيان ، ولا يسمع لها رنين حين النطق به ، وأما الأصوات الرخوة فعند النطق بها لا ينبعس الهواء انحبساً محكماً .
الأصوات اللغوية : ٢٢ و ٢٥ .

(٤). خصائص الحروف العربية ومعانيها : ١١٣ .

^(٥) خصائص الحروف العربية ومعانٍ لها : ١١٣ .

(٦). المفردات في غريب القرآن : ١ / ٦٠ - ٦١، (شهر).

فالتفشي جاء متناسباً مع استعمال المفردة ﴿البشرى﴾ في قوله ﷺ : ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَنْدِيلُ لِكَوْمَتَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٦٤] [يونس: ٦٤]، فدلالة التفصي مناسبة مع زف البشرى إلى المؤمنين التي تفشت آثارها في قسمات وجوههم؛ بسبب انتشار الدم في النفس، فانبسطت هذه الوجوه وتهالك وبرقت أساريرها، كيف لا، وقد جاء هذا الخبر السار تسلية في وقت يكابد فيه الرسول ﷺ وصحابته المؤمنين أشد أنواع العذاب والأذى والتهديد على أيدي الكفار^(١)، فكانت البشارة في الحياة الدنيا بالنصر والغلبة على المشركين كما حدث في غزوة بدر، وفي الحياة الآخرة بتثبيت الملائكة قلوبهم عند الموت والبعث، وتقوية إلهام الحق والخير فيهم، وتبشيرهم بالجنة كما يفهم من آيات سورة فصلت^(٢)، وكأن آثار هذه البشرى قد تفشت في الحياة الدنيا والآخرة .

وقد وردت دلالة التفصي أيضاً في مفردة ﴿الشَّدِيدَ﴾ المأخوذة من ((الشَّدُّ : العقد القوي ... و (الشَّدَّةُ) تستعمل في العقد، وفي البدن، وفي قوى النفس، وفي العذاب))^(٣) في قوله ﷺ : ﴿مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [٧٠] [يونس: ٧٠] .

لما كان الافتداء على الله بأنه اتّخذ ولداً تعدّ جريمةً عظيمةً، يستلزم ذلك عقاباً يُوصف بالشدة حتى يتفسّى وقع تهديه إلى كلّ من تسول له نفسه أن ينسب الولد إلى الله، تعالى عما يقولون علواً كبيراً، ولاسيما أنّ هذه القيمة الصوتية وردت في معرض التنبية والتحذير والتوبیخ^(٤)، ﴿قَالُوا أَتَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَمْ يُمَّا فِي أَسْمَوَاتٍ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عَنْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّهُمْ أَقْتَلُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٦٨] [قل إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ] [٦٩] [يونس: ٦٨ - ٦٩] .

(١). ينظر : التحرير والتوبیخ : ١١ / ٢١٦ .

(٢). ينظر : تفسیر المنار : ١١ / ٣٥٣ .

(٣). المفردات في غريب القرآن : ١ / ٣٣٨ ، (شد) .

(٤). ينظر : تفسیر أبي السعود : ٢ / ٦٨٩ - ٦٩٠ .

ت. دلالة صوت (الضاد) : وخرج الصاد ((من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأض aras))^(١)، وهو صوت شديد مجهر^(٢)، وأحد الحروف المستعملة^(٣).

ويتسم صوت (الضاد) بالمعاني الآتية :

- الاستطاللة^(٤).

- الشدة^(٥).

- الامتلاء^(٦).

انعكست هذه المعاني على صوت (الضاد) في المفردة ﴿ضياء﴾ الواردة في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُمْ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُ مَا عَدَّ الْسَّيِّنَ وَالْحِسَابُ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يَفْصِلُ الْأَيْنَتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

فال﴿ضياء﴾ مأخوذة من (الضوء)، ومعناه : ((ما انتشر من الأجسام النيرة))^(٧)، وهذا يدل على أن الشمس جسم مثير، يأخذ ضوؤه في الاستطاللة فيصير الضوء شديداً قوياً، مؤذناً بامتناء الأرض به، وبهذا يتبين تناسب صوت (الضاد) مع مدلول مفردة ﴿ضياء﴾ في وصف ضوء الشمس، بينما وصف ضوء القمر بـ ﴿النُّور﴾؛ لأنّ ((الضياء أعلى مرتبة من النور، إذ كل ضياء نور، وليس كل نور ضياء))^(٨)، ومما يقوي دلالة الشدة

(١). الكتاب : ٤ / ٤٣٣، وسر صناعة الإعراب : ١ / ٤٧.

(٢). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٣، ومعنى الشديد : انحباس مجرى الهواء المندفع من الرئتين نتيجة التقاء الشفتين النقاء محكما لحظة من الزمن ، بعدها تتفصل الشفتان انفصلا فجائيا محدثا صوتا انفجاريا ، أما الصوت المجهر فيهتز معه الوتران الصوتيان . ينظر : الأصوات اللغوية : ٢١ و ٢٤ .

(٣). ينظر : سر صناعة الإعراب : ١ / ٢١٣ .

(٤). الصوت اللغوي في القرآن : ١١٤، وتعني الاستطاللة : وهي امتداد الصوت بالضاد من أول حافة اللسان إلى آخرها . دراسات في فقه اللغة : ٢٨٣ .

(٥). ينظر : خصائص الحروف العربية ومعانيها : ١٥٣ .

(٦). ينظر : خصائص الحروف العربية ومعانيها : ١٥٣ .

(٧). المفردات في غريب القرآن : ٣٩٢ / ٢، (ضوا) .

(٨). المفردات في غريب القرآن : ٩٧ / ١ .

الشدة والقوة التي تتوافق مع صوت (الضاد) أَنَّ ﴿ضِيَّة﴾ جمع (ضَفْءٌ) كمثل (حِيَاضٌ) ثُجَّعٌ على (حَوْضٌ) ، وهذا يدل على أن شعاع الشمس أقوى ، فهو مركب من ألوان النور السبعة التي ترى في قوس الله^(١) ، وبهذا كله يكون صوت (الضاد) قد شَكَّلَ مناسباً جلياً بين قيمته الصوتية ودلائل مفردة ﴿ضِيَّة﴾ التي اكتفت به.

(١) ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٦٠ .

الثاني : دلالة تركيب الأصوات

ويقصد بها : ((تالف صوت مع صوت آخر ، ودخولها في عدد من الكلمات ، يكون لها معنى عام))^(١) ، ومن الأمثلة على ذلك :

أ. دلالة (غشي) : في لفظة **أغشيت** في قوله ﷺ : **وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيْئَاتِ جَرَاءَهُ سَيْئَتُهُمْ بِمِثْلِهَا وَتَرَهُقُهُمْ ذَلِكَ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَانُوا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قَطْعًا مِنَ الْيَمِينِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَنَارِ هُمْ فِيهَا خَلِيلُون** [يومن : ٢٧] .

يتكون هذا الصوت من تركيب ثلاثة أحرف ، هي : الغين ، والشين ، والياء ، فالغين مخرجه من أدنى الحلق إلى الفم^(٢) ، وهو : صوت ((رخُّ) مجهور منفتح)^(٣) ، وخرج الشين : ((من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى))^(٤) ، وهو ((صوت رخُّ) مهموس منفتح)^(٥) .

وأما الياء فتشترك مع الشين في المخرج^(٦) ، وهو صوت ((متوسط مجهور نصف صائب منفتح))^(٧) .

يدلّ تركيب الأصوات في الفعل (غشي) على التغطية والستر^(٨) ، في معظم دلالاته^(٩) ، وللгин عدّة دلالات ، منها : البعثرة ، والظلم والسود ، والستر والخفاء^(١٠) ، بينما

(١). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٥٣ .

(٢). ينظر : الكتاب : ٤ / ٤٣٣ ، وسر صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

(٣). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٢ .

(٤). الكتاب : ٤ / ٤٣٣ ، وسر صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

(٥). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٢ .

(٦). ينظر : الكتاب : ٤ / ٤٣٣ ، وسر صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

(٧). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٣ .

(٨). ينظر : مقاييس اللغة : ٤ / ٤٢٥ ، (غشي) ، والمفردات في غريب القرآن : ٢ / ٤٦٧ ، (غشي) .

(٩). ينظر : لسان العرب : ٥ / ٣٢٦٢ - ٣٢٦١ ، (غشا) .

(١٠). ينظر : خصائص الحروف العربية ومعانيها : ١٢٤ - ١٢٥ .

دلالات صوت الشين هي : التفشي، والانتشار، والبعثرة^(١)، في حين يوحى صوت الياء في آخر المفردة بصورة بصرية، وهي صورة الحفرة، مما يدلُّ على استكانة المعنى واستقراره في هذه الحفرة الصوتية^(٢)، وكلَّ ذلك شكلٌ مناسبة بين هذه الإيحاءات الصوتية دلالة مفردة (غشى) التي تدلُّ على ((تغطية شيء بشيء))^(٣).

وهذا ما ناسب دلالة المقطع الصوتي (غشى)؛ لأنَّ هؤلاء المذكورين في الآية الكريمة بسبب كفرهم وكسبهم المعاصي كانوا بحاجة إلى معاقبهم عقاباً شديداً وفقاً لما اقترفوه.

فجاءت هذه الأصوات الثلاثة لتناسب بدلاليتها مع صورة وجوه هؤلاء المزريء، فقد مثل (الغين) البعثرة والظلم والسود والخفاء والستر في تغطية وجوه هؤلاء العاصين بقطع من أديم الليل الحال المظلم، أي : أغشيت هذه الوجوه قطعة فوق قطعة، ليس فيها بصيص من النور بسبب ما تخلفه السيئات والمعاصي من هموم وظلمة ومذلة في الوجه^(٤)، ومثل (الشين) التفشي والانتشار والبعثرة في ستر جميع أجزاء هذه الوجوه بالسود والظلم، في إشارة إلى استحكام الكدر والظلمة النفسية من أثر المعاصي، ومثل (الياء) صورة بصرية، هي صورة الحفرة الصوتية لبيان مدى استكانة واستقرار هذه الظلمات وأثرها في هذا الوجه الأشبه بالحفرة.

ب. دلالة (صدق) : وذلك في قوله ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَّابًا أَنَّا وَجَّهْنَا إِلَيْ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنَّ أَنْذِرَ النَّاسَ وَيَسِيرَ الَّذِينَ أَمْنَوْا أَنَّ لَهُمْ قَدْمٌ صِدْقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّاحِرُ مُّنِينٌ ﴾ [١٦] يونس: ٢] .

يتكون هذا المقطع الصوتي (صدق) من ثلاثة أحرف مركبة، هي : الصاد، والدال، والكاف، فمخرج الصاد ((مما بين طرف اللسان وفovic الثايا))^(٥)، وهو صوت ((رخُّ))

(١). ينظر : خصائص الحروف العربية ومعانيها : ١١٣ .

(٢). ينظر : خصائص الحروف العربية ومعانيها : ٩٨ .

(٣). ينظر : مقاييس اللغة : ٤ / ٤٢٥ ، (غشى) .

(٤). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٣٠٠ ، ومفاتيح الغيب : ١٧ / ٨٤

(٥). الكتاب : ٤ / ٤٣٣ ، وينظر : سر صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

مهوس مطبق ^(١)، ومخرج الدال ((مما بين طرف اللسان وأصول الثايا))^(٢)، وهو صوت ((شديد مجهر منفتح))^(٣).

وأماماً مخرج القاف فهو ((من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى))^(٤)، وهو صوت ((شديد مهوس منفتح))^(٥).

ولهذه الأصوات دلالات^(٦)، فالصاد يحمل دلالة : (الصفاء والصلابة) ، والدال يدل على : (الشدة والقوه) والقاف يدل على : (القوه والمقاومة) ، وقد شكلت هذه الدلالات الصوتية مناسبة مع دلالة مفردة (صدق) التي تدلّ على ((قوه في الشيء قولاً وغيره))^(٧). (وغيره))^(٨).

فالذين آمنوا لهم عند ربيهم قدم صدق، قيل : هي بمعنى السابقة والمنزلة الرفيعة التي لم ينالوها إلا بصفاء قلوبهم وإخلاصهم وبصدق قولهم ونيتهم وصلابتهم في طاعة الله^(٩)، وهذا الذي يتاسب ودلالة (الصاد) ، وقيل : القدم كناية عن العمل الذي لا يقع فيه تأخير ولا إبطاء^(١٠)، ولا شك أن السعي في أداء الطاعات والقربات بإتقان في أوقاتها يستدعي القوة والشدة، وهذا ما يناسب دلالة (الدال) ، كما أن نيل هذه الدرجة الرفيعة عند الله يتطلب قوه في مقاومة النفس ودفع وساوس الشيطان التي قد تحول دون المسارعة إلى امتنال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وهذا ما يناسب دلالة (القاف) .

(١). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٣ .

(٢). الكتاب : ٤ / ٤٣٣ ، وسر صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

(٣). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٣ .

(٤). الكتاب : ٤ / ٤٣٣ ، وينظر : سر صناعة الإعراب : ١ / ٤٧ .

(٥). الدلالة الصوتية في اللغة العربية : ١٤٢ .

(٦). ينظر : خصائص الحروف العربية ومعانيها : ٢٤٩ .

(٧). مقاييس اللغة : ٣ / ٣٣٩ ، (صدق) .

(٨). ينظر : تفسير البيضاوي : ٣ / ١٠٤ .

(٩). فتح القدير : ٢ / ٥٩٦ .

هذه الأمثلة الآتية الذكر قطرات من بحر المناسبة الصوتية في القرآن الكريم، حاولت من خلالها الوقوف على روعة المناسبة بين دلالة تركيب الأصوات في المفردة القرآنية في سورة يونس.

تناسب البنية الصرفية

تشكل البنية الصرفية جزءاً من مكونات النَّظم القرآني؛ لما تُمْدُد به من معانٍ مختلفة بسبب تعدد مبنيتها، فينتقي منها النَّظم الحكيم ما يتاسب مع السياق، يقول محمد عبدالله دراز : ((الجديد في لغة القرآن أنه في كلّ شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسها رحماً بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كلّ مقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مراته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين))^(١).

وبالنظر في المدلول اللغوي لـ (البنية) المشتقة من الفعل (بَنَى) الذي يدل على البناء، وهذا ما نصَّ عليه ابن فارس بقوله : ((الباء والنون والياء أصل واحد، وهو بناء الشيء بضم بعضه إلى بعض))^(٢)، فإنَّ هذا يُذَلِّل على أنَّ البنية هي بناء أو قالب أو هيئة أو إطار ذهنيٌّ مجرد للكلمة المفردة^(٣)، وتعمل هذه البنية على إكساب هذه الكلمة معنَّى إضافياً علاوةً على دلالتها المعجمية، مما يكون له أثره في السياق اللغوي^(٤)، وقد عرَّف الرضي البنية الصرفية، فقال : ((المراد من بناء الكلمة وزنها وصيغتها هيئتها التي يمكن أن يشاركها فيها غيرها، وهي عدد حروفها المرتبة وحركاتها المعينة وسكونها مع اعتبار الحروف الزائدة والأصلية كُلُّ في موضعه، ف (رَجُلٌ) مثلاً على هيئة وصفة يشاركه فيه (عَنْدُ)، وهي كونه على ثلاثة، أولها مفتوح وثانيها مضموم، وأما الحرف الأخير فلا تعتبر حركته وسكونه في البناء، فـ (رَجُلٌ ورَجُلًا ورَجُلٍ) على بناء واحد، وكذا (جَمِيلٌ)

(١). النَّبَأُ العظيم، نظارات جديدة في القرآن : ١٢١ .

(٢). مقاييس اللغة : ١ / ٣٠٢ ، (بني) .

(٣). ينظر : البيان في روائع القرآن : ٢٩ .

(٤). ينظر : السياق اللغوي في القصص القرآني : ٧٢ .

على بناء (ضَرَبَ)؛ لأن الحرف الأخير لحركة الإعراب وسكونه، وحركة البناء وسكونه)^(١).

ولأهمية دراسة تناسب البنية الصرفية داخل النص القرآني، فسأتناولها في سورة يونس من زاويتين، هما : (بنية التضعيف)، و(بنية المشتقات) .

أولاً : بنية التضعيف : ومنه :

١. (فعل) : وهو ما كان مزيداً بحرف واحد، بتضييف عين الفعل، وقد يأتي متعدّياً، مثل قوله : (كَسَرْتُهُ)، و (قَطَعْتُهُ)، أو غير متعدّ، مثل : (سَبَحَ)، و (هَلَّ)^(٢)، وترتدي هذه البنية بعدّة معانٍ^(٣)، من أبرزها :

أ. التكثير والبالغة : وهذا هو الغالب في معانيها^(٤)، قال الرضي : ((الأغلب في (فعل) أن يكون لتكثير فاعله أصل الفعل، ... تقول : (ذَبَحْتُ الشاة)، ولا تقول : (ذَبَحَتْهَا)، و (أَغْلَقْتُ الباب مرة)، ولا تقول : (غَلَقْتُ)، لعدم تصور معنى التكثير في مثاله، بل تقول : (ذَبَحْتُ الغنم)، و (غَلَقْتُ الأبواب)))^(٥).

وسّر اكتساب بنية (فعل) دلالة التكثير والبالغة، مرجعه إلى تكرير الفعل والحدث، قال سيبويه في ذلك : ((تقول : (كَسَرْتُهَا وَقَطَعْتُهَا)، فإذا أردت كثرة العمل قلت : (كَسَرْتُهُ وَقَطَعْتُهُ)، وممّا يدلّ على ذلك قولهم : عَلَطْتُ البعير وَإِلَّا مَعْلَطَةٌ وَبِعِيرٌ مَعْلُوتٌ، وجَرَحْتُهُ وَجَرَحْتُهُمْ، وجَرَحْتُهُ : أَكْثَرَ الْجَرَاحَاتِ فِي جَسَدِهِ ...، وَقَالُوا: يُجَوَّلُ أَيْ : يُكَثِّرُ الْجَوَلَانِ، وَيُطَوَّفُ أَيْ : يُكَثِّرُ التَّطَوِيفِ))^(٦)، وقد ألمح ابن جني إلى المناسبة التي بين بنية (فعل) ودلالته على التكثير، وذلك من خلال أنه رأى أنّ العرب جعلت تكرار العين دليلاً

(١). شرح شافية ابن الحاجب للرضي الاسترابادي : ١ / ٢ .

(٢). ينظر : المنصف : ٩١ / ١ ، والممتع الكبير في التصريف : ١٢٩ .

(٣). ذكر أبو حيان الأندلسي تسعه معانٍ لهذه الصيغة، ينظر : المبدع في التصريف : ١١٢ - ١١٣ .

(٤). ينظر : الكتاب : ٤ / ٦٤ ، وشرح الشافية في التصريف : ٢٥ ، وأبنية الأفعال دراسة لغوية قرآنية : ٤٨ .

(٥). شرح شافية ابن الحاجب للرضي الإسترابادي : ١ / ٩٢ .

(٦). الكتاب : ٤ / ٦٤ .

على تكرار الحدث، فقال : ((ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل ، فقالوا: كسر وقطع وفتح وغلق. وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام))^(١).

وتتخذ دلالة التكثير في بنية (فعل) ثلاثة مستويات^(٢)، ولكن لم يرد في سورة يونس إلا مستويان، هما :

الأول : التكثير في الفعل : وتقع هذه الدلالة في الفعل المتعدي^(٣)، ومثال ذلك (زَيْلَ) في قوله ﷺ : ﴿ وَيَوْمَ مَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا مِّمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوكُمْ مَّا كَانُوكُمْ أَنْتُمْ وَشَرَكَاوْكُمْ فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شَرَكَاوْهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴾ [يونس: ٢٨] .

جاءت صيغة (فعل) الدالة على التكثير؛ لتنسجم مع موقف النكبة الذي سيقف فيه المشركون مع شركائهم وأصنامهم طوبيلاً في أرض المحشر والحساب، لا يتحركون من مكانهم، وهم ينتظرون ماذا سيفعل بهم ؟، فإذا بهم يُفرق بينهم في مشهد من الفضيحة بسبب ما كان منهم من الشرك، وقد جيء بالفعل (زَيْلَ) ليجسد هذا المشهد، ويصور مدى المبالغة والتکثير في التفريق بين المشركين وشركائهم من الأصنام تفريقاً شديداً، وتزييلاً قوياً بكل ما يحمله هذا المشهد من خزي ومهانة ومذلة، حتى يقطع كلُّ ما كان بينهم في الدنيا من صلات، قال ابن عاشور : ((ف(زَيْلَ) فعل للمبالغة في الزيل مثل (فَرَقَ) مبالغة في فَرَقَ، والمعنى وقع بينهم تفريق قوي بحيث انقطعت جميع الوصل التي كانت بينهم))^(٤)، وبهذا تتحقق المناسبة بين دلالة الفعل (زَيْلَ) ومشهد التفريق والتمييز بينهم .

الثاني : التكثير في المفعول : ويكون في المتعدي^(٥)، كما في الفعل (فَصَلَ) الوارد في قوله ﷺ : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَّ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْنَطَ بِهِ نَبَاثُ الْأَرْضِ مِمَّ يَأْكُلُ أَنَاسٌ

(١). الخصائص : ٢ / ١٥٧.

(٢). ينظر : شرح الشافية في التصريف : ٢٥، وشذا العرف في فن الصرف : ٣٤، الصيغ الفعلية في القرآن الكريم : ٥٨٧ - ٥٨٨ .

(٣). ينظر : الصيغ الفعلية في القرآن الكريم : ٥٨٨ .

(٤). التحرير والتوير : ١١ / ١٥١ .

(٥). ينظر : الصيغ الفعلية في القرآن الكريم : ٥٨٨ .

وَالْأَنْعُمْ حَتَّى إِذَا أَخْذَتِ الْأَرْضَ زُحْفَهَا وَأَزْيَّتْ وَظَرَبَ أَهْلَهَا أَنْتَمْ فَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَهَا أَمْرُنَا لَيَأْلُأُ
نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْرِبْ بِالْأَمْسٍ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ﴿٤٤﴾ [يومن : ٢٤].

لما كان التعلق بالدنيا والانغماس في متعها سبباً عظيماً في الظلم والفساد والإفساد في الأرض، اقتضى ذلك المبالغة في تفصيل الأمثال عن حال الدنيا في سرعة زوالها، وانقضاء نعيمها؛ لصرف العقلاء عن الاغترار بها في مقابل نسيان الآخرة، والدعوة إلى الهدية والاعتدال فيها^(١)، وفي مجيء ﴿الآيات﴾ جمعاً بعد الفعل المضعف ﴿نَفَصِّلُ﴾ دليل على على كثرة الآيات التي يبلغ في تفصيلها فيما يخصّ الدنيا والعقيدة والتشريع ... إلخ، كما في هذا المثل البليغ الذي بين أيدينا؛ فقد فصلَ تفصيلاً بديعاً، وصورَ الدنيا تصويراً عجيباً، مما يجعل الذين يعملون فكراً وعقولهم في هذه الآيات يزهدون في الدنيا باقتناعٍ، ويُفْلِّبون على الآخرة بيقينٍ، وفي هذا قال الفخر الرازي : ((قوله : ﴿كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي : نذكر واحدة منها بعد الأخرى، على الترتيب ليكون توالياً وكثرتها سبباً لقوة اليقين، وموجباً لزوال الشك والشبهة))^(٢).

ب. النسبة أو التسمية : أي : نسبة المفعول إلى أصل الفعل وتسميته به، كقولك : فسقته : نسبته إلى الفسق، وسميته به^(٣)، وفي الحديث الشريف : (إذا كفرَ الرَّجُلُ أخاه، فقد باءَ بها أحدهما) ، ومن أمثلته : (كذب) في قوله ﷺ : ﴿وَإِنْ كَذَبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَّا
وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَشُدْ بِرِّئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَإِنَّا بِرَىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يومن : ٤١].

جاءت الصيغة (فعل) مناسبة لما يتصرف به هؤلاء المشركون من التشدد في الصد عن الإيمان بالله، والإمعان في عدم سماع كلمة الحق، بدليل قوله ﷺ : ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الْعُصَمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَّى وَلَوْ كَانُوا

(١). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ٧٦، وتفسير المنار : ١١ / ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٢). مفاتيح الغيب : ١٧ / ٧٨ .

(٣). ينظر : شرح شافية ابن الحاجب للرضي الإسترابادي : ١ / ٩٤، والمبدع في التصريف : ١١٣ .

(٤). ورد الحديث في : صحيح مسلم : ١ / ٧٩، رقم الحديث (١١١) .

لَا يَبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ [يونس: ٤٢ - ٤٣] ، فكان التضعيف في الفعل **كَذَّبُوكَ** ، يعكس ذلك كله من خلال إصرارهم على أن ينسبوا الرسول ﷺ إلى الكذب باستمرار ، لدرجة أنَّ الله يأمره بالتبُّرِّ منهم وتركهم لحالهم ، فلا الدعوة تنفعهم ، ولا التذكير يجدي نفعاً معهم^(١) .
 قصد المكان المشتق منه الفعل نحو **(كَوْفَ)** : أي : مشى إلى الكوفة ، و **(فَوْزَ)** و **(غَوْرَ)** : أي : مشى إلى المفازة والغور^(٢) ، ومن الأمثلة على ذلك **(نَجَّى)** في قوله ﷺ : **فَالْيَوْمَ نُنْجِيَ بِيَدِنَا لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ إِيمَانًا وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ مَا يَنْهَا لَغَيْفَلُونَ ﴿٦٦﴾** [يونس: ٩٢] .

أنت الصيغة **(فَعَلَ)** مناسبة في تصوير عاقبة فرعون وضعفه أمام الله القويّ الجبار حين أحطت به المياه من كل الاتجاهات ، وهو يعلن إيمانه؛ لما يحمله التضعيف في الفعل **(نَجَّى)** من دلالة القصد المكانيّ؛ إذ قُصِّدَ بجثة فرعون بعد موته إلى نجوة ومكان مرتفع من الأرض؛ ليكون هذا المشهد عبرة للمعتبرين ، وأية للمكذبين بهلاكه ، قال الطبرى : ((يقول تعالى ذكره لفرعون : فالليوم نجعلك على نجوة الأرض ببدنك ، ينظر إليك هالكا من كذب بهلاكك ، **لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ إِيمَانًا**)) يقول : لمن بعده من الناس عبرة يعتبرون بك ، فينجزرون عن معصية الله والكفر به والسعى في أرضه بالفساد . والنجوة : الموضع المرتفع على ما حوله من الأرض))^(٣) .

٢. **(تَفَعَّلَ)** : مزيدة بحريفين ، هما التاء وتضعيف العين^(٤) ، وتأتي هذه الصيغة على ضربتين : مُتَعَّدٌ ، وغير مُتَعَّدٌ ، فالمتعدي نحو : قوله ﷺ : **يَتَخَبَّطُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**]

(١). ينظر : الكشاف : ٣ / ١٣٨ .

(٢). ينظر : شرح شافية ابن الحاجب للرضي الإستراباذى : ١ / ٩٦ ، وشذا العرف في فن الصرف : ٣٤ .

(٣). جامع البيان في تأويل القرآن : ١٢ / ٢٧٩ .

(٤). ينظر : الصرف العربيّ ، أحكام ومعانٍ : ٢٧ .

البقرة: ٢٧٥]، قوله : (تَكْفُرُ مَا يَأْفَكُونْ)، وغير المتعدي نحو : (تَحَوَّبْ، وَتَأْمَمْ)^(١)، وترد بعده معانٍ منها^(٢) :

أ. مطاوعة (فَعَلَ) : من حيث التكثير^(٣)، ومن أمثلته : ﴿ وَازَّيْنَتْ ﴾ في قوله ﷺ :

﴿ إِنَّمَا مَثُلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَّا أَنْزَلَنَّهُ مِنَ السَّمَاءِ فَلَخْلَطَ بِهِ بَأْثَرُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَمُ حَتَّىٰ إِذَا أَخْذَتِ الْأَرْضَ زُخْرُفَهَا وَازَّيْنَتْ وَظَرَبَ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَدْرُوْنَ عَلَيْهَا أَتَّهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكِّرُونَ ﴾ [يومن: ٢٤].

فالصيغة (اَزَّيْنَ) أصلها (تَرَيَنْ)، فقلبت (التاء) (زَيَا) لتدغم في (الزي)، فسكتت، وأدغمت، واحتلت همزة الوصل لأجل النطق بالساكن^(٤)، وبهذا اجتمع في الفعل ﴿ وَازَّيْنَتْ ﴾ تضعيفان، لهما الأثر الكبير في تصوير بديع جمال الدنيا بالأرض المخضرة المزданة بأنواع النباتات والزهور كالعروس التي قد بالغت وأكثرت في التَّزِين بصنوف الزينة والزخرفة من فاخر الثياب والحلبي والذهب والجواهر^(٥)، وأهلها فِرَحُون بها، مقبلون عليها، قبل أن ينزل عليها أمر الله لإهلاكها، في إشارة إلى أن هذه الدنيا مهما بالغت في الجمال والزخرفة وأكثرت في الرقي والازدهار خطوات وخطوات، فلا يُعَدُ ذلك شيئاً أمام ما أعده الله في الدار الآخرة التي وصفها الله في الآية اللاحقة بدار السلام .

(١). ينظر : المنصف : ١ / ٩١ - ٩٢ ، والممتع الكبير في التصريف : ١٢٦ ، والمبدع في التصريف : ١٠٩ .

(٢). ترد هذه الصيغة بثمانية معان، ينظر : الممتع الكبير في التصريف : ١٢٦ - ١٢٧ ، والمبدع في التصريف : ١٠٩ - ١١٠ .

(٣). ذكر الرضي أن مطاوعة (تَقْعَلْ) لـ (فَعَلَ) تتخذ ثلاثة معان رئيسة، وهي : التكثير، أو النسبة ، أو التعدية، ولا تخرج بقية المعاني الأخرى عن هذه المعاني الثلاثة. ينظر : شرح شافية ابن الحاجب للرضي الإسترلابادي : ١ / ١٠٤ - ١٠٧ ، وشرح الشافية في التصريف : ٢٧ .

(٤). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٠١ .

(٥). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٥٣ .

من الأمثلة أيضاً : ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في قوله ﷺ : ﴿وَأَنْلَى عَلَيْهِمْ بَنَآرُوْجَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقُولُ إِنْ كَانَ كَبُرُّ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِعَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشَرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَّةٌ ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيْهِ وَلَا يُنْظَرُونَ﴾ [يونس: ٧١] .

فجاءت ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ بالتضعيف مناسبة لمقام التهديد الذي أحسّ به نوح عليه السلام من قومه بسبب كثرة إنكاره عليهم، وتذكيرهم بآيات الله، وعدم احتمالهم له، وهذا يستدعي المبالغة والتکثير في التوكيل على الله أكثر من ذي قبل، ولا سيما أن قومه في كثرة ومنعة، وهو في قلة وضعف، وقد ألمح إلى ذلك الألوسي بقوله : ((ويجوز أن يكون المراد إحداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكيل، وإن فهو عليه سبحانه لا على غيره دائماً))^(١)، ومن دلائل شدة توكله على الله وبالمبالغة، أنه يتحداهم غير مبالٍ بتهدیدهم، كما يفهم ذلك من قوله ﷺ : ﴿فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشَرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَّةٌ ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيْهِ وَلَا يُنْظَرُونَ﴾ [يونس: ٧١] ، فهذه الآية مفرعة بالفاء على جملة ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾^(٢)، قال ابن عطية الأندلسي : ((يا قوم إن كنتم تستضعفون حالی ودعائي لكم إلى الله فإني لا أبالي عنكم لتوكلي على الله تعالى فافعلوا ما قدرتم عليه))^(٣).

ب. الاتخاذ : للدلالة على ((اتَّخَذَ أَصْلَ ما اشتقَّ مِنْهُ ذَلِكُ الْفَعْلُ، نَحْوَهُ : (تَوَسَّدَ الْحَجَرُ)؛ أي : اتَّخَذَ الْحَجَرَ وَسَادَةً))^(٤)، ويكون (تَقَعَّلَ) بهذا المعنى متعدياً كما ذكرنا ذلك سابقاً^(٥)، ومن أمثلته : (تَبَوَّأَ) في قوله ﷺ : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ مُوسَى وَلَيْهِ أَنْ تَبَوَّءَ الْقَوْمَكُمَا بِعِصْرِ بَيْوتَكُمْ وَلَجْعَلُوا بَيْوتَكُمْ قِتَلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧] . ف (التبؤ) : تهيئة المكان وتسويته، ((بَوَّأْتَ لِلرَّجُلِ مَنْزَلًا وَبَوَّأْتَهُ مَنْزَلًا بِمَعْنَى، أي : هِيَّاتَهُ وَمَكَّنْتَ لَهُ فِيهِ))^(٦)، ويقال : ((بَوَّأْتُ لَهُ مَكَانًا) : سَوَّيْتَهُ فَتَبَوَّأَ))^(١)، ويقال : ((

(١). روح المعاني : ١١ / ١٥٧ .

(٢). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٢٣٨ .

(٣). المحرر الوجيز : ٣ / ١٣١ .

(٤). شرح شافية ابن الحاجب لركن الدين الإسترابادي : ١ / ٢٦٠ .

(٥). ينظر : شرح الشافية في التصريف / ٢٨ .

(٦). الصحاح، (بَوَأْ) : ١ / ٣٧ .

(تَبَوَّأْ مِنْزَلًا) ، مهموز : أي : اتَّخذه))^(٢) ، فجاءت ﴿تَبَوَّأَ﴾ بصيغتها الدالة على الاتّخاذ القائم على التهيئه والتسوية مناسبة مع استعمالها في الآية الكريمة ، فالله الحكيم الخبير أمر موسى وهارون عليهما السلام بتهيئةبني إسرائيل روحياً وتنظيمياً استعداداً للخروج من مصر ، وذلك من خلال أن يتخذوا بمصر بيوتاً مباءةً ومساكن خاصة لبني إسرائيل ، ويعلملا على تهيئتها؛ لتكون لهم مرجعاً يلجؤون إليها ، ويقيمون فيها عبادتهم وصلاتهم^(٣) ، قال محمد رشيد رضا :)) اتَّخذا لِقَوْمَكُمَا بِيَوْتًا فِي مِصْرَ تَكُونُ مَسَاكِنٍ وَمَلَاجِئٍ يَبْوَعُونَ إِلَيْهَا وَيَعْتَصِمُونَ بِهَا))^(٤) .

ت. الفعل المتكرر في مهلهلة، بمعنى أن الفعل يحصل بالتلذُّج مرّةً بعد مرّة^(٥) ، ورأى الرضي أن هذا الفعل يُعدُّ ضمن مطاوعة (تَفَعَّل) لـ (فَعَلَ) في الدلالة على التكثير^(٦) .

ومن أمثلته ﴿يَنْفَكَرُونَ﴾ في قوله ﴿إِنَّمَا مَنَّلُ الْحَيَاةُ الَّذِي نَأَى بِكُمْ أَنْزَلَنَا مِنَ السَّمَاءِ فَلَخَنَّلَتِ بِهِ بَنَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَمُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَزَّيَّنَتْ وَظَبَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِيرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيَلَا أَوْنَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَفْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكَرُونَ ﴾^(٧) [يومنس : ٢٤] .

ف (التَّفَكُّر) : تردید القلب في الشيء، يقال :)) (تَفَكَّر) إذا ردَّ قلبه معتبراً))^(٨) ، و قال الراغب الأصفهاني :)) الْفِكْرَةُ: قوّة مطرقة للعلم إلى المعلوم، و (التَّفَكُّرُ) : جولان تلك القوّة بحسب نظر العقل))^(٩) ، وعلى وفق هذا التكييف اللغوي تأتي الصيغة ﴿

(١). المفردات في غريب القرآن : ١ / ٨٩ ، (باء) .

(٢). شمس العلوم : ١ / ٦٦٩ ، (تبأ) .

(٣). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٨١٦ .

(٤). تفسير المنار : ١١ / ٣٩٨ .

(٥). ينظر : شرح ابن الحاجب لركن الدين الإسترابادي : ١ / ٢٦٠ .

(٦). ينظر : شرح ابن الحاجب للرضي الأسترابادي : ١ / ١٠٥ .

(٧). مقاييس اللغة : ٤ / ٤٤٦ ، (فكراً) .

(٨). المفردات في غريب القرآن : ٢ / ٤٩٦ ، (فكراً) .

يَئِكَّرُونَ ﴿٤﴾ بما تُذُلُّ عليه من تكرار الفعل مَرَّةً بعد مَرَّةٍ مُنسجمةٌ مع سياق الآية الكريمة، فبسبب خطورة الاغترار بالدنيا؛ لأنها معرضة للتلف والخراب كحال ما يصيب هذه الأرض، كان ذلك مداعاة إلى أن يُرَدَّ الإنسان قلبه وفكه معتبراً في حال الدنيا الفانية حتى لا يتعلق بها، فيخسر الدار الآخرة، فضلاً عن ذلك فإنَّ فهم الآيات القرآنية والتکوينية^(١) يتطلب من الإنسان مزيداً من تكرار الفكر، وإعمال العقل الذي هو آلة الفكر، حتى ينتفع بها، فكان استعمال صيغة (تفعّل) في هذا الموضع سبباً في تحقيق المناسبة بين استعمالها وسياق الآية، بخلاف ما لو استعملت صيغة أخرى .

(١). ينظر : فتح القدير : ٢ / ٦١٥ .

ثانياً : بنية المشتقات

• اسم الفاعل : هو ((ما اشتُقَّ من المصدر المبني للفاعل، لمن وقع منه الفعل، أو تعلق به))^(١) ، فهو يدلُّ ((على حدِّه ، وفاعله جاريًّا مجرى الفعل في إفادة الحدوث))^(٢) ، وفي توضيح ذلك قال الدكتور فاضل السامرائي : ((ويُقصد بالحدث معنى المصدر، وبالحدث ما يقابل الثبوت، فـ (قائم) ، مثلاً، اسم فاعل يدلُّ على القيام، وهو الحدث، وعلى الحدوث، أي : التغير، فالقيام ليس ملزماً لصاحبه، ويدلُّ على ذات الفاعل، أي : صاحب القيام))^(٣).

واسم الفاعل حالة دلالية تجمع بين الثبوت والحدث، فدلالة الثبوت فيه مرجعها إلى أنه اسم، وأمّا دلالة الحدوث فيه فهي نتاج أنه مشتق من الفعل، فاسم الفاعل (قائم) في قولنا : (خالد قائم) يدلُّ على أنَّ قيام خالد أثبت وأدوم من الفعل في قولنا : (قام خالد)؛ لأنَّ الفعل (قام) هنا يدلُّ على حدوث قيام (خالد) دون ثبوته، ولكن في الوقت نفسه لا يرقى ثبوت اسم الفاعل إلى مرتبة الصفة المشبهة في الثبوت، مثلاً، (طويل) أو (قصير)، أو (كبير)؛ لأنَّه يمكن الانفكاك عن القيام إلى الجلوس، بينما لا يمكن الانفكاك عن الطول إلى القصر^(٤).

ولاسم الفاعل أزمنة متعددة، منها :

أ. الماضي^(٥) : ومثاله في سورة يونس ﴿لَغَفِيلِينَ﴾ في قوله ﷺ : ﴿فَكَفَنَ بِاللَّهِ شَهِيدًا يَنَّا وَيَنْكُمْ إِنْ كُنَّا عَنِ عِبَادَتِكُمْ لَغَفِيلِينَ﴾ [يونس: ٢٩] ، فالسياق يحكي مشهد تبرؤ الشركاء من عبادة الكفار يوم القيمة، وعليه فالمعنى : إنْ كُنَّا قد غَفلَنا عن عبادتكم، واسم الفاعل ﴿لَغَفِيلِينَ﴾ يفيد ثبوت الغفلة في الدنيا بشكل مستمر إلى ساعة الحساب

(١). شذا العرف في فنَّ الصرف : ٥٩ .

(٢). شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك : ٣٠١ .

(٣). معاني الأبنية في العربية : ٤١ .

(٤). ينظر : معاني الأبنية في العربية : ٤١ - ٤٢ .

(٥). ينظر . معاني الأبنية في العربية : ٤٤ .

والعرض، ويبدو لي أنَّ مجِيءَ اسم الفاعل في هذا الموضع مُوكَداً بـ (إنْ) المخففة^(١)، ولكنه تأكيد لا يصل إلى مرتبة التوكيد بـ (إنْ) التقيلة^(٢)، يعكس حالة اضطراب الشركاء وخوفهم من أنْ يحاسبوا على إثْمٍ لم يشاركوا فيه، مما جعلهم يطلبون البراءة من إثم أتباعهم، مُشْهِدين الله وحده على ما يقولون^(٣)، قال ابن كثير في تفسير الآية : ((أَيْ : مَا كُنَّا نَشْعُرُ بِهَا وَلَا نَعْلَمُ بِهَا، وَإِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَا مِنْ حِينٍ لَا نَدْرِي بِكُمْ وَاللهُ شَهِيدٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنَّا مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَى عِبَادَتِنَا وَلَا أَمْرَنَاكُمْ بِهَا وَلَا رَضِينَا مِنْكُمْ بِذَلِكَ))^(٤)، مما جعلهم ياتجئون إلى تخفيف ذلك الاضطراب باستعمال صيغة اسم الفاعل **{لغَفِيلَكُمْ}** لدلالتها على الثبوت والتمكّن، بدلاً من الفعل المضارع الذي يدل على الحدوث وعدم الثبات .

بـ. الحال^(٥) : ومن أمثلته : **{مُخْلِصِينَ}** ، في قوله ﷺ : **{هُوَ الَّذِي يُسَرِّكُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلُكِ وَجَرَيْتُمْ بِهِمْ يُرِيْحُ طَيْبَتُهُ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْعِدُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنَّوْا أَنَّهُمْ أُحْيَطُ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَمْ يَنْجِيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ }** [يونس: ٢٢] ، معناه : دعوا الله بأنّا نخلص له الدين، ولكن النسق القرآني عبر عن ذلك باسم الفاعل بدلاً من التعبير بالفعل المضارع، لدلالته على الثبوت، أيْ : ثبوت صفة الإخلاص فيهم، وشدة تلبّسهم بها، في موقف لا يملك فيه الإنسان إلا أن يكون صادق التعلق بالله ﷺ، كيف لا، وقد أحاط بسفينة هؤلاء الأمواج المتلاطمـة، وسط هبوب عاصفة شديدة هوجاء، وتقطعت دونهم أسباب النجاة مما جعلهم يدعون الله بإخلاص دون أن يشوب دعاءهم شائبة شرك^(٦)، قائلين : **{لَمْ يَنْجِيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ }** ، بينما لو عبر بالفعل المضارع لما أفاد ذلك الثبات في اتصافهم بالإخلاص.

(١). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ١٥٣ .

(٢). ينظر : معاني النحو : ١ / ٣٢١ .

(٣). ينظر : في ظلال القرآن : ٣ / ١٧٨٠ .

(٤). تفسير القرآن العظيم : ٤ / ٢٣١ .

(٥). ينظر : معاني الأبنية في العربية : ٤٥ .

(٦). فتح القدير : ٢ / ٦١٩ .

ومن الأمثلة أيضا على زمن الحال : ﴿فَدَرُونَ﴾، في قوله ﷺ : ﴿إِنَّمَا مَثُلُ الْحَيَاةِ
الَّذِي كَمَّا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْنَطَ بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَمُ حَتَّى إِذَا أَخْذَتِ الْأَرْضُ زُغْرَفَهَا
وَأَزَّيْنَتْ وَظَرَّ أَهْلَهَا أَنْهَمْ قَدَرُونَ عَلَيْهَا أَنَّهَا أَمْرُنَا لَيَلَّا أَوْنَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَفَرَّ
بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكُرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، ومعناه : ظنَّ أهلها أنهم
يقدرون عليها، فاسم الفاعل يدل على ثبوت قدرتهم على هذه الأرض، وتمكنهم من منفعتها،
ومستمرون على تحصيل ثمرتها، قال ابن عاشور : ((ومعنى : أنهم قادرون عليها أنهم
مستمرون على الانتفاع بها محصلون لثمراتها، فأطلق على التمكן من الانتفاع ودوامه لفظ
القدرة على وجه الاستعارة))^(١)، بخلاف لو كان التعبير بالمضارع لكان المعنى أنهم يقدرون
أو لا يقدرون، مما يفوت دلالة التمكн والثبات.

ت. الاستقبال : ومن أمثلته ﴿يُمَعِّجِزِينَ﴾، في قوله ﷺ : ﴿وَيَسْتَعْوِنَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ
إِي وَرَفِيقَ إِنَّمَا لَحْقُ وَمَا آتَشُمْ يُمَعِّجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، ومعناه : وما أنت ستعجزون
ريكم عن إنزال عذاب الآخرة بكم، فقد جاء اسم الفاعل في معرض تفتن الكفار في تكذيبهم
العذاب الذي يعدهم به الرسول ﷺ، فمرة يتظاهرون باستبطاء الوعد بنزول العذاب عليهم
استخفافاً به، ومرة يقبلون على الرسول ﷺ مستقمين عنه؛ أحق هو؟^(٢)، فكان المناسب أن
يأتي الردّ قاطعاً باشتغاله على صيغة اسم الفاعل ﴿يُمَعِّجِزِينَ﴾ المنفيّة؛ لما تدلّ عليه من
ثبت عدم قدرتهم على إعجاز رיהם في إنزال العذاب بهم عندما يحل بهم، وممّا يقوّي دلالة
اسم الفاعل على الثبوت، توكيده بحرف الجر الزائد (الباء)، إلى جانب أن الجملة التي
اكتفت اسم الفاعل سبقت مساق التّوعّد والتخييف والترهيب^(٣)، وهذا ما يعكسه تأويل هذه
الآلية، قال الطبرى : ((وما أنت بمعجزي الله إذا أراد ذلك بكم بهرب أو امتناع، بل أنت في
قبضته وسلطانه وملكه، إذا أراد فعل ذلك بكم، فانقوا الله في أنفسكم))^(٤).

(١). التحرير والتنوير : ١١ / ١٤٣ .

(٢). ينظر : التحرير والتنوير : ١١ / ١٩٥ .

(٣). ينظر : فتح القدير : ٢ / ٦٣٤ .

(٤). جامع البيان في تأويل القرآن : ١٢ / ١٩١ .

• الصفة المشبهة : هي ((ما اشتقت من فعل لازم لمن قام به على معنى الثبوت))^(١)، وشبهت باسم الفاعل لما بينهما من أمور مشتركة، وهي : ((أنها تدل كما يدل على حدث، ومن قام به، كما أنها مثله تؤثّث وتنثّي وتجمّع جمع مذكر سالم، ولذلك حملت عليه في العمل))^(٢).

وتختلف الصفة المشبهة عن اسم الفاعل في أن الوصف فيها قد ثبت في صاحبها على وجه الدوام، نحو : هو كريم، فإن أُريدَ معنى الحدوث جيء باسم الفاعل، فنقول : هو كارم^(٣).

ونقسم الصفة المشبهة بالنظر إلى دلالتها على الثبوت على ثلاثة أقسام :
الأول : ما يفيد الثبوت والاستمرار، مثل : (أسمر، وأبيض، وأغور، وطويل، وقصير، ودميم).

الثاني : ما يدل على وجه قريب من الثبوت، مثل : (تحيف، وسمين، وبليغ، وكريم، وجود).

الثالث : ما لا يدل على الثبوت، مثل : (ظمآن، وغضبان، وريان)^(٤).
وتأتي الصفة المشبهة على عدة أوزان، منها :
(فعيل) : تأتي هذه الصيغة للدلالة على الثبوت في الصفات مما هو خلقة أو مكتسب، مثل (جميل، وقبيح)، أو (حليم، كريم)^(٥)، وقال ابن فارس : ((وتكون

(١). الكافية في علم النحو : ٤١.

(٢). معجم الأوزان الصرفية : ١٢٥، وينظر : الأصول في النحو : ١ / ١٣٠، والمفصل في صنعة الإعراب : ٢٩٣.

(٣). ينظر : المفصل في صنعة الإعراب : ٢٩٣، وشرح الرضي على الكافية : ٣ / ٤٣١، وشرح التصريح على التوضيح : ٤٨ / ٢.

(٤). ينظر : معاني الأبنية في العربية : ٦٧.

(٥). ينظر : شرح شافية ابن الحاجب، للرضي الأسترابادي : ١ / ٧٤، ينظر : معاني الأبنية في العربية : ٨٣.

الصفات الازمة للنفوس على فَعِيلٍ نحو : (شريف وخفيف) ، وعلى أضدادها : نحو (وَضِيعٌ وَكَبِيرٌ وَصَغِيرٌ) (١) .

ومن أمثلة هذه الصيغة في سورة يونس :

أ . ﴿بَرِيءٌ﴾ ، في قوله ﴿وَلَذِكْرُكَ فَقْلَ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] .

فالصفة المشبهة ﴿بَرِيءٌ﴾ جاءت منسجمةً في الآية؛ لورودها في سياق البراءة من الكفار ومعتقداتهم في حال إصرارهم على التكذيب، وهذا يقتضي المباعدة والمتاركة عنهم على الدوام، والثبات على المبادئ، وعدم التنازل لهم، بعدما تبين لهم صدق القرآن الكريم وصدق الرسول الأكرم ﷺ، وصارت إقامة الحجج عليهم لا تجدي نفعاً، لأن البريء هو : ((المُتَنَحِّي عَنِ الْبَاطِلِ وَالْكَذِبِ، الْبَعِيدُ مِنَ النَّهَمِ، النَّقِيُّ الْقُلْبُ مِنَ الشَّرِكِ)) (٢) .

وتتقاطع الجملة : ﴿أَتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مع الجملة السابقة : ﴿لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ في المعنى، إذ جاءت للتوكيد والتميم لها (٣)، وهذا التقاطع في حد ذاته يقوي دلالة ثبوت ورسوخ صفة ﴿بَرِيءٌ﴾ في الرسول ﷺ من خلال الآتي :

- التخصيص سواء أكان بالإضافة في : ﴿عَمَلِي﴾، أو بتقديم الجار والمجرور على المبدأ في قوله : ﴿لِي عَمَلِي﴾، أو بتقديم المسند إليه ﴿أَنَا﴾ على المسند ﴿بَرِيءٌ﴾ .
- مجيء جملتي ﴿لِي عَمَلِي﴾، و﴿وَأَنَا بَرِيءٌ﴾ اسميتين يفيد الثبوت (٤) .

ب. ﴿الشَّدِيدَ﴾ ، في قوله ﴿مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذَاقُهُمُ﴾ [يونس: ٧٠] .

حققت صيغة (فَعِيلٍ) مناسبةً بينها وبين استعمالها في الآية الكريمة، ولا سيما أنها وردت في سياق الافتراء على الله الكذب بأنه اتَّخذ ولداً، تَرَهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ وَتَقَدَّسُ، ﴿قَالُوا﴾

(١). الصاحبي في فقه اللغة : ١٧١ .

(٢). لسان العرب : ١ / ٢٤١ ، (برأ) .

(٣). ينظر : البحر المحيط : ٥ / ١٦١ .

(٤). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ١٧٦ .

أَتَخَذَ اللَّهُ وَكَذَّابُهُنَّهُ هُوَ الْفَقِيرُ لِهُمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ تِنْ سُلْطَانٍ
بِهِنْدَأَ أَنْقُلُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذَبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦﴾

[يونس: ٦٨ - ٦٩] ، وهذا يستلزم تعذيبهم عذاباً عسيراً دائماً ثابت الشدة تغليظاً لعقوبتهم على أقوالهم القبيحة في الذات العليّة، وأفعالهم القبيحة^(١).

ومجيء الصفة المشبهة **الشَّدِيدَ** معرفةً يتناقض مع تعريف **الْكَذَبَ**، إلى جانب أنَّ التعليل بحرف الجر (باء) في قوله ﷺ : **بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** يدلُّ على استحقاقهم العذاب الشديد بسبب استمرارهم في كفرهم كما يفهم ذلك من استعمال الفعل المضارع **يَكْفُرُونَ**^(٢)، فضلاً عن دلالة الفعل الناقص **كَانُوا** على تمكن كيونة الكفر المستكنة فيهم، حتى صار الكفر دينهم ومنهجهم^(٣)، وكلُّ ذلك يؤذن بانسجام الصفة المشبهة **الشَّدِيدَ** مع السياق في الدلالة على الثبوت والتمكن في انتصاف العذاب بالشدة.

ومن صيغ الصفة المشبهة أيضاً :

مُسْتَقِيمٌ، في قوله ﷺ : **وَاللَّهُ يَدْعُونَا إِلَى دَارِالسَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ** ﴿٥٥﴾ [يونس: ٢٥].

فصيغة اسم الفاعل **مُسْتَقِيمٌ** تقييد ثبوت الاستقامة، على سبيل الاستعارة، في الصراط الذي يوصل إلى دار السلام من غير التواء ولا اعوجاج، والمقصود به هو الاستقامة على الإسلام في كل عقيدته وفضائله وعباداته وأحكامه^(٤)، ومن ثمَّ كانت هذه الصفة ثابتة في الإسلام ثبوتاً دائماً مستمراً، فلا يأتي وقت من الأوقات تنفكُ عنه هذه الصفة، ولو عبرَ عن هذه الصفة بالفعل الماضي أو المضارع لما دلَّ على المعنى المطلوب، بل لدلَّ على احتمال انفصال هذه الصفة عنه، مما يؤذن بتلاشي دلالة الثبوت، وهو ما لا يقتضيه السياق .

(١). ينظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم : ٧ / ١٠١ .

(٢). ينظر : التحرير والتورير : ١١ / ٢٣٤ .

(٣). ينظر : نظم الدرر : ٩ / ١٦١ .

(٤). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٩٨ .

٣. صيغ المبالغة : هي ((أسماء تشقّ من الأفعال للدلالة على معنى اسم الفاعل مع تأكيد المعنى ونقويته والمبالغة فيه، ومن ثم سميت صيغ المبالغة، وهي لا تشقّ إلا من الفعل الثلاثي))^(١).

فصيغ المبالغة على اختلاف أوزانها هي متفاوتة المعاني؛ فـ ((الكثرة المستفادة من فعال) مثلاً أشدُّ من الكثرة المستفادة من (فَعُول) ... وقد يؤخذ من قولهم : زيادة البناء تدل على زيادة المعنى أبلغية (فعال ، ومفعّال) على (فَعُول وفِعْيل)، وأبلغية هذين على (فَعِيل)^(٢).

ويرى الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي أن أبنية المبالغة تأتي على ضربين، فيقول : ((منها ما يختلف عن الآخر لتأدية معنى جديد، نحو قولهم : (رجل ذُعْرَة)، أي : ذو عيوب، و (امرأة ذُعْرَة) : تُذَعَّرُ من الرِّيبةِ وَالْكَلَامِ الْقَبِيحِ، وَنَحْوِ (الضَّحَّاكُ وَالضُّحَّكَةُ)، فـ (الضَّحَّاكُ) مدح، وـ (الضُّحَّكَةُ) نم ...، ومنها ما تدلُّ صيغته على معنى في المبالغة يختلف عن الصيغة الأخرى، فمعنى (فعال) يختلف عن (فَعُول) في المبالغة، وهما يختلفان عن (مفعّال) وهكذا))^(٣).

ومن صيغ المبالغة الواردة في سورة يونس :

فَعِيلٌ : تستعمل هذه الصيغة ((لمن صار له كالطبيعة))^(٤)، ويرى الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي أن الأصل في صيغ المبالغة أنها منقوله من شيء إلى آخر فتحصل بسبب ذلك المبالغة^(٥)، وهكذا يقال في هذه الصيغة، فهي منقوله من (فَعِيلٌ) التي هي من أبنية الصفات المشبهة، يقول الدكتور موضحاً ذلك : ((أنَّ هذا البناء منقول من (فَعِيلٌ) الذي هو من أبنية الصفة المشبهة أيضاً، وبناء (فَعِيلٌ) في الصفة المشبهة يدلُّ على

(١). الصرف العربي، أحكام ومعانٍ : ٩٩ .

(٢). حاشية الصبان على شرح الأشموني : ٢ / ٤٤٨ .

(٣). معاني الأبنية في العربية : ٩٣ - ٩٤ ، وينظر : المحكم : ٢ / ٧٧ ، (ذعر)، المخصص : ١ / ٢٢٦ ، لسان العرب : ٤ / ٢٥٥٧ ، (ضحك) .

(٤). همع الهوامع : ٣ / ٧٥ ، والكليات : ١٠٠٣ .

(٥). ينظر : معاني الأبنية في العربية : ٩٥ .

الثبوت فيما هو خلقة أو بمنزلتها، ك (طَوِيلٌ، وَقَصِيرٌ، وَفَقِيهُ، وَخَطِيبٌ)، وهو في المبالغة يدل على معاناة الأمر وتكراره حتى أصبح كأنه خلقة في صاحبه وطبيعة فيه، ك (عَلِيْمٌ)، أي : هو لكتة نظره في العلم وتبصره فيه أصبح العلم سجية ثابتة في صاحبه، كالطبيعة فيه ^(١).

ومن الأمثلة على هذه الصيغة في سورة يونس، ﴿أَلَفَّيْ﴾ في قوله ﷺ : ﴿قَالُوا أَتَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّمَا يَعْلَمُ مِنْ سُلْطَانِنَا يَهْدِنَا أَنَّقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨] .

جاءت صيغة (فَعِيلٌ) متناسبة مع نسق الآية الذي وردت فيه، فالكافر قد افتروا على الله فِرْيَةً أَنَّهُ اتَّخَذَ ولَدًا ، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً، وهذا الفِرْيَة لا تصح ولا تستقيم بأي حال من الأحوال؛ لأنها تُذَلِّلُ على الحاجة والافتقار، فجيء بصيغة المبالغة ﴿أَلَفَّيْ﴾ لنفي هذه الفِرْيَة بأنَّ الله يَتَّصَفُ بالغُنى اتِّصافاً مُبَالِغاً فيه إلى حدَّ أنَّ هذه الصفة صارت كأنها هي ذاته وطبيعته ﷺ، وليس طارئة ولا محدثة، فكيف يكون بحاجة إلى الولد .

وإذا جئنا إلى النواحي الفنية التي تبين مدى انسجام هذه الصيغة مع الآية في نفي الولد عنه ﷺ، فإننا نلحظ أنَّ الأصل فيها أنها تتعدى بـ (عن)؛ أي : إنَّ الله غنيٌّ عن الولد مثلاً، ولكن التعبير القرآني آثر حذف الجار والمجرور؛ للدلالة على الغنى المطلق، إذ الله غنيٌّ عن كل شيء، بدليل أنَّ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) ، قال محمد رشيد رضا : ((هو الغُنْيُ بذاته عن الولد، لأنَّ كل ما في الوجود من العالم العلوي والسفلي ملك وعبيد له لا يحتاج منها إلى شيء، ويحتاج إليه كل شيء، ولا يشبهه أو يجانته منها شيء، فالإنسان يحتاج إلى الولد لأمور ... والله تعالى لا يحتاج إلى شيء من هذه المنافع؛ لأنَّه هو الغُنْيُ عن كل شيء بذاته أَزْلًا وأَبَدًا))^(٣) ، فضلاً عن تعريف الصفة بـ (الألف واللام)؛ لإفاده الكمال درءاً لصفة النقص عن احتياجه ﷺ إلى الولد، ويبدو لي أنَّ صيغة

(١). معاني الأئمة في العربية : ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٣٨ - ١٣٩ ، وفتح القدير : ٢ / ٦٤٥ ، والتحرير والتتوير : ١١ / ٢٣١ - ٢٣٠ .

(٣). تفسير المنار : ١١ / ٣٨٦ .

المبالغة هذه جاءت لتحقق توازناً في الرد على صيغة المبالغة والتکلف^(١) ﴿أَتَخْذَ﴾ التي استعملوها في الافتراء على الله .

ومن أمثلتها أيضاً ﴿عَلَيْهِ﴾ في قوله ﷺ : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَتُونِي بِكُلِّ سَحِيرٍ عَلَيْهِ﴾ ﴿٧٦﴾ [يوںس : ٧٩] .

أنت صيغة (فَعِيلٌ) مُحَفَّقةً انسجاماً بينها وبين استعمالها القرآني في الآية الكريمة، فقد ناسبت ﴿عَلَيْهِ﴾ بدلاتها موقعها في الآية الكريمة، إذ هي صيغة مبالغة للسحرة الذين أمر فرعون بإحضارهم على وجه السرعة من كانوا متمكنين في علم السحر وصناعته، ماهرين في فنونه وخدعه حتى صار العلم بالسحر من طبعهم، يقول ابن عاشور : فرعون ((أمر بإحضار جميع السحراء المتمكنين في علم السحر لأنهم أبصر بدقاقيه، وأقدر على إظهار ما يفوق خوارق موسى في زعمه، فحضورهم مغِّ عن حضور السحراء الضعفاء في علم السحر لأن عملهم مظنة أن لا يوازي ما أظهره موسى من المعجزة، فإذا أتوا بما هو دون معجزة موسى كان ذلك مُرْوِجاً لدعوة موسى بين دماء الأمة))^(٢) .

وبهذا تكون صيغة المبالغة ﴿عَلَيْهِ﴾ منسجمةً في التعبير عن حالة فرعون النفسية، والخوف الذي يعتمل في نفسه من ضياع التقاليد الموروثة عن آبائهم، ومن أن يُسلِّب سلطانه وملكه كما صرَّح بذلك في قوله ﷺ : ﴿قَالُوا أَجْئَنَا لِتَأْتِفَنَا عَمًا وَجَدَنَا عَلَيْهِ مَا بَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَخْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ [يوںس : ٧٨] ، فلو عَبَّرَ باسم الفاعل (عالِم) لما دلَّ على المبالغة تصييصاً، بل لكان المعنى يحتمل : أنه عالم بالسحر قليلاً كان أو كثيراً، وهذا ما لا يقتضيه السياق، ففرعون كما قلنا خائف على مكتسباته ومنصبه، ولهذا عَبَّرَ بمفردة ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ بكل ما تحمله من دلالة المبالغة والسرعة والشمول لدرجة أنَّ هذه المفردة مختصة بالله ﷺ فهي أوسع من (الكِبْر ، والكِبْر)^(٣) ، قال الراغب الأصفهاني : ((والكِبْرِيَاءُ : الترفع عن الانقياد، وذلك لا يستحقه غير الله، فقال : ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ

(١). ينظر : شذا العرف في فن الصرف : ٣٥ ، ونظم الدرر : ٩ / ١٥٩ .

(٢). التحرير والتنوير : ١١ / ٢٥٣ .

(٣). من أسرار البيان القرآني : ٢١ - ٢٢ .

وَالْأَرْضُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ [الجاثية: ٣٧] (١)، وفي هذا تحقيق توازن في التعبير؛ مبالغة في مقابل مبالغة .

(١). المفردات في غريب القرآن : ٢ / ٥٤٦، (كبير) .

المبحث الثاني تناسب التركيب النحوي والمفردة اللغوية

تناسب التركيب النحوي

يتّخذ التركيب النحوي صوراً مختلفةً ومتعددةً، ومنها صورة التقديم والتأخير، وصورة الذكر والمحذف.

تناسب التقديم والتأخير

التقديم والتأخير ظاهرة مهمة من ظواهر التعبير في النظم القرآني، لما تحدثه المفردات من حركة داخل التراكيب النحوية تقديمًا أو تأخيرًا، فيكون لها أثر كبير في المعنى، بحسب ما يقتضيه السياق، وقد قال عنه الشيخ عبد القاهر الجرجاني مبيناً أهميته : ((هو باب كثير الفوائد، جمُّ المحسن، واسعُ التصرف، بعيدُ الغاية، لا يزالُ يفتَرُ لك عن بدعة، ويُفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعاً، ويُلطفُ لديك موقعه، ثم تنتظر فتجد سبباً أن رافقك ولطفَ عندك، أن قدمَ فيه شيءٌ وحولَ اللفظ عن مكان إلى مكان .))^(١).

وللدلالة النفسية أثر في تقديم الألفاظ وتأخيرها في الجمل والتراكيب، إذ الترتيب اللفظي راجع إلى الترتيب المعنوي في النفس^(٢)، قال السهيلي : ((ما تقدم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب تقدم المعاني في الجنان))^(٣).

فتتقديم الألفاظ وتتأخر على وفق أسباب معينة، يأتي في مقدمتها (العناية والاهتمام)، وهو ما أصلّه سيبويه في هذه المسألة بقوله : ((كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وبيانه أعني، وإن كانوا جميعاً يهمّانهم ويغبنانهم))^(٤).

ولا ينبغي الاكتفاء بالقول إن هذه المفردة قدمت للعناية والاهتمام، بل لابد من إيضاح أسباب العناية باللفظ الذي قدم، وهذا يتطلب بحثاً عميقاً عن أسرار العناية بالألفاظ المقدمة على غيرها، وقد انتقد الجرجاني النحويين الذين لا يولون هذه المسألة حقّها من الدراسة،

(١). دلائل الإعجاز : ١٤٨ .

(٢). ينظر : دلائل الإعجاز : ١٠٦ .

(٣). نتائج الفكر في النحو : ٢٠٩ ، وينظر : التعبير القرآني والدلالة النفسية : ٣٠٣ .

(٤). الكتاب : ١ / ٣٤ .

فيكتفون بالوقوف عند حد القول بالعناية ملتزمين بما أصله سيبويه، فقال : ((وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: إنه قدّم للعناية، ولأن ذكره أهّم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية؟ ولمْ كان أهّم؟، ولتخيلهم ذلك، قد صاغر أمر التقاديم والتأخير في نفوسهم، وهوّنوا الخطب فيه، حتى إنّك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرورة من التكليف، ولم ترّ ظنًا أزري على صاحبه من هذا وشبهه))^(١)، ولكن سيبويه في الحقيقة لم يقصر سرّ التقديم على العناية والاهتمام، بل أشار إلى سرّ تتبّيه المخاطب وتأكيد الكلام، وهو ما ذكره الجرجاني نفسه بقوله : ((وهذا الذي قد ذكرت من أنّ تقديم ذكر المحدث عنه، يفيد التتبّيه له، قد ذكره صاحبُ (الكتاب) في المفعول، إذا قدّم فرْفع بالابتداء وبُنيَ الفعلُ الناصِبُ، كان له عليه، وعُذِّيَ إلى ضميره فشَغَلَ به، كقولنا في (ضربت عبد الله) : (عبد الله، ضرَبَته) ، فقال : وإنما قلتُ (عبد الله) فنبَهْتُ له، ثم بنَيَتُ عليه الفعلَ ورفَعْتُه بالابتداء))^(٢). اختلفت مناهج العلماء من بلاغيين ومفسرين في مسألة التقديم والتأخير بحسب أفهمهم، ومنطلقاتهم العلمية، وقد أفضى في تعدادها وشرحها الدكتور عبدالعظيم المطعني^(٣) بما يعني عن إعادة الكلام عنها مرة أخرى، وسأتابع في هذا المبحث منهج الدكتور فاضل السامرائي لما فيه من الشمولية والموضوعية، والتقديم عنده قسمان هما^(٤) :

١. تقديم اللّفظ على عامله

ويراد به تقديم ما حقّه التأخير، وذلك اللّفظُ المقدمُ له رتبة معلومة في التركيب بحسب ما تقتضيه القواعد النحوية^(٥)، كتقديم الخبر على المبتدأ، وتقديم المفعول به على فعله، وتقديم الحال على فعله، وتقديم الجار والمجرور أو الظرف على فعلهما^(٦)، والغرض غالباً ما يكون في هذا النوع من التقديم هو إفاده (التخصيص والحصر)، قال السيوطي : ((كاد

(١). دلائل الإعجاز : ١٤٩ .

(٢). دلائل الإعجاز : ١٦٥ ، وينظر : البلاغة والأسلوبية : ٣٣١ .

(٣). ينظر : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ٢ / ٧٩ - ١٤٥ .

(٤). ينظر : التعبير القرآني : ٤٩ .

(٥). ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ٢ / ١٤٦ .

(٦). ينظر : التعبير القرآني : ٤٩ .

أهل البيان يطبقون على أن تقديم المعمول يفيد الحصر، سواء كان مفعولاً أو ظرفاً أو مجروراً، ولهذا قيل في : ﴿إِيَّاكَ نَبْعُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] : معناه : نخصك بالعبادة والاستعانة ^(١).

ومن أمثلة تقديم اللفظ على عامله في سورة يونس قوله ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوا لِلْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِبَرِّيَّةِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَيْقَسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤] ، فتقديم الجار والمجرور (الخبر) على ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ (المبتدأ)، يفيد تخصيص الرجوع إلى الله وحده ^(٢)، بعد الموت وفناء الكون، وفي ذلك نفي لمعتقدات الكفار وقطع لمطامعهم في أن تشفع لهم يوم القيمة أصنامهم ومعبداتهم التي يتخدونها شفاء لهم عند الله، كما في قوله : ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَتُوْنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ، ويجيء هذا التقديم في مقام التعليل لقوله ﴿ذَلِكُمْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣] ، وفي وجوب العبادة لله؛ بمعنى إذا كان الرجوع إلى الله وحده دون غيره، فالله إذن هو أوجب بأن يعبد وأحقّ بأن يطاع، وأما عبادة ما عداه فهي باطلة ^(٣)، فضلاً عن انسجام هذا التقديم مع ما بعده من التوكيد بالمصادر ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾؛ لإثبات أن البعث والنشور إلى الله حقيقة ثابتة لا تقبل الشكّ أبداً ^(٤).

ومن الأمثلة أيضاً قوله ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخَسْنَى وَزِيَادَةً وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَرْ وَلَا ذَلَّةٌ أُولَئِكَ أَنْحَبْ لِجَنَّةَ هُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ﴾ [يونس: ٢٦] ، وفي قوله : ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَرْ وَلَا ذَلَّةٌ﴾ تقدم المفعول به ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ على الفاعل ﴿قَرْ وَلَا ذَلَّةٌ﴾ للأسباب الآتية :

١. للاهتمام ببيان أن المحفوظ من أن يناله الفقر أو الذلة هو أشرف أعضائهم .
٢. التشويق إلى المتأخر الذي حقه التقديم .

(١). الإتقان في علوم القرآن : ٤ / ١٥٧٧ .

(٢). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ٣١ .

(٣). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٩٠، وروح المعاني : ١١ / ٦٦ .

(٤). ينظر : البحر المحيط : ٥ / ١٢٨ .

٣. التفصيل في ذكر الفاعل : ﴿فَرَّ وَلَا ذَلَّ﴾، وهذا يقتضي تأخيره^(١).

ومن الأمثلة أيضاً قوله ﷺ : ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرَدُوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٠﴾ [يوس: ٣٠]، جاء في الآية الكريمة (الظرف) ﴿هُنَالِكَ﴾ مقدماً على فعله ﴿تَبْلُوا﴾ لتناسبه مع السياق الذي جرى الحديث فيه عن يوم القيمة الذي يجد فيه المؤمنون الإكرام، ويجد فيه الكافرون الإهانة، وقد اجتمعوا في موقف الخزي والعار مع شركائهم وأصنامهم التي تبرأت من عبادتهم^(٢)، وهذا يستدعي تقديمها لإثارة الاهتمام بذلك اليوم العظيم ما يحدث فيه من شدائ드 الأمور^(٣)، فضلاً عن أن هذا التقديم يأتي مراعياً حُسن النظم في الآية التي قبله؛ إذ ورد فيها (الظرف) مقدماً أيضاً في قوله ﷺ : ﴿وَيَوْمَ تَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشَرَكَاوْكُمْ فَرِيقُنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنُّمْ إِنَّا نَعْبُدُونَ﴾ [يوس: ٢٨].

ومن أمثلة التقديم أيضاً قوله ﷺ : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ مَا أَذَنَ اللَّهُ أَذْنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفَرَّوْنَ﴾ [يوس: ٥٩].

ففي الآية الكريمة تقدم المعمول وهو الجار والمجرور ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ على الفعل ﴿تَفَرَّوْنَ﴾ لإفاده الاهتمام، وتخسيصهم وقصرهم الافتراء على الله وحده^(٤)؛ لأنَّ السياق سياقُ تشنيع على هؤلاء المفترين حين جعلوا رزق الله منه حلالاً وحراماً افتراء على الله، وعلاوةً على ذلك أنَّ هذا التقديم يتناصف مع التقديم في الجملة التي قبله مراعاة للحسن في النظم في تقديم المسند إليه ﴿مَا أَذَنَ اللَّهُ﴾ على المسند الفعلي ﴿أَذَنَ لَكُم﴾، إلى جانب مجيء اسم الجالة اسمًا ظاهراً وليس مُضمراً، مسبوقاً بالاستفهام الإنكاري، كلَّ ذلك لأجل زيادة التشنيع، وتغليظ الزجر، وتهويل هذا الافتراء^(٥)، ناهيك أنَّ هذا التقديم فَرَضَهُ مراعاة الفاصلةِ

(١). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٥٤ - ٦٥٥ .

(٢). ينظر : تفسير القرآن العظيم : ٤ / ٢٣١ .

(٣). ينظر : التحرير والتواتير : ١١ / ١٥٣ .

(٤). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٤٢ .

(٥). ينظر : التحرير والتواتير : ١١ / ٢١٠ ، وفتح القدير : ٢ / ٦٣٨ .

القرآنية، فالآيات قبل هذه الآية وما بعدها تنتهي بـ (النون)، فلو جاءت الجملة على أصلها لاختلَّ النظام الصوتيُّ للفواصل القرآنية^(١).

٢. تقديم اللفظ على غير عامله

ويقصد به تقديم ما ليس له رتبة محددة في التركيب^(٢)، مثل تقديم بعض الألفاظ على بعض، لدواعٍ بلاغية تستدعي ذلك الت تقديم بما يتوافق مع السياق والمقام، وعلى رأسها غرض العناية والاهتمام، فاللفظ الذي تدور عليه الأهمية يقدم في السياق اعتناء به^(٣).

ومن أمثلة تقديم اللفظ على غير عامله، قوله ﷺ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَصْرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَةٌ نَّأَيْدِي اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

ففي تقديم قوله ﷺ على قوله : ﴿ لَا يَصْرُّهُمْ ﴾ يرى الخطيب الإسکافي أنَّ سبب هذا الت تقديم راجعٌ إلى أنَّ العبادة تقام للعبود بالدرجة الأولى خوفاً من أليم عقابه، ثم طمعاً في نعيم جنته، وهو ما يؤيده السياق من ذكره ما يدلُّ على الخوف من الضرر في قوله ﷺ على لسان نبيه محمد ﷺ : ﴿ إِنَّمَا يَخَافُ أَذَانَ رَبِّكَ إِنَّ عَصَيْتَ رَبِّكَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: ١٥]، فيكون حاصل المعنى : ((فكانه قال : ويعبدون من دون الله ما لا يخافون ضرراً في معصيته، ولا يرجون نفعاً في طاعته))^(٤).

ولكنني لا أؤيد الخطيب الإسکافي في قوله : إن العبادة تقام للعبود بالدرجة الأولى خوفاً منه ...، ولكنها في الحقيقة تقام لله رضاً ومحبةً في طاعته، وإلا فستكون عبادة المُكْرَه، وممَّا ينفي هذا الفهم قوله ﷺ : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، كما أنَّ الآية التي استدلَّ بها لا تعني شيئاً مما قاله، فهي قد جاءت في سياق الرد على طلبات المشركين للرسول ﷺ بأنَّ يأتي بقرآن من عنده أو أن يبدلها .

(١). ينظر : روح المعاني : ١١ : ١٤٣ .

(٢). ينظر : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ٢ / ١٤٦ .

(٣). ينظر : التعبير القرآني : ٥١ .

(٤). درة التزيل : ٢ / ٧٣٣ - ٧٣٤ .

وأرى مستفيداً من فحوى كلام الخطيب أنَّ توجيهه التقديم في الآية راجعٌ إلى المفارقة العجيبة التي تفهم من مجموع الآيتين؛ فالرسول ﷺ يبدي تخوفه في حال عصيان ربه من أن يصيبه أشدُّ الضرر، وهو عذاب يوم عظيم، وفي المقابل يظهر حال الكفار الغريب العجيب أنَّهم يعبدون من دون الله ما لا يخافون أن يصيّبهم منه ضررٌ إنْ عصوه، ولا يرجون منه نفعاً إنْ أطاعوه، فالسياق إذن هو سياق النعي على الكفار عبادة الأصنام التي لا تضرُّ ولا تنفع، فجاء التقديم ﴿لَا يَضُرُّهُم﴾ مُنسِّجاً مع تخوف الرسول ﷺ من عصيان ربه الذي يملك إيقاع الضرر به، بما يحقق في الوقت نفسه النعي عليهم عبادة ما لا يملك أدنى قدرة على إيقاع الضرر.

وللإمام ابن عاشور توجيهٌ آخرٌ راجعٌ إلى أنَّ السياق يرمي إلى إزالة الأوهام من أنَّ هذه الأصنام تضرُّ كلَّ من ترك عبادتها، ومن ثُمَّ كانت هذه الأوهام والمعتقدات صادَّةً عن الإيمان بالله، ومما يروى في ذلك أنَّه ((قالت امرأة طفيل بن عمرو الدوسى حين أخبرها أنه أسلم ودعاهما إلى أن تسلم فقالت : (أما تخشى على الصبية من ذي الشرى)))^(١) ، فلما كانت الأهمية مُنصَّبةً على إبطال هذا الوهم ونفيه، جرى تقديم ﴿لَا يَضُرُّهُم﴾^(٢) ، ومن جانب آخر جرى نفي النفع عن هذه الأصنام بتأخير ﴿وَلَا يَنْفَعُهُم﴾ ليحصل بذلك حسن انسجامٍ واتصالٍ مباشرٍ في الرد على مقالتهم : ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس : ١٨]^(٤).

ومن أمثلة هذا النوع من التقديم في سورة يونس قوله ﷺ : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَنَاكُمْ عَذَابًا بَيْنَ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾^(٥) [يونس : ٥٠].

ففي الآية الكريمة جاء قوله : ﴿بَيْنَ أَوْ نَهَارًا﴾ مقدماً على قوله : ﴿نَهَارًا﴾ مراعاة لمقتضى السياق؛ إذ الآية تأتي في معرض الرد على الكفار المستعجلين العذاب، ﴿وَيَقُولُونَ

(١). دُو الشَّرِّي : صَنَمْ لَدُوْسٍ بِالسَّرَّةِ : تاج العروس، (شرى) : ٣٨ / ٣٦٨ .

(٢). التحرير والتتوير : ١١ / ١٢٥ .

(٣). ينظر : التحرير والتتوير : ١١ / ١٢٥ .

(٤). ينظر : ملاك التأويل : ١ / ٦١٢ - ٦١٣ .

مَنْ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُثُرْ صَدِيقِينَ ﴿٤٨﴾ [يونس: ٤٨] ، فيتفنن السياق في تخيل التهويل لهذا العذاب الموعود، داعياً إِيَّاهُمْ إِلَى أَنْ يتصوروا العذاب وكأنه واقعٌ بهم، حينها لو تحقق العذاب ونزل بهم، ماذا يستفيدون، في وقتٍ لا يُقبل فيه الإيمان؛ لأنَّه حاصل في وقت الإلقاء والقسر^(١).

ولأجل غاية التهويل كان المناسب تقديم ﴿بَيَّنًا﴾؛ لما في الليل من المبالغة والمفاجأة ما ليس في ﴿نَهَارًا﴾، وفي هذا التقديم قال البقاعي : ((ولما كان أَخْذُ الليل أَنْكَى وأَسْرَعَ، قدمه فقال: ﴿بَيَّنًا﴾ أَيْ : في الليل بعثة، وأنتم نائمون كما يفعل العدو، ولما كان الظفر ليلاً لا يستلزم الظفر نهاراً مجاهرة قال: ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ أَيْ : مكاشفة وأنتم مستيقظون، أَسْتَمِرونَ عَلَى عَنَادِكُمْ فَلَا تَؤْمِنُوا؟))^(٢)، ويبدو لي أنَّ تقديم ﴿بَيَّنًا﴾ ينسجم مع تقديم الضرر في الآية السابقة، ﴿قُلْ لَا أَمِلُّ لِتَقْسِي ضَرًّا وَلَا تَقْعُدُ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩] ، ذلك لأنَّ الضرر بالعذاب في الليل أَشَدَّ وأَقْوى بسبب استحکام الغفلة، ولهذا اختار التعبير القرآني لفظ ﴿بَيَّنًا﴾ بدلاً من لفظ (ليلاً) ليؤكد على ملحظ الغفلة^(٣)، بخلاف النهار الذي يمكن فيه تقليل الضرر، وممَّا يحمل ذلك الانسجام في تقديم ﴿ضَرًّا﴾ وتقديم ﴿بَيَّنًا﴾ أَنَّ كاتنا الآيتين جاءت في سياق الرد على استعجال الكفار العذاب، وطلب تعيين وقته^(٤).

وفي هذا التقديم إشارةٌ خفيةٌ إلى ضرورة المبيت على طاعة الله، فإذا جاءه ريب المنون كان في مأمن من عذاب الله وسخطه .

ومن الأمثلة أيضًا قوله ﴿سَلَامٌ وَمَا تَكُونُ فِي سَلَامٍ وَمَا نَتَوَمَّنَهُ مِنْ قُرْمَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شَهُودًا إِذْ تُفْيِضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزِزُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ [يونس: ٦١] .

فقدَّمَ في الآية قوله : ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ على ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ لسببين هما :

(١). ينظر : التحرير والتتوير : ١١ / ١٩١ - ١٩٢ ، ومفاتيح الغيب : ١٧ / ١١٤ .

(٢). نظم الدرر : ٩ / ١٣٦ .

(٣). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٣٢ .

(٤). ينظر : التحرير والتتوير : ١١ / ١٩١ .

أولاً : دلالة السياق : فالسياق في الآية في ذكر أحوال أهل الأرض وأعمالهم، كما يوضحه قوله ﷺ : ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وفي هذا قال الزمخشري : ((حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله : ﴿لَا يَعْرِبُ عَنْهُ﴾ لاعم ذلك أن قدم الأرض على السماء))^(١).

ثانياً : السمة اللفظية : لعل كثرة تكرار مفردة ﴿الأَرْض﴾ في سورة يونس سبب في تقديمها على مفردة ﴿السَّمَاء﴾، فقد تكررت ﴿الأَرْض﴾ ست عشرة مرة، بخلاف مفردة ﴿السَّمَاء﴾ التي تكررت ثلاثة مرات بصيغة المفرد، وست مرات بصيغة الجمع .

(١). ينظر : الكشاف : ٣ / ١٥٢، ومفاتيح الغيب : ١٧ / ١٢٩، والبحر المحيط : ٥ / ١٧٢، وبدائع الفوائد : ٧٥ - ٧٦.

تناسب الحذف

يُعدُّ الحذف من المسالك اللطيفة في التعبير القرآني؛ لما يؤديه من إيجاز في تقديم المعنى، وقد أبان عن أهميته عبد القاهر الجرجاني بقوله : ((هو باب دقيق المسالك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفسح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم ثبن))^(١).

شرط الحذف

١. لا بد أن يكون في الكلام قرينة تدل على المحفوظ، إذ بدونها يكون الكلام تعريفاً وأغزاراً وغموضاً، ومستهجنًا في الفصاحة، وقد أشار الدكتور عبد العظيم المطعني إلى أهمية هذا الشرط، فقال : ((شرط جودة الأسلوب الوضوح وحسن الدلالة، وهذا الشرط ضروري لا يُ Hammond إغفاله؛ لأن الحذف إذا لم يكن فيه ما يدل على المحفوظ جاز على اللفظ والمعنى، والألفاظ أو عيّنة المعاني، فلا بد من ملاحظتها مذكورة أو محفوظة دل عليها دليل))^(٢).

٢. وجود سياق يتوجه فيه الحذف على الذكر، وسبب يدعو إلى استعمال أسلوب الحذف، وإلا كان الكلام فيه عبث^(٣).

والحذف أسرارٌ وغاياتٌ خاصة تتضمن تحت ثلاثة أغراض عامة، وهي^(٤) :

أولاً : الغرض البصري :

فالحذف لا يكون إلا لغرض بياني مقصود في الكلام، كإيجاز وطرح فضول الكلام، وصيانته الجملة من التقليل، وفي هذا قال الزركشي : (([من أغراض الحذف] طلب الإيجاز والاختصار، وتحصيل المعنى الكثير في اللفظ القليل، ومنها التشجيع على الكلام، ومن ثم سماه ابن جني : شجاعة العربية))^(٥).

(١). دلائل الإعجاز : ١٧٧ .

(٢). خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ٥ / ٢ .

(٣). ينظر : البلاغة والأسلوبية : ٣٢٣، وأسلوب الحذف في القرآن الكريم : ٧٧ .

(٤). ينظر : أسلوب الحذف في القرآن الكريم : ١٥٥ - ١٦١ .

(٥). البرهان في علوم القرآن : ٣ / ١٠٥ .

ثانيًا : الغرض العقلي :

يأتي الحذف لغرض عقليٌ، إذ هو يجعل السامع والقارئ يشحذ فكره وعقله بحثاً لإدراك المحفوظ وتأملاً لتحديد المعنى من ورائه، قال الجواري : (([الحذف] ضرب من ضروب الانقطاع الذي يحمل السامع أو القارئ على توقع أمر ذي بالٍ، ولو اتّصل الكلام لما أثار قدرًا من الانتباه والاهتمام مثل الذي يثيره الانقطاع، كالذي يسير في طريق ممهدة لاحبة تقوده قدماء حتى لا تعود يتلفت حوله ولا ينتبه لما يحيط به حتى يفجأه انحراف في الطريق أو التواء، أو انقطاع يسلم إلى منحدر أو مرتفع فيفتح عينيه ويرهف حواسه لما يأتي بعد ذلك الانقطاع))^(١).

ثالثًا : الغرض النفسي :

يراعي الحذف الحالة النفسية عند السامع أو القارئ مثل التعظيم والتخفيم، وتعجيل المسرة أو إخفاء أمر ما أو مفاجأتهم بالمحذوف، كما أن البحث عن المحفوظ يفتح الباب على مصراعيه لتذوق النصوص، والاستمتاع بجمالها، فكيف إذا كان ذلك في كتاب الله، لا شك أن المتعة ستكون أعظم وأشدّ، وكثيراً ما نجد ذلك الحذف واضحةً معالمه في القصص القرآني، وقد أشار إلى ذلك سيد قطب بقوله : ((تلك الفجوات بين المشهد والمشهد، التي يتركها تقسيم المشاهد و ((قص)) المتناظر ... بحيث تترك بين كل مشهد أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال، ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللاحق))^(٢).

وقد تعددت تقسيمات العلماء لأنواع أسلوب الحذف، وأفضل هذه التقسيمات التي تتسم بالموضوعية والشمولية ما خلص إليه ابن جني الذي قسم أنواع الحذف على قسمين، هما :

١. **حذف الجملة** : ومنه : حذف القسم، وحذف الشرط، وغيرهما .

٢. **حذف المفرد** : وهو على ثلاثة أضرب : حذف الاسم، والفعل، والحرف^(٣).

وهذه التقسيم هو الذي سأتبّعه في بيان تناسب الحذف في سورة يونس على النحو

الآتي :

(١). نحو القرآن : ٣٨، نقلًا عن كتاب : أسلوب الحذف في القرآن الكريم : ١٥٩ .

(٢). التصوير الفني في القرآن : ١٨٧ - ١٨٨ .

(٣). ينظر : الخصائص : ٢ / ٣٦٢ - ٣٦٣ .

أولاً : حذف المفرد (الاسم المجرور) ، وذلك في قوله ﷺ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنَّهُمْ يَرْجِلُونَهُمْ أَنَّهُنَّ أَنذَرُوا إِلَيْهِمْ قَدَّمَ صَدِيقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [يومنس : ٢] ، فقد جاء في الآية المذكورة به محفوظاً ، لدلالة ما يقابلها من ذكر المبشر به ﴿ وَبَشِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَّمَ صَدِيقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ، والمناسبة في حذف المنذر به ، والاكتفاء بالبشر به ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَّمَ صَدِيقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [يومنس : ٢] تتضح في أمرين :

١. حذف المنذر به لأجل غاية التهويل ، مما يجعل خيال المخاطبين يذهب مذاهب شتى في تصور كل عذاب ممكن سيتحقق بهم إن لم يؤمنوا بالله وبنبوة محمد ﷺ ، ومما يقوى دلالة التهويل مجيء الاستفهام بدلاته على التقرير والتوبیخ ^(١) ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنَّهُمْ يَرْجِلُونَهُمْ أَنَّهُنَّ أَنذَرُوا إِلَيْهِمْ ﴾ [يومنس : ٢] ، والمخاطبون في كل ذلك جهة واحدة ، وهم ﴿ النَّاسُ ﴾ .

٢. تجلی الحکمة من هذا الحذف ، فيما يبدو لي ، في دفع هؤلاء المخاطبين إلى التفكير بشكل جدي في الإيمان بالله من خلال موازنة أنفسهم بالمؤمنين الذين فضلوا عليهم بذكر بشارتهم ومنزلتهم عند الله ، وفي التركيب الإضافي ^(٢) **﴿ قَدَّمَ صَدِيقٌ ﴾** تتبیه على أن سبب وصول المؤمنين إلى هذه المنزلة هو تصديقهم بالوحي ، وكأن الصدق له قدم يوصل بها إلى المنازل العالية ^(٣) ، وهذا في مقابل تكذيب الكفار بالوحي ، في إشارة خفية لهم إلى ضرورة المسارعة إلى التصديق بالوحي حتى تكون لهم المنزلة السامية عند ربهم كمثل المؤمنين .

ومن أمثلة حذف المفرد ، حذف المضاف ، في قوله ﷺ : ﴿ إِنَّمَا مَثُلُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَّا
أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْنَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَمُ حَتَّى إِذَا أَخْذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَزْيَّنَتْ
وَظَلَّتْ أَهْلُهَا أَنْتَهُمْ قَنْدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ
كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكِّرُونَ ﴾ [يومنس : ٢٤] .

(١). ينظر : التحریر والتوبیر : ١١ / ٨٥ .

(٢). ينظر : فتح القدير : ٢ : ٥٩٥ .

(٣). ينظر : تفسیر أبي السعود : ٢ / ٦٢٤ .

فأصل الجملة كما قدره الألوسي : (أنهم قادرون على نباتها) ، ثم حُذف المضاف (نبات) ، وجُرّ الضمير بحرف الجر ﴿عَلَى﴾ ، فصارت الجملة ﴿أَنْتُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ وتمثل مناسبة هذا الحذف في الآتي :

١. حذف المضاف لأجل المبالغة في تمكّنهم من إحاطة قدرتهم على الأرض بكل ما فيها ، بخلاف لو ذُكر المضاف ، فإن المعنى سيكون منحصرًا في قدرتهم على (النبات) فقط دون بقية ما يتعلق بالأرض ، وبهذا تغيب دلالة المبالغة ، خلافاً لما قاله الألوسي : بأن في كون هذا الحذف للمبالغة ترددًا^(١).

٢. يعطي هذا الحذف دلالة العموم والشمول بحسب تحديد مرجع الضمير ، إذ يحمل أن يعود الضمير إلى (الأرض) ، أو (النبات) ، أو (الغلة) ، أو (الزينة)^(٢) ، فلو ذكر المضاف لكان الضمير عائدًا بدون أدنى شك إلى (الأرض) ، وبهذا الحذف تتسع الدلالة لتشمل كل ذلك ، فيكون المعنى : أنهم قادرون على الأرض ، ونباتها ، وغلالها ، وزينتها ... إلخ .

ومن أمثلة الحذف أيضًا ، حذف المفعول به ، في قوله ﷺ : ﴿الَّذِينَ أَمْنَأُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوںس : ٦٣].

فقد حذف مفعول الفعل ﴿يَتَّقُونَ﴾ الذي يأتي متناسبًا مع سياق الحديث عن أولياء الله الذين حَصَّthem بعدم الخوف والحزن ، وخصّهم بالشرى في الحياة الدنيا والآخرة ، ولعل السرّ البياني في هذا الحذف يكمن في الدلالات الآتية :

١. دلالة التعميم مع الاختصار ، فهو لاء الأولياء الأنقياء كانوا يتّقون كلّ مظاهر الشرك والعصيان ، وقد قدر الشوكاني المفعول به بما يدلّ على العموم بقوله : ((وَيَتَّقُونَ مَا يَحِبُّ عَلَيْهِمُ اتَّقاوُهُ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ))^(٣).

٢. دلالة الاقتصر على الفعل ، دون ذكر المفعول به ، وفي ضابط هذه الدلالة قال الرازى : ((والضابط : أَنَّهُ مَتَى كَانَتِ الْعَنَيْةُ مُتُوفَّرَةً عَلَى مَجْرِ إِثْبَاتِ الْفَعْلِ لَا عَلَى أَنْ يُعْلَم

(١). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٠١ .

(٢). ينظر : اللباب في علوم الكتاب : ١٠ / ٣٠٢ .

(٣). فتح القدير : ٢ / ٦٤٠ ، وينظر : تفسير المحرر الوجيز : ٣ / ١٢٩ .

المفعول، فال الأولى أن يحذف المفعول^(١)، وهذا ما نجده فعلاً من حذف المفعول به لأجل العناية بالفعل **{يَتَّقُونَ}**، والإعلام بأهمية فعل التقوى دون ذكر متعلقاته، مما يدل على اتصافهم بصفة التقوى التي بسببها كانت هذه الرعاية الريانية، ومجيء الفعل **{كَانُوا}** قبله يؤكد ملزتمهم لهذه الصفة حتى صارت دينهم^(٢)، في إشارة إلى كمال حال القوة العملية^(٣).

٣. رعاية الفاصلة، فحذف مفعول الفعل **{يَتَّقُونَ} للمحافظة على تناسق الفاصلة مع غيرها من فواصل السورة التي تنتهي في معظمها بالواو والنون .**

ثانياً : حذف الجملة

ومن أمثلة حذف الجملة في سورة يونس قوله ﷺ : **{وَلَوْ يُعِجِّلُ اللَّهُ لِلتَّاسِ الشَّرَّ أَسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضَى إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ}** [يونس: ١١].

ففي هذه الآية الكريمة حذف جملة بعد قوله ﷺ : **{لَقُضَى إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ}** ، وتقديرها : **{وَلَوْ يُعِجِّلُ اللَّهُ لِلتَّاسِ الشَّرَّ أَسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضَى إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ}** (لكنه لم يشا ذلك لحكمة)، والذي يدل على هذا الحذف هو تمام الآية : **{فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءً فَاتِّلْغِيَّهُمْ يَعْمَهُونَ}** ، فالفعل **{فَنَذَرُ}** معطوف على الجملة المحذوفة، وهو ما ينسجم مع السياق الذي يدل على أن سنته عَلَى لا تتبدل ولا تتغير في إهلاك الأقوام قبل انتهاء آجالهم، ولهذا تفترض أنه بسبب استعجال الكفار العذاب والشرّ كاستعجالهم الخير الذي يحبونه ويطلبونه لذاته، لأنهم الله أجلهم بإهلاكم قبل الوقت المحدد، (لكنه لم يشا ذلك لحكمة)، والسر في حذفها هو الدلالة على ترك هؤلاء و شأنهم حتى يأتي وقتهم، فناسب ترك الجملة وحذفها، تركهم و شأنهم في الواقع^(٤).

(١). نهاية الإيجاز : ٢١٠ .

(٢). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٢١٨ ، وينظر : البحر المحيط : ٥ / ١٧٣ .

(٣). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٣١ .

(٤). ينظر : أسلوب الحذف في القرآن الكريم : ١٨٨ .

ومن أمثلة حذف الجملة أيضا قوله ﷺ : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَيْتَلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٦٧] .

ففي الآية الكريمة حذف جملة، وهو ما يسمى بـ (الاحتباك)، ويقصد به : ((أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول))^(١)، وتقدير الجملة : ((هو الذي جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه، والنهر مبصراً لتحركوا فيه لمعاشكم، فحذف (مظلماً) دلالة مبصراً عليه، وحذف لتحركوا دلالة لتسكنوا))^(٢).

وهذه الآية الكريمة حوت نوعين من الحذف، هما :

١. حذف الكلمة مفردة : (مظلماً).
٢. حذف جملة : (لتحركوا فيه لمعاشكم) .

ويأتي هذا الحذف متناسباً مع سياق تفرد الله بالقدرة الكاملة والنعم الشاملة في الخلق والتصريف في هذا الكون، في إشارة إلى استحقاقه بالعبادة، في مقابل عجز الشركاء الذين يعبدون من دون الله على فعل شيء من ذلك، فهو ﷺ وحده بحكمته ورحمته قد أبدع وخلق الليل مظلماً للهدوء والراحة من عناء الحركة والعمل، وجعل النهر مبصراً لتصريف شؤون الحياة^(٣).

ويبدو لي أن السرّ البياني من وراء هذا الحذف هو ترك المجال أمام القارئ والمخاطب والسامع، ليكمل هو بنفسه مشهد الليل والنهر الواضح المتكرر كلّ يوم، بذكر ما حذف منها، وحينها هل يستطيع أن يدعى أنّ الله شركاء يستحقون العبادة، فكانَ التعبير القرآني بهذا الحذف يريد أن يفسح المجال ليقتضي كلٌّ جاهدٌ بنفسه مما يشاهده من دلائل على

(١). الإنقاٰن في علوم القرآن : ٥ / ١٦٢٣ .

(٢). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٨٩ .

(٣). ينظر: تفسير المنار : ١١ / ٣٨٤ .

استحقاق الله الربوبية والعبودية التي هي من الوضوح بمكان، بدليل أن الآية ختمت بـ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَكْرٌ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ فهذه الدلائل لا تحتاج للاقتناع بها أكثر من سمعها^(١).
 فضلاً أنَّ التعبير ذكر الأهم والأساس من نعمة ﴿الْأَيْمَلَ﴾، وهو السكون لأجل الراحة؛
 إذ لا قيمة للإطلام بدون راحة، ولهذا ذكر الأهم ﴿لِتَسْكُنُوا﴾، وحذفت مفردة (مظلماً)،
 والأمر نفسه حين ذكر نعمة ﴿الْهَمَارَ﴾، فقد ذكر المهم منه ﴿مُبِصِّرًا﴾، تبيئاً على كمال
 كونه سبباً للإبصار لعموم فائدته في الحركة والعمل والقدرة على التمييز بين الأشياء .

(١). ينظر : نظم الدرر : ٩ / ١٥٨ .

تناسب المفردة اللغوية

المفردة القرآنية سرٌّ من أسرار الإعجاز البياني؛ لما تحمله من قيمة دلالية فنية مقصودة، تتوافق مع مدلول المفردات التي جاورتها سواء مع ما قبلها أو مع ما بعدها، وتتمثل هذه القيمة الدلالية في سياق البلاغة القرآنية في الآتي :

١. جمال حسيٰ بصريٰ، فالمفردة القرآنية تعمل على تشخيص الصور الذهنية، وذلك ببثِ الحيوية والحركة فيها، فتصل إلى الذهن، وكأن الصورة تتراهى للمتلقي أمام ناظريه .
٢. جمال حسيٰ سمعيٰ، يُعنى بإبراز الجوانب الجمالية الصوتية الموسيقية في المفردة، ببيان أثر وقع حروفها وصفات هذه الحروف، وما يكتفى بهذه المفردة من مدد وحركات، ومدى انسجامها للسياق التي وردت فيه.
٣. جمال نفسيٰ للقلب، يظهر من ارتباط المفردة بالموضوع واستيعابها له، ومدى تأثيرها في نفس المتلقي، بما تتمتع به من تنوع صيغتها، وإيجازها للمعنى الكثيرة، ورقيتها في مخاطبة الإنسان^(١).

ونجد العلماء الذين اهتموا بالإعجاز قد أولوا المفردة القرآنية أهمية كبيرة على أساس أنها عدمة في الإعجاز، فهذا مصطفى صادق الرافعي يقول في شأن المفردة : ((أما ألفاظ هذا الكتاب الكريم، فهي كيماً أدرتها وكيفما تأملتها وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها ومن أي جهة وافقتها؛ فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة، والحلوة البدية، والانسجام العذب؛ وتراها تتساير إلى غاية واحدة ...، تختلف الألفاظ ولا تراها إلا متفقة، وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة، وتذهب في طبقات البيان، وتتنقل في منازل البلاغة، وأنك لا تعرف منها إلا روحًا تداخلك بالطرب، وتشرب قلبك الروعة، وتتنزع من نفسك حس الاختلاف الذي طالما تدبرت به سائر الكلام))^(٢).

(١). ينظر : جماليات المفردة القرآنية : ٢٠ .

(٢). إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٢٤٠ - ٢٤١ .

ونتيجة لهذه الأهمية والمكانة التي تبوأها المفردة في النظم القرآني، فقد شعبت الدراسات القرآنية حول بيان تناسبها على وفق المناهج الآتية^(١) :

- **منهج المفسرين** : يوضحون ما تكتنفه المفردة القرآنية من مدلولات، ويكشفون عمّا ترشد إليه من معنى .
- **منهج اللغويين** : يعملون على تبيين صيغة المفردة القرآنية واشتقاقها والفصيلة اللغوية التي تنتهي إليها .
- **منهج علماء البيان** : يعمدون على إظهار جمال موقع المفردة القرآنية، وأصالتها في موضعها، وما تحمله من حلاوة جرس، وما تحدثه من إرهاق في الحسّ .

وأقرب هذه المناهج التي سأتبعها في دراسة المفردة، هو منهج اللغويين، متبعاً الخطوات الآتية :

١. تحديد المفردة التي يراد دراستها تناسبها .
٢. ذكر الآية التي وردت فيها المفردة .
٣. استعراض دلالاتها في كتب اللغة والتفسير.

والمفردات هي :

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَيْعًا وَعَذَابُ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوا لِلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَمْنَى وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

جاءت مفردة ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ متناسبة لموضعها اللفظي في الآية الكريمة أجمل مناسبة، إذ لا يمكن لأي كلمة أخرى أن تعطي معناها، أو أن تسد مكانها في نظم هذه الآية، فكيف إذا كانت هذه المفردة متعلقة معنوياً ونحوياً بمفردة ﴿لِيَجْزِيَ﴾، فلا شك أن المناسبة تزداد انسجاماً، فالآية الكريمة تتحدث عن بيان علة الرجوع إلى الله يوم القيمة، وهو مجازة المؤمنين، ومجازاة الكافرين بالشراب الحميم والعذاب الأليم بسبب كفرهم، وهذا يمثل العدالة الإلهية في ذلك الموقف.

(١). ينظر : لمسات ولطائف من الإعجاز البياني للقرآن الكريم : ٢٦ .

وحيثما نرجع إلى المعجمات اللغوية لمستجلي مدلول المفردتين، نجد أن دلالة **الجزء** هي المكافأة، قال الخليل : ((جزى يجزي جزاء، أي : كافاً بالإحسان وبالإساءة))^(١)، وقال ابن فارس : ((الجيم والزاء والياء : قيام الشيء مقام غيره ومكافأته إياه، يقال جَزَيْتَ فلاناً أجزيه جزاء))^(٢).

وأما (القِسْط) فهو العَدْل، قال ابن فارس : ((القاف والسين والطاء أصل صحيح يدل على معنيين متضادين والبناء واحد، فـ (القِسْط) : العَدْل . ويقال منه : أَقْسَطْ يُقْسِطْ)، قال ﷺ : **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** [المائدة: ٤٢] ...، ومن الباب الأول (القِسْط) : النَّصِيب، وتقسطنا الشيء بيننا، وـ (القسطاس) : الميزان، قال ﷺ : **وَرَبُّكُمْ بِالْقِسْطَاسِ أَمْسَكَمْ** [الإسراء: ٣٥]))^(٣).

ومن النظر في مدلول المفردتين يتبيّن لنا مدى الانسجام بينهما؛ فالجزاء هو المكافأة التي لا بد أن تكون قائمةً على القِسْطِ والعَدْل، ومن جانب آخر نلحظ أنَّ مفردة (القِسْط) فيها توسيع في المعنى بما تتضمّنه من دلالات متعددة، وهي :

١. يجزيهم الله بقسطه وعدله ويوفيهم أجورهم على وفق نصيب كل واحد منهم بما عمل^(٤)، ولا يمنع أن يضاعف لهم الأجر بدليل ما ورد في السورة نفسها في قوله ﷺ : **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْمُحْسَنَى وَزِيَادَةٌ** [يونس: ٢٦] ، وقوله ﷺ في سورة أخرى : **فِي وَقِيمَتِهِمْ أَجُورُهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ** [النساء: ١٧٣]^(٥).

٢. يجزيهم الله بعدلهم مع أنفسهم وعدم ظلمهم أنفسهم حين آمنوا وعملوا الصالحات، لأن الشرك ظلم، مصداقاً لقوله ﷺ : **إِنَّكَ أَشْرَكَ لَظُلْمًا عَظِيمًا** [لقمان: ١٣] ، وهذا

(١). العين : ٦ / ١٦٤، (جزي)، وينظر : تهذيب اللغة : ١١ / ١٤٢، (جزي) .

(٢). مقاييس اللغة : ١ / ٤٥٥، (جزي) .

(٣). مقاييس اللغة : ٥ / ٨٥ - ٨٦، (قسط)، وينظر : لسان العرب : ٥ / ٣٦٢٦ - ٣٦٢٧، (قسط) .

(٤). ينظر : الكشاف : ٣ / ١١٥، والبحر المحيط : ٥ / ١٢٩، وتفسير المنار : ١١ / ٢٥٧.

(٥). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ٣٣، وتفسير المنار : ١١ / ٢٥٧ - ٢٥٨ .

المعنى هو الذي رَجَحَه الزمخشري، وتبعه الفخر الرازي، وقد استدلاً بما قاله الله في المقابل في حق الكفار الذين يظلمون أنفسهم بشركهم وكفرهم : ﴿إِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤] .^(١)

٣. يجزيهم بقiamهم بالقسط، وهو الحق والعدل في الأمور كلها الذي هو مقتضى الإيمان بدليل ﷺ : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا إِلَيْبِنَتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيرَاتِ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] ، قوله ﷺ : ﴿فُلْ أَمَرَ رَبِّهِ بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩] .^(٢)

وكما رأينا أنَّ الزمخشري رَجَحَ أحد هذه المعاني السابقة إلا أن ذلك لا يمنع أن تحتمل الآية بقية المعاني الأخرى، ويبدو لي أنَّ كلَّ هذه المعاني مراده، فالله ﷺ يجزي المؤمنين حقهم من الأجر بالعدل، فلا يظلمهم شيئاً، لأنَّهم قاموا بالقسط والحق والعدل، وأنَّهم عدوا مع أنفسهم، فلم يظلموها بالكفر والشرك، كما فعل الكفار .

فلو استعملت مفردة (العَدْل) الذي تدور معانيها في الغالب حول (الاستواء)^(٣)، لأعطى المعنى الأول من المعاني التي أوردناها لمفردة ﴿بِالْقِسْطِ﴾، وهو المساواة في الأجر، وبهذا تقوت المعاني الأخرى، ولكنَّ التعبير القرآني استعمل مفردة ﴿بِالْقِسْطِ﴾ ليجمع عدة معان بمفردة واحدة، وهي التي سبق ذكرها .

ونلحظ في الآية ورود مفردة ﴿بِالْقِسْطِ﴾ مرتبطة بجزاء المؤمنين، في حين لم ترد هذه المفردة في جزاء الكفار، وذلك راجع إلى عدة أسباب، هي :

١. لأجل زيادة العناية والاهتمام بجزاء المؤمنين، فقد خصوا بالفضل والإكرام، على أساس أن مفردة ﴿بِالْقِسْطِ﴾ لا تمنع مضايقة الأجر عليهم، كما بينَ ذلك سابقاً^(٤).

(١). ينظر : الكشاف : ٣ / ١١٥، ومفاتيح الغيب : ١٧ / ٣٣ - ٣٤ .

(٢). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٥٨ .

(٣). ينظر : مقاييس اللغة : ٤ / ٢٤٦، (عدل) .

(٤). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ٣٣ .

٢. تأنيس المؤمنين بأنهم استحقوا هذا الجزاء بسبب ما عملوه من أعمال صالحة في الحياة الدنيا، وكأنه ليس الله فضل عليهم فيما أنعم عليهم؛ إذ إن من عظيم خصال الكريم أن يُحَسِّسَ الْمُكَرَّمَ بأن ما ناله من إكرام هو حُقُّهُ، وليس له فيه فضل^(١).

ويبدو لي أن هذا الإيناس والتكرير يحمل إشارة تطمئن للرسول ﷺ وأصحابه ؓ، وتقريرًا لهمومهم، إبان حادثة الإسراء التي اشتد فيها إيذاء قريش لهم، مما حدا بسيد قطب أن يصف هذه الفترة بالحرجة على الدعوة الإسلامية، وهذا الأمر ينسجم مع توقيت نزول سورة يونس؛ إذ نزلت بعد سورة الإسراء^(٢)، كما أنها تتسم أيضًا مع اسمها (يونس) ومقاصدها؛ تسليةً وتخفيفًا للضغط النفسي الذي يعتمل في صدور المؤمنين^(٣).

٣. إلماح إلى أن جزاء الكفار دون ما يقتضيه العدل، ولو كان جزاؤهم على مقدار ما عملوه من أعمال سيئة لكان عذابهم أشد^(٤).

وبهذا يتبيّن تناسب اختيار هذه المفردة التي تشكّل لبنةً من لِبنات التماسک النصيّ في الآية الكريمة معنوياً ونظمًا، وتماسكها مع اسم السورة ومقصودها من جهة أخرى .

﴿الْكَبِيرَيَاء﴾ ، قال ﷺ : ﴿فَالْأُولَا أَجْعَلْنَا لِتَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ مَآبَائَنَا وَتَكُونُ لَكُمَا الْكَبِيرَيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَخْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] .

فالمعنى اللغوي لمفردة **﴿الْكَبِيرَيَاء﴾** هو (العظمة والملك) ، قال ابن منظور : ((الكِبْرِيَاءُ : الْعَظَمَةُ وَالْمُلْكُ ، وَقِيلَ : هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ كَمَالِ الذَّاتِ وَكَمَالِ الْوُجُودِ وَلَا يُوَصَّفُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ))^(٥) ، بدليل ما رواه أبو هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ((الْكِبْرَيَاءُ رِدَائِيُّ ، وَالْعَظَمَةُ إِرَارِيُّ ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدَةً مِنْهُمَا ، أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ))^(٦) ، وهذا يدلُّ على أن

(١). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٩٢ .

(٢). ينظر : دلائل النبوة للبيهقي : ٧ / ١٤٣ .

(٣). نزلت سورة يونس في جو يشبه جو سورة يوسف، ينظر : القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث : ٢ / ٧٦ .

(٤). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٩٢ .

(٥). لسان العرب : ٥ / ٣٨٠٧ ، (كبر) .

(٦). ورد الحديث في : مسند الإمام أحمد : ١٥ / ٣١٣ ، رقم الحديث (٩٥٠٨) .

مفردة **﴿الْكِبَرِيَاءُ﴾** تمثل أعلى درجات العظمة، وأبلغ من مفردة (الكبُرُ) التي تكون في الأمور المعنوية مثل التكبر كما في قوله ﷺ : **﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ مَا هُمْ بِلَغِيهِ﴾** [غافر: ٥٦]، وإشاعة الإفك في قوله ﷺ عن حادثة الإفك : **﴿وَالَّذِي تَوَلَّ كَبَرًا مِّنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [النور: ١١]^(١)، فضلاً عن اتساع بناء المفردة **﴿الْكِبَرِيَاءُ﴾**، وزيادة مبنها دل على اتساع معناها وشمولها، بدليل أنها وردت في آية سورة الجاثية متعلقة بالسموات والأرض في إشارة إلى إحاطة ملك الله عَزَّوجَلَّ بهما **﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** [الجاثية: ٣٧]، وأما ملامح الشمول في هذه المفردة في آية سورة يونس، فتتمثل في أمرين اثنين :

أولاً : أنها جاءت متعلقة بالأرض **﴿وَتَكُونُ لَكُمَا الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾** : للدلالة على مدى خوف فرعون وملئه من اتساع دائرة سيطرة موسى وأخيه هارون على أرض مصر بأكملها، ومما يقوي هذه الدلالة مجيء هذه المفردة في معرض الاستفهام الإنكارى على دعوة موسى وهارون والاتهام بأنهما يريدان تغيير الدين القومى الوطنى الذى يدين به الأقباط، والتحايل للاستيلاء على حُكم مصر كلها^(٢)، **﴿قَالُوا أَجْهَنَّتَا لِتَأْفِنَّا عَمَّا وَجَدَنَا عَيْنَهُ أَبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمَا الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾**.

ثانياً : التعبير بتنمية الضمير في **﴿لَكُمَا﴾** يدل على شمول الكبراء لهما؛ أي : لموسى وهارون عليهما السلام^(٣).

ومن ثم جاء الرفض قاطعاً بأعلى درجات التوكيد والمبالغة، بما لا يقل عن المبالغة في هذه المفردة، خشية وقوع مصر في سيطرة موسى وأخيه، فقال ﷺ على لسانهم : **﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾** [يونس: ٧٨]، فقد اشتغلت هذه الجملة القرآنية على أساليب المبالغة، وهي :

(١). ينظر : من أسرار البيان القرآني : ٢١ - ٢٢ .

(٢). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٣٩٤ .

(٣). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٦٩٨ .

١. التعبير بالجملة الاسمية؛ لإفادة أنَّ عدم إيمانهم بدعوة موسى وأخيه عليهما السلام أمر ثابت و دائم .

٢. تقديم المعمول **﴿لَكُمَا﴾** على العامل **﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾**، لإفادة الاهتمام بالمخاطبين اللذين بسبب أنهم يريدان نفعاً، فقد نفى فرعون وملوه الإيمان عن أنفسهم .

٣. توكيد الخبر بحرف الجر الزائد للتأكيد، وقطع الأمل في إيمانهم مستقبلاً.

كل ذلك يدل على انسجام المبالغة في الدلالة بين مفردة **﴿الْكَبِيرَيَاء﴾** والجملة **﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾**، مما يدل على أنَّ السياق لا يتحمل مفردة أخرى، ولا يتاسب معه إلا مفردة **﴿الْكَبِيرَيَاء﴾**.

﴿قَتَرٌ﴾ ، قال **ﷺ** : **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخَيْرَ وَزِيَادَةً وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ﴾** [يونس: ٢٦] .

جاءت هذه المفردة **﴿قَتَرٌ﴾** مناسبةً لمكانها في الآية الكريمة، ولاسيما أنها سبقت بالفعل المنفي **﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾**، مما يجعل التاسب بين المفردتين أشدَّ انسجاماً، وذلك بسبب ما بينهما من ترابط معنوي، فـ **﴿قَتَرٌ﴾** في اللغة : ((القاف والتاء والراء أصل صحيح يدل على تجميع وتضييق ...، والإقتار: التضييق، يقال: قتر الرجل على أهله يفتر، وأفتر وفتر، قال الله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾** [الفرقان: ٦٧] ، ومن الباب: القتر: ما يخشى الوجه من كرب، قال الله تعالى : **﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ﴾** [يونس: ٢٦]))^(١)، وجاء عند الجوهري : ((القتر: جمع الفترة، وهي الغبار، ومنه قوله تعالى : **﴿تَرْقَمُهَا قَنْزَرَةٌ﴾** [عبس: ٤١]))^(٢)، وتأتي **﴾قَتَرٌ﴾** بمعنى : (القلة والضعف والخفة)، فقد قال

(١). مقاييس اللغة : ٥ / ٥٥، (قتر) ، وينظر : لسان العرب : ٥ / ٣٥٢٥، (قتر) .

(٢). الصحاح : ٢ / ٧٨٥، (قتر) .

الأصفهاني : ((تقليل النّفقة ...، ورجل قاتِرٌ : ضعيف كأنَّه فَتَرَ في الخفة كقوله : هو هباء، وابن قُتْرَةَ : حيَّةٌ صغيرةٌ خفيفةٌ، والقاتِرُ : رؤوس مسامير الدَّرَع))^(١).

و(رهق) هو غِشْيَانُ الشيء^(٢)، ويقال : ((رَهْقُهُ الْأَمْرُ : غشيه، قال الله تعالى : ﴿رَهْقَهَا قَتَرٌ﴾ [عبس: ٤١] ...، ويقال: رَهْقُهُ الدَّيْنُ : أي: ركبه، ورَهْقُهُ : أي: أدركته))^(٣).

فقد جاءت مفردة ﴿قَتَرٌ﴾ في معرض الحديث عن الذين هداهم الله إلى الصراط المستقيم، فأحسنا أعمالهم في الدنيا، فكان جزاؤهم المثوبة الحسنة، وهي الجنة، والتفضُّل عليهم بالزيادة والمضايعة في الجزاء^(٤)، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لَهُمْ زِيَادَةً﴾ [يونس: ٢]، ونلحظ أن الله ﷺ قد وصف هذه الجنة في الآية التي قبلها بأنها دار السلام، في قوله : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوكُمْ إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]، مما يعني أن الجنة دار سالمٍ من المصائب والمعايب والنواقص والأكدار^(٥)، وهذا ما ينعكس في وجوه هؤلاء المحسنين، ويتناسب مع مفردة ﴿قَتَرٌ﴾ المنفية بالفعل ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾؛ إذ وجوه هؤلاء لا يغشاها شيءٌ من القتر والغبرة والسوداد والكرب، ولو كان ضعيفاً أو قليلاً أو خفيفاً، بل هي مبتهجة مسرورة نصرة؛ بسبب ما وجده من الاطمئنان والسعادة والإنعمان والإكرام، وعدم التضييق عليهم في تلك الدار، ولأنَّ السياق سياق اهتمام بوجوه المحسنين فقد جرى في الآية تقديم المفعول به ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ على الفاعل ﴿قَتَرٌ﴾ لبيان أن الموصون من أن يغشاهم القتر هو أشرفُ أعضائهم^(٦)، وهي هذه الوجوه التي يعرف من خلالها سلامٌ أصحابها من الضيق والقدر، ومجيء هذه المفردة في الجملة

(١). المفردات في غريب القرآن : ٢ / ٥٠٨، (قتر) .

(٢). العين : ٣ / ٣٦٦، (رهق) .

(٣). شمس العلوم : ٤ / ٢٦٥٩، (رهق) .

(٤). ينظر : تفسير أبي السعود : ٤ / ٩٥٤، وفتح القدير : ٢ / ٦١٦، ومعنى الزيادة هنا يتوافق مع قوله ﷺ : ﴿فَيَوْمَهُمْ أَجُورُهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣] .

(٥). ينظر : تفسير المنار : ١١ / ٢٩٨ .

(٦). ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٩٥٤ .

الفعالية التي فعلها مضارع ﴿وَلَا يَرْهُقُ وُجُوهَهُمْ فَتَرْوَلَا ذَلِكَ﴾ للدلالة على استمرار انتقاء القراءة في كل الأزمنة في تلك الدار، فضلاً عن ذلك فإن الآية ختمت بـ ﴿هُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ﴾ في إشارة إلى أن هذا القراء لا يقترب هذه الوجوه أبداً في هذه الدار الدائمة والآمنة^(١).

وانتقاء هذا القراء عن وجوه المحسنين ليس مدحاً لهم، بل ليس مقصوداً لذاته؛ إذ يستحيل أن ينتابهم شيء من ذلك بعدما أكرمهم الله بالحسنى وزيادة، وإنما الحكمة من ذلك راجعة، فيما يبدو لي، لأمرتين اثنين، هما :

أولاً : لأجل تعجيل المساعدة للذين كسبوا السيئات، بواسطة أسلوب التعرير قبل التصريح الذي في الآية المقابلة ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءً سَيِّئَةً يُمْثِلُهَا وَرَهْقُهُمْ ذَلِكَ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَانَمَا أَغْشَيْتُ وُجُوهَهُمْ قَطْعًا مِنَ الْأَيْلَ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧] ^(٢).

ثانياً : لإيناس الرسول ﷺ وأصحابه الذين أصابهم القراء والقدر في الحياة الدنيا، بسبب ما يرونـه من السرور والبهجة التي تعلو محيـا الكفار من جراء غلبتـهم وتكلـيلـهم بالمؤمنـين، فـتـأتي الآية بهذه المقابلـة لـطمـأنـتهم ولـإضـفاء الـأنـس في قـلـوبـهم بـأنـ هـذا الـأـمـر لـنـ يـدـومـ، بل سـتـعـكـسـ الصـورـة فيـ الـآخـرـة رـأـسـا عـلـى عـقـبـ، فـتـرـازـحـ القرـةـ والـكـرـدـ والـكـرـبـ عـنـ وجـوهـ المؤـمـنـينـ، إـلـى وجـوهـ الـكـفـارـ الـتـي سـتـؤـولـ قـتـراـ وـكـرـباـ وـظـلـمـةـ وـغـمـاـ وـذـلـلاـ وـإـهـانـةـ.

وهـذا الـأـمـر الـذـي أـشـرـتـ إـلـيـهـ هو مـقـصـدـ عـظـيمـ مـنـ مقـاصـدـ سـوـرـةـ يـونـسـ، أـعـنيـ مـقـصدـ إـلـيـنـاسـ، وـهـوـ الـذـي يـتوـافـقـ مـعـ اـسـمـ السـوـرـةـ الـذـي ذـكـرـتـهـ مـرـارـاـ وـتـكـرـارـاـ فـيـ موـاضـعـ كـثـيرـةـ .

﴿بِدَنَكَ﴾ : قال ﷺ : ﴿فَالْيَوْمَ نُتَسْبِّحُكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنِ اِيمَانِنَا لَغَفِلُونَ﴾ [٩٢] ^(٣).

ذهب الجوهرـيـ إلىـ أنـ (ـالـبـدـنـ)ـ رـدـيفـ (ـالـجـسـدـ)،ـ وـلـكـنـ جـسـدـ بلاـ رـوـحـ^(٤)ـ،ـ وـفـرـقـ الـرـاغـبـ الـأـصـفـهـانـيـ بـيـنـهـمـاـ بـقـوـلـهـ : ((ـالـبـدـنـ)ـ :ـ الـجـسـدـ،ـ لـكـنـ الـبـدـنـ يـقـالـ اـعـتـبارـاـ بـعـظـمـ الـجـثـةـ،ـ وـالـجـسـدـ يـقـالـ اـعـتـبارـاـ بـالـلـوـنـ))^(٥)ـ،ـ وـيـطـلـقـ الـبـدـنـ أـيـضاـ عـلـىـ (ـالـدـرـعـ)ـ لـأـنـهـ تـضـمـ الـبـدـنـ^(٦)ـ.

(١). يـنـظـرـ :ـ مـفـانـيـنـ الـغـيـبـ :ـ ١٧ـ /ـ ٨٣ـ .

(٢). يـنـظـرـ :ـ التـحـرـيرـ وـالتـوـيـرـ :ـ ١١ـ /ـ ١٤٧ـ .

(٣). يـنـظـرـ :ـ الصـاحـاحـ :ـ ٥ـ /ـ ٢٠٧٧ـ ،ـ (ـبـدـنـ)ـ .

وردت هذه المفردة ﴿بِدَنَكَ﴾ في سياق بيان عاقبة فرعون و نهايته المزريّة، فالآية الكريمة تشي لأول وهلة بالوعد لفرعون بالنجاة من الغرق حينما أحاطت به المياه من كل جانب، ولمّنع هذا المعنى جيء بهذه المفردة ﴿بِدَنَكَ﴾ احتراساً لتبيّن أن النجاة حاصلة للبدن لا للروح^(٣)، وبهذا يفهم أن هذا الوعد بالنجاة كان على سبيل التهكم والاستهزاء بفرعون الذي طالما تكبر وتجرّ وتعطّرس، كأنه قيل له : سنجيك، ولكن بعد أن تغرق، وتخرج روحك، وتبقى جسداً بلا روح^(٤)، وقرب من هذا الأسلوب التهكمي قوله ﷺ : ﴿فَبَشَّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، وقولهم : ((نعتاك ولكن بعد الموت، ونخلصك من السجن ولكن بعد أن تموت))^(٥)، وممّا يقوّي دلالة الاحتراس جرّ هذه المفردة بحرف الجرّ الزائد (الباء) لتأكيد أن الإنجاء للبدن فقط، ومن ثمّ كانت هذه المفردة في معنى البدل المطابق للضمير (الكاف) المتصل بالفعل ﴿تُنْجِيكَ﴾، فيصير تقدير الجملة : (نُنجي بدنك)، كمثل الزيادة في ألفاظ التوكيد المعنوي : (نفسه وعيته)، قولنا على سبيل المثال : (جاء أبو خالد بنفسه أو بعيته)^(٦).

وفي الوقت نفسه تصور هذه المفردة ﴿بِدَنَكَ﴾ بكل دلالاتها مشهد غرق فرعون، وهو بكامل قوته وعظمته وشكيمته وجبروته، وقد لبس درعه وعدته الحربية التي تقيه ضربات السيوف، وطعنات الرماح والنبال، إلا أن ذلك كلّه لم يمنعه من مواجهة قدر الله، وعاقبته المحتومة بالموت غرقاً في البحر .

وفي دلالة أن مفردة ﴿بِدَنَكَ﴾ بمعنى الدرع إشارة إلى عظيم قدرة الله؛ إذ إن الدرع الحديدي يفترض أن تسرع بإغراق فرعون في قاع البحر، إلا أن جسد فرعون لم يرس في أعماق البحر، ليدل ذلك على أن هذه الآية التي أراها الله لمن جاء بعد فرعون خارقة قوانين

(١). المفردات في غريب القرآن : ١ / ٥٠، (بدن) .

(٢). ينظر : مقاييس اللغة : ١ / ٢١٢، (بدن) .

(٣). ينظر : مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٦٣، والتحرير والتوير : ١١ / ٢٧٨ .

(٤). ينظر : فتح القدير : ٢ / ٦٥٧ .

(٥). مفاتيح الغيب : ١٧ / ١٦٣ .

(٦). ينظر : التحرير والتوير : ١١ / ٢٧٨ .

الطبيعة في الرُّسُوّ والطَّفْو^(١)، وهذا مدعوة إلى الاعتبار وعدم منازعة الله في جبروته وكبرائه وريوبنته كما فعل فرعون من قبل^(٢).

(١). ينظر : الترافق في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق : ١٩٤ .

(٢). ينظر : روح المعاني : ١١ / ١٨٤ .

النهاية

نتائج البحث

الخاتمة

وبعد هذا التطبيق لجوانب علم المناسبة في سورة يونس، أرجو أن أكون قد وفّقتُ في عرض الموضوع، ويمكن القول أن هذه الدراسة قد خرجت بالنتائج الآتية :

١. شَكَلْتُ سورة يونس مع السورة التي قبلها، وهي سورة التوبه، ومع السورة التي بعدها، وهي سورة هود مناسبةً فيما بينها، على الرغم من أنَّ سوريَّ يونس وهود من السور المكية، وسورة التوبه من السور المدنية، إِلاَّ أَنَّ ذلك لم يمنع من التحامها معاً موضوعياً في فواتحها وخواتيمها، وائتلافها قصصياً.
٢. تناسبت السور الثلاث (التوبه، ويونس، وهود) موضوعياً في جانب (العقيدة)، على النحو الآتي:
 - أ. توحيد العبودية والألوهية .
 - ب. إثبات البعث والنشور
 - ت. إثبات القدرة المطلقة لله .وهذا كله يعكس اهتمام هذه السور الثلاث بترسيخ مبادئ العقيدة الإسلامية.
٣. مناسبة سورة يونس في التأكيد على مقصودها، وهو : (الوحي ومقتضياته)، وقد سيطرت هذه القضية على كُلَّ مفاصل السورة .
٤. انسجام سورة يونس مع دلالة اسمها (يونس) الذي يحمل معانٍ : (الأنس، والظهور، والإبصار والسماع)، وهذا بسبب ما تتطلبها الفترة الحرجة التي مرَّت بها الدعوة الإسلامية من التضييق عليها وعلى رسولها وأتباعها، والهجوم الشرس على الوحي الذي تستند عليه هذه الدعوة بعد حادثة الإسراء والمعراج، فكانوا بحاجة إلى الإيناس والأنس للتخفيف النفسي عنهم .
٥. تناسب قصص سورة يونس في تحقيق مقصود السورة، فكلها عرضت الدعوة إلى الله، مدرومة بالوحي والبيانات والبراهين، مع بيان عاقبة رفض هذه الدعوة .

٦. جاءت هذه القصص مُشقة مع الجوّ النفسي المشحون بالهموم والأحزان؛ بسبب ما كانت تمرُّ به الدعوة من التضييق عليها، وتعذيب أتباعها، فكان إيرادها لانتشال هذه النفوس المتعبة، والقلوب المكلومة من ذلك الجوّ بالتسليمة والتفيس .

٧. اتَّسَمَت سورة يونس بالعديد من الأساليب التي تحقق المناسبة بين الآيات أو في الآية الواحدة؛ كأسلوب الاستئناف البينيِّ، والتقصيل والإجمال .

٨. وممَّا يُلحظ في سورة يونس، هو ذلك التَّشُوع في استعمال الأسلوب الواحد، بما يتناسب مع سياق الآيات بسباقها ولحاقها، ومن ذلك استعمال أسلوب التوكيد الذي اتَّخذ أشكالاً عديدة، كالتوكيد بـ (إِنَّ)، والتوكيد بـ (اللَّام) الواقعة في جواب القسم، والتوكيد بـ (الحال)، والتوكيد بالمصدر، والتوكيد اللفظيِّ، والتوكيد المعنويِّ، وذلك يعكس حاجة القضايا المطروحة في السورة إلى أسلوب التوكيد بما ينطبق مع حال المتلقِّي .

٩. من مباحثات المناسبة المهمة في دراسة سورة يونس، مبحث المتشابه اللفظيِّ، وهو علم يدرس ما بين الآيات من تشابه وتناسب لفظيٍّ على وفق السياق الذي يرد فيها .

١٠. التشكُّل الصوتي يعُدُّ لبنةً من لبَّنات التَّناسب في سورة يونس، فهو يدرس مناسبة الصوت في موضعه من المفردة القرآنية .

١١. كشف البحث عن أهمية دراسة البنية الصرفية، ودورها في رسم المناسبة داخل الآيات، لما تتمتع به من دلالات عديدة، ومعانٍ كثيرة، تشدُّ من أَزْر السياق اللغويِّ، ومن بين البنى الصرفية الواردة في سورة يونس، بنية التضعييف؛ كصيغتي (فَعَلَ)، و (تَعَلَّ)، وبنية المستقات؛ كاسم الفاعل، وصيغة المبالغة، والصفة المشبهة.

١٢. ومن مظاهر التَّناسب في سورة يونس، تناسب المفردة القرآنية؛ لما لها من تأثير مهمٌّ في خدمة السياق، وتجسيد الصورة الذهنية، وبلوره الحالة النفسية .

وفي الختام يوصي الباحث بالآتي :

- إفراد سورة يونس بدراسة جانب واحد من جوانب المناسبة باستفاضة، واستقصاء موسع لكل الأمثلة الواردة في ذلك الجانب من السورة.
- إيلاء سور القرآن الكريم الأخرى بالدراسة على وفق اهتمامات علم المناسبة، لإغناء المكتبة الإسلامية بروائع هذه العلم، ومكوناته التَّراثية.

- توسيع منهاجية علم المناسبة؛ لتشمل المناسبة البلاغية؛ دراسة الاستعارة، والمجاز المرسل، والمجاز العقلي، وغيرها من المباحث البلاغية .

قائمة

المصادر والمراجع

الكتب المطبوعة

١٥٠

١. أبنية الأفعال دراسة لغوية قرآنية، الدكتورة نجاة عبد العظيم الكوفي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٤٠٩ هـ . ١٩٨٩ م .
٢. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١ هـ)، تحقيق : مركز الدراسات القرآنية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد .
٣. أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمد بن عمرو بن أحمد الزمخشري (٥٣٨ هـ)، تحقيق : محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ / ١٤١٩ هـ . ١٩٩٨ م .
٤. الأساس في التفسير، سعيد حوى (١٤٠٩ هـ)، دار السلام، القاهرة، ط ٦ / ١٤٢٤ هـ .
٥. أساليب بلاغية، أحمد مطلوب أحمد الناصري الصيادي الرفاعي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط ١ / ١٩٨٠ م .
٦. أسرار ترتيب القرآن أو ما يسمى (تناسق الدرر في تناسب السور)، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١ هـ)، دار الفضيلة للنشر والتوزيع .
٧. الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٢ / م ٢٠٠٣ .
٨. أسلوب الحذف في القرآن الكريم وأثره في المعاني والإعجاز ، الدكتور مصطفى شاهر خلوف، دار الفكر، ناشرون وموزعون، الأردن، ط ١ / ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م .
٩. الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، الدكتور محمد كريم الكوار، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط ١ / ١٤٢٦ هـ .
١٠. أسماء سور القرآن الكريم، عبدالله بن سالم بن حمد الهنائي، الأجيال للتسوق، الأردن، ط ١ / ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
١١. الأصوات اللغوية، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر .

١٢. الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج (٣١٦ هـ)، تحقيق : عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان .
١٣. أضواء على ظهور علم المناسبة . الدكتور عبد الحكيم الأنبيس . مجلة الأحمدية . دبي العدد (١١) . السنة / ١٤٢٣ هـ . ٢٠٠٢ م .
١٤. إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب (٤٠٣ هـ)، تحقيق : أبو بكر عبد الرزاق، مكتبة مصر .
١٥. إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرياني، صلاح عبدالفتاح الخالدي، دار عمار للنشر والتوزيع، ط ١ / ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .
١٦. إعجاز القرآن الكريم، الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، وسناء فضل عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ط ٤ / ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .
١٧. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، لبنان، ط ٩ / ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
١٨. الإعجاز القصصي في القرآن الكريم، الأستاذ الدكتور سعيد عطية على مطاوع، دار الآفاق العربية، ط ١ / ٢٠٠٦ م .
١٩. الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، محمود السيد حسن مصطفى، مؤسسة شباب الجامعة، ط ١ / ١٩٨١ م .
٢٠. الإيضاح في علوم البلاغة، أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني (٧٣٩ هـ)، دار الكتب العلمية، لبنان .

﴿ب﴾

- ٢٠ البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسـي (٧٤٥ هـ)، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط ١ / ١٤١٣ هـ . ١٩٩٣ م .

- ٢١ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن على بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليمني (١٢٥٠ هـ)، دار المعرفة، بيروت .
- ٢٢ بدائع الفوائد، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن قيم الجوزية (٧٥١ هـ)، تحقيق : بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، سوريا ، ط ٢٤٢٥ / ٢٠٠٤ هـ - ٢٠٠٤ م .
- ٢٣ البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الزركشي (٧٩٤ هـ)، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١٣٧٦ / ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .
- ٢٤ البرهان في متشابه القرآن، محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى، تحقيق : أحمد عز الدين عبدالله خلف الله، دار صادر، لبنان ، ط ٢٠١٠ / ٢٠١٠ م .
- ٢٥ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (٨١٧ هـ)، تحقيق : محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط ٦ / ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
- ٢٦ بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ط ٢٤٢٢ / ٢٠٠١ هـ - ٢٠٠١ م .
- ٢٧ البلاغة فنونها وأفاناتها (علم المعاني)، الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١٤٢٨ / ١١٦ هـ - ٢٠٠٧ م .
- ٢٨ البلاغة والأسلوبية، الدكتور محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط ١٩٩٤ / ١٩٩٤ م .
- ٢٩ بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي البستي (٣٨٨ هـ)، تحقيق : محمد خلف الله أحمد، والدكتور محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط ٣ (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) .
- ٣٠ البيان في الإعجاز والتناسب في القرآن الكريم، الأستاذ الدكتور عقید خالد حمو迪 العزاوي، دار العصماء، سوريا ، ط ١٤٣٦ / ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م .
- ٣١ البيان في روائع القرآن، الدكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة .

مُتَّ

- ٣٢ تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق مرتضى الزبيدي (١٢٠٥ هـ)، مجموعة من المحققين، دار الهدایة .
- ٣٣ تأویل مشکل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦ هـ)، تحقيق : إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط / ٢٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
- ٣٤ التحرير والتتویر، محمد الطاهر بن عاشور (١٣٩٣ هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ م .
- ٣٥ الترافق في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، محمد نور الدين المنجد، دار الفكر، سوريا، ط / ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .
- ٣٦ التصوير الفي في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط / ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .
- ٣٧ التعبير القرآني، الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، ط / ٢٠٠٢ هـ - ١٤٢٢ م .
- ٣٨ التعبير القرآني والدلالة النفسية، الدكتور عبد الله محمد الجيوسي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، ط / ٢٠١٤ هـ - ١٤٣٥ م .
- ٣٩ التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (٨١٦ هـ)، تحقيق : جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، لبنان، ط / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
- ٤٠ تفسير أبي السعود، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (٩٨٢ هـ)، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا، مطبعة السعادة .
- ٤١ تفسير البيضاوي، أبو الحسن ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (٦٩١ هـ)، دار إحياء التراث العربي، لبنان .
- ٤٢ تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحيي (٨٦٤ هـ)، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١ هـ)، دار ابن كثیر، بيروت، ط / ١٥٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م .

- ٤٣ تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (٧٧٤ هـ)، تحقيق : محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤١٩ هـ .
- ٤٤ التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (١٣٩٠ هـ)، دار الفكر العربي، القاهرة .
- ٤٥ تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (١٣٧١ هـ)، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .
- ٤٦ تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (١٣٥٤ هـ)، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .
- ٤٧ التفسير الوسيط، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .
- ٤٨ التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١٩٩٧ - ١٩٩٨ م .
- ٤٩ التناسب البيناني في القرآن، أحمد أبو زيد، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، ١٩٩٢ م .
- ٥٠ التناسب بين السور في المفتاح والخواتيم، الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار ابن كثير، ط ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م .
- ٥١ تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري الهوري (٣٧٠ هـ)، تحقيق : الأستاذ علي حسن هلالي، الدار الصربية للتأليف والترجمة .

م ج ٢٩

- ٥٢ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٣١٠ هـ)، تحقيق : الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامه، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .
- ٥٣ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (٦٣٧ هـ)، تحقيق : مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، ١٣٧٥ هـ .

- ٥٤ الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (٦٧١ هـ)، تحقيق : الدكتور عبدالله بن عبد المحسن التركي وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط١ / ٢٠٠٦ هـ - ١٤٢٧ م .
- ٥٥ الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود بن عبد الرحيم صافي (١٣٧٦ هـ)، دار الرشيد، دمشق، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط٤ / ١٤١٨ هـ .
- ٥٦ جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف، دار المكتبي، دمشق، ط٢ / ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م .
- ٥٧ جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (٣٢١ هـ)، تحقيق : رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١ / ١٩٨٧ م .
- ٥٨ جواهر البيان في تناسب سور القرآن - لأبي الفضل عبدالله محمد الصديق الغماري الحسني - مطبعة محمد عاطف وسيد طه .

﴿ ح ﴾

- ٥٩ حاشية الصبان على شرح الأشموني لآلية ابن مالك، أبو العرفان محمد بن علي الصبان (١٢٠٦ هـ)، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان - ط١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .
- ٦٠ الحدود في علم النحو، شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد البجائي الآذري الأندلسي (٨٦٠ هـ)، تحقيق : نجاة حسن عبد الله نولي، منشورات الجامعة الإسلامية، ط١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م .

﴿خ﴾

٦١ خصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (٥٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤.

٦٢ خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، ط١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٦٣ خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨.

﴿د﴾

٦٤ دراسات في فقه اللغة، الدكتور صبحي إبراهيم الصالح (١٤٠٧هـ)، دار العلم للملائين، ط١٣٧٩هـ - ١٩٦٠.

٦٥ دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملوك التأويل، الدكتور محمد فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ط١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

٦٦ درة التنزيل وغرة التأويل، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإسکافي (٤٢٠هـ)، تحقيق الدكتور محمد مصطفى آيدین، منشورات معهد البحوث العلمية جامعة أم القرى، ط١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٦٧ الدلالة الصوتية في اللغة العربية، الدكتور صالح سليم عبد القادر الفاخري، المكتب العربي الحديث، مصر.

٦٨ دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، المكتبة العصرية ، بيروت، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٦٩ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البهقي الخسروجردي الخراساني (٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤٠٥هـ.

٧٠ ديوان حسان بن ثابت، دار الكتب العلمية، لبنان، ط٢١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

﴿ر﴾

٧١ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود ابن شهاب الدين الآلوسي (١٢٧٠ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

﴿ز﴾

٧٢ زهرة التقاسير، أبو زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (١٣٩٤ هـ)، دار الفكر العربي.

﴿س﴾

٧٣ سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (٥٣٩٢ هـ)، تحقيق: الدكتور حسن هنداوي، دار الفلم، دمشق، ط٢ / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

٧٤ السياق اللغوي في القصص القرآني، الدكتور أبو تمام أحمد ميرغني عيسوى، دار العالم العربي، القاهرة، ط١ / ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.

٧٥ سيكولوجية القصة في القرآن، الدكتور التهامي نقرة، الشركة التونسية للتوزيع، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، ١٩٧١ م.

﴿ش﴾

٧٦ شذا العرف في فن الصرف، أحمد بن محمد الحملاوي (١٣٥١ هـ)، مؤسسة الرسالة ناشرون، لبنان، ط١ / ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٧٧ شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، أبو عبدالله بدر الدين محمد ابن جمال الدين محمد بن مالك (٦٨٦ هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١ / ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

- ٧٨ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل الهمданى (٧٦٩ هـ)، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار التراث، القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، ط / ٢٠٠٠ هـ - ١٤٠٠ هـ .
- ٧٩ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، أبو الحسن نور الدين علي بن محمد الأشموني (٩٠٠ هـ)، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتاب العربي، لبنان - ط / ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م .
- ٨٠ شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاوي الأزهري (٩٠٥ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت . ط ١ / ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .
- ٨١ شرح الرضي على الكافية، رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي (٦٨٦ هـ)، جامعة قار يونس، بنغازي، ط / ٢٩٩٦ م .
- ٨٢ شرح الشافية في التصريف، عبد الله بن محمد الحسيني المعروف بنقره كار (٧٧٦ هـ)، دار إحياء الكتب العربية .
- ٨٣ شرح المفصل، أبو البقاء موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش الموصلي (٦٤٣ هـ)، تحقيق : الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية . بيروت . ط ١ / ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ م .
- ٨٤ شرح تسهيل الفوائد، أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله الطائي الجياني، (٦٧٢ هـ)، تحقيق : الدكتور عبد الرحمن السيد، والدكتور محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١ / ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
- ٨٥ شرح شافية ابن الحاجب، حسن بن محمد بن شرف شاه الحسيني الاستراباذي، (٧١٥ هـ)، تحقيق : الدكتور عبد المقصود محمد عبد المقصود، مكتبة الثقافة الدينية، ط ١ / ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .
- ٨٦ شرح شافية ابن الحاجب، محمد بن الحسن الرضي الاستراباذي (٦٨٦ هـ)، تحقيق : محمد نور الحسن وأخرين، دار الكتب العلمية، لبنان ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .
- ٨٧ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، جمال الدين بن يوسف ابن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري (٧٦١ هـ)، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ٢٠٠٤ م .

٨٨ شرح كافية ابن الحاجب، رضي الدين محمد بن الحسن الأسترابادي (٦٨٦ هـ)،
دار الكتب العلمية، لبنان، ط١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٨٩ شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري اليماني (٥٧٣ هـ)، تحقيق : الدكتور حسين بن عبد الله العمري وأخرين، دار الفكر المعاصر،
لبنان، دار الفكر، سوريا، ط١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

﴿ص﴾

٩٠ الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسفن العرب في كلامها، أو الحسين أحمد بن فارس القزويني الرازي (٣٩٥ هـ)، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

٩١ الصاحح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (٣٩٣ هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤ / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٩٢ صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحاج القشيري النيسابوري (٢٦١ هـ)، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٩٣ الصرف العربي أحكام ومعان، الدكتور محمد فاضل السامرائي، دار ابن كثير، لبنان، ط١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.

٩٤ صفة التقاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط٤ / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م.

٩٥ الصوت اللغوي في القرآن، الدكتور محمد حسين علي الصّغير، دار المؤرخ العربي،
بيروت، ط١٤٢٠ هـ / ١٤٢٠ م.

﴿ع﴾

٩٦ علم المعاني، الدكتور بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع،
مصر، ط٢٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

- ٩٧ علم المناسبات في سور والأيات، الدكتور محمد بن عمر بن سالم بازمول، المكتبة المكِيَّة، مكة المكرمة، ط ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .
- ٩٨ علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه، الأستاذ الدكتور نور الدين عتر، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، سوريا، ط ٢٠١٦ هـ - ٤٣٧ م .
- ٩٩ على طريق التفسير البصري، الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي، النشر العلمي، جامعة الشارقة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .
- ١٠٠ العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (١٧٠ هـ)، تحقيق : الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال .

﴿ف﴾

- ١٠١ الفاصلة في القرآن، الدكتور محمد الحسناوي، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ط ٢٠٠٠ هـ - ١٤٢١ م .
- ١٠٢ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدرية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (١٢٥٠ هـ)، تحقيق : الدكتور عبدالرحمن عميرة .
- ١٠٣ فضائل الصحابة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (٢٤١ هـ)، تحقيق : الدكتور وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٩٨٣ هـ - ١٤٠٣ م .
- ١٠٤ فواحة سور القرآن، الدكتور حسين نصار ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١.
- ١٠٥ في رحاب التفسير، عبد الحميد كشك، المكتب المصري الحديث .
- ١٠٦ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط ١٧١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

مَقْدِس

- ١٠٧ **قصص القرآن الكريم** ، الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ط ١ / ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ١٠٨ **القصص القرآني** عرض وقائع وتحليل أحداث، الدكتور صالح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط ١ / ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- ١٠٩ **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، عبد الكريم الخطيب، دار المعرفة . لبنان . ط ٢ / ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

مَكْتُوب

- ١١٠ **الكافية في علم النحو**، ابن الحاجب جمال الدين بن عثمان بن عمر بن أبي بكر المصري الإسنوي المالكي (٦٤٦ هـ) ، تحقيق : الدكتور صالح عبد العظيم الشاعر ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١ / ٢٠١٠ م .
- ١١١ **الكتاب**، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف سيبويه (١٨٠ هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣ / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- ١١٢ **الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقوال في وجوه التأويل**، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨ هـ) ، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وأخرين، مكتبة العبيكان، ط ١ / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .
- ١١٣ **كشف المعاني في المتشابه من المثاني**، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني الحموي (٧٣٣ هـ) ، تحقيق : الدكتور عبد الجود خلف، دار الوفاء، المنصورة، ط ١ / ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
- ١١٤ **الشكول**، بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملی الهمذانی، (١٠٣١ هـ) ، تحقيق : محمد عبد الكريم النمری، دار الكتب العلمية، لبنان، ط ١ / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .

١١٥ الكليات، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوبي (١٠٩٤هـ)، تحقيق : عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط٢ / ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

﴿ل﴾

١١٦ لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، دار الكتب الثقافية، لبنان، ط١ / ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

١١٧ اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنفي (٨٨٠هـ)، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وأخرين، دار الكتب العلمية، بيروت. ط١ / ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

١١٨ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (٧١١هـ)، دار المعارف، القاهرة.

١١٩ اللῆمة في شرح الملحقة، أبو عبد الله محمد بن حسن بن سباع بن أبي بكر الجذامي المعروف بابن الصائغ (٧٢٠هـ)، تحقيق : إبراهيم بن سالم الصاعدي، منشورات الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة. ط١ / ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

١٢٠ لمسات ولطائف من الإعجاز البياني للقرآن الكريم، الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، دار النفائس، الأردن، ط١ / ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.

١٢١ اللمع في العربية، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (٣٩٢هـ)، تحقيق : فائز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت.

﴿م﴾

١٢٢ مباحث في إعجاز القرآن، الدكتور مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط٣ / ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

- ١٢٣ مباحث في التفسير الموضوعي، الدكتور مصطفى مسلم، دار القلم، ط٤ / ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
- ١٢٤ مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان (١٤٢٠ هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط٣ / ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .
- ١٢٥ المبدع في التصريف، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (٧٤٥ هـ)، تحقيق : الدكتور عبد الحميد السيد طلب، دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط١ / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ١٢٦ المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، الدكتور محمد محمود القاضي، الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١ / ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م .
- ١٢٧ المتشابه اللفظي في القرآن الكريم . دراسة نقدية بلاغية . الدكتور مشهور موسى مشهور . عالم الكتب الحديث . الأردن . ط١ / ١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م .
- ١٢٨ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (٥٤٦ هـ)، عبد السلام عبد الشافعي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ / ١٤٢٢ هـ .
- ١٢٩ المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (٤٥٨ هـ)، تحقيق : الدكتور عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ / ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .
- ١٣٠ المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (٤٥٨ هـ)، تحقيق : خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ / ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م .
- ١٣١ مدخل إلى القرآن الكريم، الدكتور محمد عبدالله دراز ، دار القلم، الكويت، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- ١٣٢ مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (٤١٢ هـ)، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ / ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .
- ١٣٣ مَصَاعِدُ النَّظَرِ لِلإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّورِ، أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (٨٨٥ هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، ط١ / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

١٣٤ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي (٧٧٠ هـ)، تحقيق : الدكتور عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، ط . ٢٦ .

١٣٥ المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصناعي (٩٢١١ هـ)، حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي، الهند، ط ٢٤٠٣ هـ .

١٣٦ معاني الأبنية في العربية، الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان، ط ٢ / ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م .

١٣٧ معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، دار الفكر ناشرون وموزعون -الأردن، ط ٣ / ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .

١٣٨ معرك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١ هـ)، دار الكتب العلمية، لبنان، ط ١ / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

١٣٩ معجم الأوزان الصرفية، الدكتور إميل بديع يعقوب، عالم الكتب، بيروت، ط ١ / ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ .

١٤٠ المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني (٩٣٦ هـ)، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة .

١٤١ مفاتيح الغيب، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر الرازي (٦٠٤ هـ)، دار الفكر، لبنان، ط ١ / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

١٤٢ المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (٥٠٢ هـ)، تحقيق : مركز الدراسات والبحوث، مكتبة نزار مصطفى الباز .

١٤٣ المفصل في صنعة الإعراب، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (٥٥٣٨ هـ)، تحقيق : الدكتور علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط ١ / ١٩٩٣ م .

١٤٤ مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٥٣٩٥ هـ)، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

١٤٥ المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق وتعليق : عبدالسلام الشدادي، الدار البيضاء، ط ٢٠٠٥ / ١٦.

١٤٦ ملak التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه للفظ من أي التنزيل، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (٧٠٨ هـ)، تحقيق : سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ مـ .

١٤٧ الممتع الكبير في التصريف، أبو بكر علي بن مؤمن ابن عصفور (٦٦٩ هـ)، تحقيق : الدكتور فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط ١٩٩٦ مـ .

١٤٨ من أسرار البيان القرآني، الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار الفكر ناشرون وموزعون، الأردن، ط ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ مـ .

١٤٩ من بلاغة القرآن، أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي (١٣٨٤ هـ)، نهضة مصر، القاهرة، ط ٢٠٠٥ مـ .

١٥٠ المناسبة في القرآن دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين لفظ وسياق اللغوي، الدكتور مصطفى شعبان المصري، المكتب الجامعي الحديث، ط ٢٠١٤ مـ .

١٥١ المنصف شرح كتاب التصريف لأبي عثمان المازني، أبو الفتح عثمان بن جني (٥٣٩٢ هـ)، دار إحياء التراث القديم، ط ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ مـ .

﴿ ﴿ من ﴾ ﴾

١٥٢ النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز (١٣٧٧ هـ)، دار القلم للنشر والتوزيع، ط ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ مـ .

١٥٣ نتائج الفكر في النحو، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (٥٨١ هـ)، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ مـ .

١٥٤ النحو العربي أحكام ومعانٍ، الدكتور محمد فاضل السامرائي، دار ابن كثير، ط ١٤٣٥ - ١٤١٤ مـ .

١٥٥ النحو الوفي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، ط ٣ .

- ١٥٦ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي (١٤٨٥هـ) .
- ١٥٧ النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ٨ / ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .
- ١٥٨ النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى (١٣٨٤هـ)، تحقيق : محمد خلف الله، والدكتور محمد زغلول النجار، دار المعارف، مصر، ط ٣ / ١٩٧٦م (ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن) .
- ١٥٩ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي (٦٠٦هـ)، تحقيق : الدكتور نصر الله حاجي مفتى أوغلي، دار صادر، بيروت، ط ١ / ١٤٢٤هـ . ٢٠٠٤م .

﴿ ه ﴾

- ١٦٠ همع المهاوم في شرح جمع الجوامع، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق : أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط ١ / ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

الرسائل والأطاريح الجامعية

- ١٦١ اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، سليمان محمد علي الدقر، رسالة دكتوراه، كلية الشريعة جامعة اليرموك، بإشراف : الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .
- ١٦٢ الأسلوب البلاغي في القرآن الكريم (سورة الكهف نموذجاً)، دراسة وصفية، محمد بو لحية، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الحاج لخضر، بإشراف : الأستاذ الدكتور عبدالسلام ضيف، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .

- ١٦٣ أسلوب التفصيل بعد الإجمال وأغراضه في القرآن الكريم، هاني خضر مصطفى أبو خضر، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا جامعة النجاح الوطنية، بإشراف الدكتور : عودة عبدالله، ٢٠١٢ م .
- ١٦٤ أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة، دراسة تحليلية، حسن عبدالله طه الخطيب، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين الجامعة الإسلامية، بإشراف : الدكتور عبد الكريم حمدي الدهشان، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .
- ١٦٥ بلاغة المتشابه اللفظي في تفسير البحر المحيط لأبي حيان، مريم بنت عبدالله بن علي القرشي، رسالة دكتوراه، كلية التربية جامعة أم القرى، بإشراف الأستاذ الدكتور : يوسف عبدالله الأنصارى، ١٤٣٢ هـ - ١٤٣٣ هـ .
- ١٦٦ سورة النمل، دراسة لغوية في ضوء علم المناسبة، هشام ستار مهدي السامرائي، رسالة ماجستير، كلية التربية جامعة سامراء، بإشراف : الأستاذ الدكتور أحمد هاشم السامرائي، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م .
- ١٦٧ الصيغ الفعلية في القرآن الكريم، أصواتاً وأبنية ودلالة، ثريا عبد الله عثمان إدريس . أطروحة دكتوراه، كلية اللغة العربية جامعة أم القرى، بإشراف : الأستاذ الدكتور أحمد علم الدين الجندي، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م .
- ١٦٨ المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها، دراسة تطبيقية لسور (الرعد، ويوسف، وإبراهيم)، نمر جير سدر، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين الجامعة الإسلامية، بإشراف : الدكتور زكريا إبراهيم الزملي، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م .